الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.



جنى فواز الحسن

أنا، هي والأخريات

@ketab_n
Follow Me

ketab.me
Best Books

11.4.2013

القائمة الطويلة للجائزة العالمية للرواية العربية
البوكر 2013

رواية

أنا، هي والأخريات

رواية

جنى فواز الحسن





الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

أنا، هي
والأخريات



الطبعة الأولى: 1433 هـ - 2012 م
الطبعة الثانية: 1434 هـ - 2013 م

ردمك 978-614-01-0453-2



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (+961-1)
ص.ب: 5574-13 شوران – بيروت 1102-2050 – لبنان
فاكس: 786230 (+961-1) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت – هاتف 785107 (+961-1)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت – هاتف 786233 (+961-1)

إلى أمّي

إني أتجوّل بين عالمين، أحدهما ميت والآخر عاجز
أن يولد، وليس هناك مكان حتى الآن أريح عليه رأسي

نيلسون مانديلا

-1-

لطالما وقفت على مسافة من حياتي وتركتها تحدث. لعبت دور المتفرج فيها. انفصلت، بشكل أو آخر، عن الواقع، كأنّه لا يعنيني، وكأنّ هذه الأنا التي تعيش فعلاً، تقابلها «أنا» أخرى تراقب الأحداث وتسجّلها. كنت في حالة انتظار دائمة لذاتي التي كانت تهرب منّي إلى البعيد، ثم تعود وتبدأ بسرد أحداث خيالية، وقصص أروع من التي تخبرها الجدات لأحفادهن. بعثت الأحلام دوماً في نفسي المسرّة، وعندما كنت ألتفت إلى ستائر المنزل العاجية اللون والفراغ الذي يملأ الغرفة، كنت أشعر بالخيبة.

أخفت أمّي عني جميع آنية المنزل وقطع الكريستال المنحوت منها أشكال صغيرة، لأنّها على يقين بأنّي، على غفلة منها، سأفرش القماش على أرضية غرفتي، وأصنع قصراً أو قلعة، وأرتّب الأشياء ثم أبعثرها مرات عدة، حتّى أصنع ذاك العالم الخيالي الذي أمضيت فيه ساعات طويلة مع أصدقاء وهميين يتحدثون ويتهامسون ويتشاجرون.

وعندما كنت أجدني وحيدة، من دون جميع تلك الأشياء، لم أكن أحزن. كنت أطلّ من شباك غرفتي، المحمي بشبكة حديدية، وأتأمّل الطرقات والمارّة وأبدأ بنسج حكاياهم، أو أحاول تخمين اتجاهاتهم ومشاغلهم. كان الآخر دوماً لغزاً محيّراً بالنسبة إليّ، عالماً يجب اختراقه ومعرفة ما يدور فيه، ليس من باب الفضول وحده. كانت رغبة أحسبها أبصرت النور قبلي وتلقّتني عندما لفظت أوّل

أنفاسي لتسكنها. عاشت الأنا التي كانت تخبرني الحكايا مع ذاك الآخر وبقيت الأنا الأخرى حبيسة قفص تتفرّج من خلف قضبانه على أحوال الدنيا.

في علاقتي مع نفسي، كنت دوما أسيرة حدّين، التقارب اللّين واليسير، والانفصال المشوِّه حتّى الموت. وصلت أحيانا الى حدّ السماء لأشبه فتاةً صغيرة ترتدي اللّون الأزرق. ومرّات أخرى، كنت أتبع بأنفي رائحة تابوت حجري فأبدو امرأة مسربلة بغلالة سوداء من الرأس حتى أخمض القدمين، في انتظار خاتمة حداد.

آثر والدي، شديد الحماية، أن أبقى في معزل عن خطر العالم الخارجي، وحاول أن يقيني من الحياة. كذلك فعلت والدتي المتقوقعة على نفسها. ومع أنّي كنت أتوجّه إلى المدرسة يومياً، فلم أعرف طعم الحرّيّة والتفاعل مع المحيط. تواصلت مع الأرض في زياراتنا المتقطعة إلى الريف، قريتي الواقعة في ذاك المكان البعيد الذي تصبح فيه الشمس ممكنة، لكنّه يبقى خاوياً وهادئاً أكثر ممّا يجب بالنسبة إلى فتاة مثلي، كانت بها حاجة دائمة إلى الانهماك بأمرٍ ما.

وُجد ذاك الآخر في نفسي وحسب، وبأشكال مختلفة: في سرير نومي الّذي استضفت فيه من أشاء. في بيت الدمى الّذي رسمته صوراً مركبة في ذهني وأعدت ابتكاره مرات عدة. كنت أفكّك الحياة وأعود لأنسج منها عوالم أخرى. ولأكن صريحة، أحببت الأشياء التي أقامت، فقط، في داخلي. وكنت أشعر بالأمان حين أنسج الوقائع في خيالي، وأحيا تفاصيلها حيناً، ثم أنهيها وقتما أشاء. وبرغم أني لم أميّز متى أصبحت فعلا موجودة ومتى كنت غائبة، عرفت أنّها أنا

الّتي تتحكم بزمام الأمور.

تغيّـرت مـع مـرور الزمن. ثم تغيّـرت مرات عدّة. وأكاد لا أذكر الآن ملامح أشخاص مرّوا في حياتي، إلّا إذا قررت الغوص في عمق اللّعبـة واسـتحضارهم فـرداً فرداً، لكي أسـتعيد تواصلاً، لا أعرف إن كان فعـلاً ضروريـاً، أو نابعـاً مـن محاولة لمعرفة نفسـي. ولكن، هل سأصدّق الذاكرة؟ كيف أفعل وقد ارتجلت وجودي دائماً من أماكن غيـر متوقعـة، كفيلـة بـأن تبقيني فـي حالة تيقّظ؟ هـل يمكن أن تبدو الصورة المنتظرة بفارغ الصبر صحيحةً الآن؟ وحتى إن كانت كذلك، لا يهـم كثيـراً. الأمـر الوحيد الذي قد يحدث فرقاً جذرياً في الصورة هو ما لا نقول. ومع ذلك، سأواصل الحكي لأمرٍ واحد لا غير، متعة القول، وربما أيضاً متعة البوح أو متعة الكذب.

ولدت وترعرعت في بيتٍ كبيرٍ نسبياً، تجاوزت مساحته المئتيّ متر مربّع، مقسّـماً بشـكل دقيق. غرفه منقطعة إحداهما عن الأخرى، وأثاثه نظيف الى حدٍّ مريب. في غرفة الجلوس، انزوت المساند دائماً فـي أطـراف الكنبة، وبدت مرصوفة هناك بشـكل عموديّ كأنّها أعين تراقب أو أصنام صامتة. كان كلّ شيء في مكانه: الطاولة المستطيلة التي توسّـطت الغرفة، الهاتف الملقى دائماً على طرفها الأيسـر، في البقعـة نفسـها مـن دون حـراك، وغطـاء الطاولة المتسـاوي بعناية في جميـع أطرافـه. الأوانـي المرصوفـة داخـل خزائن المطبـخ والّتي لم أذكـر أنّ والدتـي غيّـرت ترتيبها يوماً. الأوعية البلاسـتيكية في الطبقة السـفلى الأقرب إلى الباب، والزجاج والصحون والأكواب دوماً في الطبقة الأعلى.

تدرّجت علب المونة حسب الحجم من الأكبر إلى الأصغر، بينما قبعت الخضار في سلّة مقسّمة إلى طبقات. أمّا الفاكهة، فكانت دائماً في وعاء كبير يتوسط الطاولة. احتلّت أكواب «البوهيميا» الواجهة الزجاجية في غرفة الطعام الّتي لم تستعملها والدتي إلّا إذا زارنا ضيوفٌ مميزون، وأرادت أن تكرمهم بشكل استثنائي، أو تعرض أمامهم مثالية اللّمعان التي يعكسها الكريستال الرقيق والمشذّب.

من شدة الدقة في ترتيب الأثاث، بدا المنزل فارغاً ومتوقعاً، خاوياً وصامتاً إلى حدّ الضجر. جرت فيه الحياة بحسب نظام مقرّر لا يتقاطع فيه وقت الطعام مع اللهو أو الدرس. للكلام موعد. وللأكل رائحة واحدة، بعيدة دوماً عن الطعم. الملح فيه معتدل والمقادير حسب الميزان، لم يزد أو ينقص منها يوماً غرام واحد. سُمح لنا أن نتناول قطعة حلوى صغيرة عصراً، أو لأكون أكثر دقة، في الساعة الخامسة تحديداً.

وإن لم يكن والدي الغارق دوماً في مكتبته الكبيرة على درجة صرامة والدتي، فقد بدا هو الآخر منقطعاً عن الحياة. عاش مع الأوراق أكثر ممّا عاش معنا. أمضى ساعات طويلة مع كتب لم أكن أفهم منها سوى أنها ضخمة الحجم ومتناسقة مع النظّارات السّميكة الّتي يستعملها. خصّص ساعة في المساء ليكون معنا في غرفة الجلوس. عدا عن ذلك، لم نكن نراه. في تلك الساعة، تعمّدت الالتصاق به والضحك كثيراً رغماً عن أنف أمّي التي لم تؤمن بحركات هزلية كنت أقوم بها لأخلق مساحة من التعبير بعيداً عن الفراغ الأنيق المحيط بنا.

كنت بينهما دوماً، ولم نكن يوماً معاً. وفي طفولتي، غرقت في تلك العلاقة الملتبسة مع كل شيء لأحسبها حقيقة، واعتبرت أنّ الأهل إطار يجري العالم داخله، فعلقت في حيواتهم سهواً ولم أدرك أنّ في استطاعتي الاستسلام لكوني مختلفة إلّا في وقت متأخر. أدركت أيضاً أنّ للاختلاف ثمناً باهظاً لا تتكفل به الأوراق النقدية، ضريبة مؤلمة تدعى الوحدة، سواءً كانت طوعاً أو قسراً.

والآن، وأنا في بداية العقد الثالث من عمري، لم أعد أذكر تماما أين تركت ذاتي نفسي، تلك الّتي كانت تهرب من أعماقي وتجول في الخارج. أغلب الظنّ أني عجزت عن التقاطها في يوم من الأيام، فاستسلمت لكل ذاك الخواء لا إرادياً. لم أعد أرى سحر سوى ليلاً وأنا ألقي رأسي على وسادتي. كانت تأتي لتربت بيدها على رأسي وتلامس بأصابعها شعري بحنان وشفقة، فترسم لي من ذاك الخيال دوائر لا تنتهي وقصصاً عن الآخر لكي أغفو. عندها فقط، كنت أنام قريرة العين كأني لست في ذاك السرير الكبير، الذي لم أكن يوماً في حاجة لاتّساعه، إلّا لكي أقحم فيه جميع تلك الشخوص التي اختلقتها في مخيلتي، فأحببتها كثيراً وعجزت عن أن أكون معها.

-2-

برغم أنّ عائلتي متحدّرة من بيئة محافظة في شمال لبنان، لم يكن الدين يوماً ركيزة لوجودنا أو هوية ملتصقة بنا. بدا الله غائبا عن منزلنا. لم يكن هناك آيات قرآنية معلّقة على الجدران أو صورة للسيدة العذراء في إحدى الغرف. كان الدليل الحسّي الديني الوحيد

الموجود في منزلنا القرآن المحفوظ بقرب الإنجيل في مكتبة والدي الواسعة التي امتدّت عرض الحائط. وإن بدا الأمر مريحاً من كلّ تلك التشنجات الطائفية والمذهبية، خاصة في بيئة مغلقة كالّتي تحدّرنا منها، فإنّه لم يكن حقيقةً كذلك. اتّصل انعدام الرموز والطقوس الدينية نوعاً ما بغياب الحياة عنا. كنّا دوماً في حالة مريبة من العدم المحايد الذي حوّل الحياة الى لوح خشبي لا رائحة له.

تساوى الكتابان بالمقام في منزلنا لأنّ كلاهما معدوم الأهميّة، بعيدان عن التواصل ولكن ضروريان كي لا تنفصل عائلتي عن تأكيد وجود إلهي أشبه بمعلومة، ولا علاقة له بالإيمان. بعض أصدقاء والدي كانوا مسيحيين، وكنّا نزورهم في عيديّ الميلاد والفصح وسط انفراج غير معتاد لأسارير أبي، وعبوس التهم خلايا أمي التي بالكاد نطقت بعبارتين أو ثلاث خلال تلك الأمسيات.

غابت أيضا اللوحات والألوان والأزهار عن أثاث المنزل المتناسق والباهت. وضّبت أمّي الشق الحسّي للحياة في علب من كرتون ثم غلّفتها بالنايلون. امتلكت قدرة رهيبة على تفريغ الأشياء من فحواها والتعبير الوحيد الذي شهدناه منها كان النوبات الهستيرية التي أصابتها من دون سابق إنذار، فبدت، هي المرأة التي يلبسها السكون، غاضبة ومجنونة، كثور أطلقوا عنانه ليسرح أمام إشارة حمراء، فتلاشى خمولها ووقعت في الفخ بعدما جردت حواسها لتصبح المرأة الشرسة التي لها شكل غريب من الغضب.

كانت والدتي أشبه بامرأة في آن الحيض، مضطربة الأعصاب، جاهزة للانفجار كأمعاء اشتدّ بها الحشو، بعيدة كل البعد عن قدرتها

أن تكون زنبقة مهتاجة في رحاب حقول. وآلمني جدّاً أنّ أمّي الجميلة لا تشبه الأزهار، بل فقط الأمعاء القبيحة.

لم يكن الفراغ الشيء المزعج في المنزل، إنّما عدم القدرة على توصيفه. ليس سيئاً ولا جيداً. لا شيء رائع بالمعنى الجمالي للأمور ولا شيء بشع أيضاً. أطبق الصمت على كل شيء وبقي هدير ذاك الصراخ المتوتر يدور في أرجائنا. بدا المكان أشبه بمسدس مكتوم الصوت، به ضغط متواصل على الزناد. تنطلق منه الطلقات وتنغرس عميقاً فينا من دون أن تحدث أي ضجيج.

عرفت أني مسلمة على كل حال من خلال زيارات الأقارب لنا في عيديّ الفطر والأضحى، برغم أننا لم نحصل على ملابس جديدة كسائر الأولاد في تلك المناسبات، كذلك من صوت التكبير المتصاعد فجراً من مئذنة مسجد المنصوري الكبير، المحلةّ الّتي يقع فيها بيت جديّ، عند سفح القلعة الغربي على الضفة اليسرى من المدينة. وقد شغل الجامع الكبير كما يسمّونه مساحة واسعة في وسط المدينة القديمة، وتميّز ببساطة البناء، وغياب الزخارف، فكانت جدرانه كلّها مغطاة بطبقة من الجير. وعلى واجهة الأروقة الشمالية المطلّة على الصحن، كان هناك ساعة شمسية لتحديد موعد الأذان.

في منزلنا، قدّمت أمّي لزوّارها ضيافةً من «المعمول» و«الغريبة» والشاي بالقرفة. وبرغم رفض والدي القاطع أن نقبل «العيدية» من أحد، كان جدّي يدسّ قطعاً نقدية في جيوبنا، ويقدّم لنا الحلوى الّتي كنّا نسارع إلى التهامها قبل انصرافه خوفاً من أن تحرمنا منها أمّي.

تواصلنا مع العيد من موقع المتفرج الّذي يشتهيه، بحكم حضوره

الواضح حولنا، لكنّنا خشينا الاقتراب منه أو الانخراط فيه. ولم تكن مقاطعة والدي لتلك المناسبة أكثر من طريقة لإثبات تمسّكه بشيوعيته الضائعة وأحلامه الاشتراكية، وتعبيراً عن تكدّس خيباته المتواصلة الّتي أوقع اللّوم فيها على الله، ذاك الذي لم يشر إليه في أيّة مناسبة.

والدي الذي أمضى سنوات يناضل في سبيل ما سمّاه التحرر والعدالة الاجتماعية، أنكر علينا نحن أبناءه حق الفرح بالعيد نقمةً على الدين والطوائف. كان من الممكن أن يشكّل سفره إلى الكويت في منتصف التسعينات للعمل في أحد مراكز البحوث تغييراً جذرياً في موقفه، ولكن لم تساهم تلك التجربة سوى في إشعال حنقه وسخطه على الأنظمة العربية.

لم يذكر من وطنه سوى الموت والخوف. وفي غمرة عجالته للهرب منه، أصاب الاحتلال مدينته. وجد نفسه مشتتاً بين مختلف الأحزاب والأفرقاء الذين تكاثروا من حيث لا يدري. كان شيوعياً، ذاك الأمر الوحيد المؤكّد بالنسبة إليه، يناضل من أجل أسمى ما يمكن التوصّل إليه، يوتوبيا اجتماعية يتساوى فيها الفقراء والأغنياء، ويصبح العيش الرغيد في متناول الجميع، صورة رائعة بإمكانها أن ترضي توقعاته الهائلة والمثالية التي استغرق في تمنّيها.

عبّر مراراً عن سخطه من الموروث وكل ما نتج عنه من تفكّك وإعدام فرص الشباب في الحياة. وعزّز ذاك الحقد شعوره بالاختلاف عمّا أحاط به. وكما يصبح التمرّد من أجل التمرّد نمط عيش، اعتنق والدي الرافض للتديّن والعبادة شريعة جديدة حزبية، متحرّرة، منطلقة وبرّاقة. بات خارجاً على المألوف ومتعلقاً بنظام جديد، دائرته واسعة

وعالميـة، وبالتالـي منحـه ذلـك شـعوراً بأنّـه كسـر كلّ قوانين جدّي المسـبقة وتفـوّق علـى كلّ أبنـاء الحيّ العالقين فـي حيواتهم الضيقة، وأحلامهم التي لا تتعدى حدودها المنصوري الكبير. آمن أنّه سيكون المدافـع عـن الطبقـة العاملة التي انتمى إليها، شـاعراً دوماً بأنّه أفضل من ذلك.

يروي أصدقاؤه القدامى أنّه كان مزوّداً بغريزة دفاعية، اسـتثنائية ومغايـرة، كرجـلٍ يحتضـن قضيّته بقوّة بين ذراعيه، راغباً في مداعبتها ودغدغتها، متأكّداً من أنّه سـيتمكّن من ولوجها وجعلها تبلغ النشـوة مـرات عـدة، فيعـد بذلك الطبقة التـي أراد إنصافها بألا تعود للمعاناة أبـداً. والآن يصعـب علـيّ أنـا ابنتـه، الّتـي لم تعرف خفّته سـوى في ومضات عابرة، ألّا تعترف بأنه تغيّر كثيراً كطير حلّق في فضاء رحب، ثمّ أردته الخيبة، فسقط من السماء ناسياً جناحيه في مكان آخر.

بعد ثلاث سنوات من سفره إلى الكويت، عاد أبي من الصحاري وهو يعتمر قبعة روسـية تعرف باسـم «شـبكا»، كأنّه بذلك يؤكد لأهل الحـي وأقرانـه أنـه لـم يقتنع بالـ«كوفيـة» البدوية والجلبـاب الطويل. تقاطـر الـزوار ليسـلّموا على الرجل العائد مـن الاغتراب متوقعين أن يأكلوا تموراً عربية، أو أن تكون هداياهم مسابح، وإذ بهم يتفاجأون بصورة تشـي جيفارا تتوسّـط الحائط وبقبعة شـبكا. استسـخفه جدي ساخرا ومبتسماً، وقال له «الي بيشوفك يقول كنت ببلاد الفرنج مش بيـن العربـان». تجاهـل والـدي انتقادات زوّاره وبـدا مصمّماً أن تبقي والدتي اللوحة في مكانها، برغم تأفّفها المتواصل، هي الّتي لم تغيّر ديكور منزلها منذ سنوات أو تضف إليه قطعة أثاث واحدة.

بقيت قبعة الشبكا حديث أهل الحي لأشهر عدة، حتّى أنّ البقّال اختلق قصة لزبائنه بأنّ والدي عاد مخبولاً من الكويت إثر تعرضه لضربة شمس في الصحراء أفقدته توازنه. اختلفت الحكاية من راوٍ إلى آخر. اعتقد البعض أنّ الجنّ سكن جسد أبي، والبعض الآخر زعم أنّه تعاطى مخدراً خلال إقامته في بلاد الاغتراب. استعاذت نساء الحي بالله وعرضت خالتي مروى على أمّي أن تصحبها إلى «الشيخ بلال» ليشخّص حالة زوجها. وبعد محاولات عدة، تمكّنت من إقناعها بأن تزور الشيخ الذي يرقي ويفك السحر والمس والعين.

اصطحبتني والدتي معها إلى الشيخ بلال. كنت خماراً يبعد عنها الشكوك، وحذّرتني ألف مرة من إثارة هذه الزيارة أمام أحد. وافقت تماماً، فقد اتقدت نار خفيّة في داخلي تحاول تنشقّ خطر هذا العالم الجديد الواقعي والمختلف. أردت أن أشاهد ذاك الرجل المعجزة كما تقول خالتي، ورحت أفكّر أنّه أحد مساعدي الله وبالتالي من الممكن أن يرسم لي صورة أوضح عن الخالق.

عبرنا زقاقاً ضيقاً ومظلماً لنجد أنفسنا أمام باب كبير يعلوه عقد من الأحجار البيض، وتعاقب في مداميكه اللّونان الأسود والأبيض. صرنا بعدها في الطرف الجنوبي من المدينة إلى جانب مقبرة باب الرمل، بالقرب من مسجد أرغون شاه. اختصاراً للطريق المؤدّي إلى وجهتنا، دخلنا المقبرة وداست أقدامنا الأرض المنهكة بما حوت من أوساخ وحشائش ونفايات وأشجار متكسرة جرّاء الرياح. ساد السكون القبور المهجورة، وأسْقف الأكشاك والمجاري. تسارعت خطوات خالتي وبدا جسدها المتّشح بعباءة سوداء متآلفا مع الموتى

والأرض الّتي احتضنتهم. تبعتها أمّي محاولةً مجاراتها في السرعة، بينما أمسكت طرف ثوبها القطني البسيط والواسع، كثير الجيوب والمزيّن بدوائر بيض كبيرة.

وصلنا بعدها إلى حيّ تكاثرت فيه الأبنية المتلاصقة والمتراكمة، المتّكئة بعضها على بعض، كأنّها تعكس روح الجماعة المقيمة في داخلها. رأيت أطفالا يلعبون برغم فقرهم وضيق حالهم، وفكّرت لوهلة في استحالة انضمامي إليهم لأجد نفسي بعدها في حي أوسع، أبنيته متباعدة ونوافذه مغلقة.

دخلنا إلى شقة من أربع غرف تقريباً، واستقبلتنا امرأة ضخمة في العقد الرابع من عمرها، ذات شامة مكسوّة بالشعر فوق شفتها العليا. عبرنا ممرّ المدخل وقادتنا إلى غرفة كي ننتظر فيها الرجل.

لم يكن الشيخ بلال كما توقعت، ولأكن أكثر دقة، كان ضخم الحجم وقبيحاً. أسنانه كبيرة وبارزة ومصفرّة، وقاسي الملامح، ليست أيّة قسوة، بل تلك التي كنت أخافها وأشعر أنّها كأحجار منزلي تنقض عليّ. أخذ يرمق والدتي بنظرات مريبة، بينما صمتت هي كأنها لن تعرف أن تروي قصتها المكتوبة بكلمات من ثلج.

واذ حاولت الكلام، كانت حروفها ترتبك وتعلق في الفم. جلست في زاوية الغرفة أتأمّلهما بخوف ورهبة، كاللّوحات المعلّقة على الحائط والمرغمة على سماع ما يدور في المكان من أحوال أصحابه وجيرانه. وكلما التقت عيناي بعينيه، شارفت على البكاء من منظره الكئيب والمرعب، والخوف المزروع سلفاً في نفسي من كل ما يتعلّق بالدين ورجاله.

تولّت خالتي الحديث وراحت تروي طباع زوج أختها الشيوعي بلغة الأمثال الشعبية الغريبة والفوضوية. وبرغم مرونتها في السرد، كانت تخلط بين المضارع والماضي والضمائر والصفات، وتتكلّم بلهجة غير مهذبة ووقحة. راحت تخبر الشيخ أنّ أبي لا يضاجع أمّي وأنّها شبه متأكدة من أنّه «معملّه عمل».

وكان الرجل يهزّ رأسه مؤكّداً أنّه على تواصل مع خالتي مروى، مسترقاً النظر إلى والدتي وهو يمشط لحيته بأصابعه. استمرّت خالتي بالحديث قائلة إنّ والدتي أخذت تداعب أبي مرة، فابتعد عنها ونام على بطنه، متنفساً نفساً عميقاً متتالياً، كأنّه طفل شبعان. همس الشيخ بضع كلمات في أذن أمّي، ثم نادى المرأة التي قادتنا إليه، وطلب منها أن تجلب حجراً لوالدتي، وراح يوصيها بأن تضعه تحت فراش أبي من دون أن يعرف.

خلال أسبوع متواصل، صارت أمي تدخل مكتب والدي، تحكم إغلاق الباب وتبخّره بالكامل، متمتمة كلمات غريبة لم أكن أسمعها وأنا أراقب تحرّكاتها من ثقب الباب. حتّى أنّها لفّت أحد كتبه بقطعة قماش كبيرة من لون قرمزي يتخللها خطوط بلون اللّيمون ودسّته في حقيبة خالتي مع أوراق نقدية لم أستطع تقدير قيمتها.

لم تكن أمّي تعرف إن كانت حقّاً متدينة، أو إن كان يجب أن تكون كذلك. لم تكترث فعلياً لقبّعة الشبكا. لم تعرف الكثير عن وجود الله أو عدمه، ولكنّها حفظت بضع آيات قرآنية، وشعرت دوماً بحاجة ملحّة إلى الاقتراب من العادات الإسلامية الاجتماعية الّتي ترعرعت في كنفها، ثم أتى زواجها من أبي لينتزعها منها. رفضت أن

تصدق انفصاله الداخليّ عنها، فرمت مسؤولية ذاك الجفاء على الدين والقـدرات الإلهيـة. وفي سـريرتها، انحصـر تفكيرها في اتجاه واحد: لماذا لا يحسن زوجها معاملتها؟

والدتي، المرأة التي ارتدت لباسا زجاجيا يقيها من ذاتها، أرادت أن يشـتهيها والـدي ويرغبهـا بشـدّة. أرادت أن يحبّهـا ويلهث وراءها ككلب يسيل لعابه لمرأى قطعة لحم كبيرة. أرادت أن تنتشل الاتحاد السوفياتي من شرايينه وتزرع نفسها فيه. أرادت أن تشعر بالفرح لكي تسـتطيع أن تزيّن لنا المنزل بزهرية أو تضيف القليل من النكهة إلى طبيخهـا وأيّامهـا. لطالمـا طوت أحاسيسـها وسـتّفتها جنباً إلى جنب. أمضـت سـاعات طويلـة أمام المرآة تمعن النظر إلـى تكاوينها. كانت ترفع شعرها إلى الخلف وتقيس حجم أذنيها لتتأكد أنّهما متساويتان. وكانـت ترسـم حاجبيهـا بقلـم مائـل إلى اللّـون البنّي، تصبغ شـفتيها بالأحمر القاني، ثمّ تزمّهما وتنهي زينتها بمسـحة من «البلاش» على وجنتيها.

وعندما كانت تفتح الباب لاستقبال أبي، كان يمرّ قربها من دون أن يقول شـيئاً عن تبرّجها، كما لو أنّها مسـاحة غير مرئية من الحياة. بالكاد يتوجّه إليها بالكلام. وكان يجلس على كرسيه المعهود، منتظراً أن تقدّم له وجبة ساخنة مطهوة جيداً، وبلا نكهة أو رائحة.

بعد أن ينهي طعامه، كان يدخل إلى غرفته، ويخرج من صندوقه السـرّيّ زجاجة «فودكا» ليسـكب كأسـاً صغيراً ويشـربه ببطء. احتفظ دوماً بثلاثة أنواع: البيلوغا، الستوليش نايا والموسكوفسكافيا. وحرص أن يتناول كل ليلة نوعاً مختلفاً من الشـراب. كان يسـتمع إلى إحدى

أسطواناته القديمة، ثم يغمض عينيه لتبدو ملامحه منكمشة، ويدخل بعدها إلى السرير ليغرق في نوم عميق. وكانت أمي تصاب بالغثيان كلّما غسلت آثار الكحول عن الكوب، فتتمتم آيات قرآنية تارّةً، وتشتم أصدقاء والدي المسيحيين والشيوعيين تارّةً أخرى.

أحضرت لها خالتي زجاجة عطر عربي ينفرد بتركيبه «الشيخ بلال». طلبت منها أن ترشّه تحت إبطها وبين نهديها وعلى رقبتها صبحاً ومساءً، كأنّها تصف لها دواء لا يجوز نسيان أيّة جرعة منه. أطاعت أمّي أوامر الرجل الذي افترضت أنّه سيحلّ كل مشاكلها بحذافيرها، ونفذتها بدّقة من دون كلل أو تذمّر.

ازدادت طلبات الشيخ شيئاً فشيئاً، وراحت خالتي تلهم أمّي الصبر، مؤكدّة عند كل دفعة مالية أنّها ستكون الأخيرة، وأنّ الحج بلال «مبروك» ولا يأخذ النقود لنفسه، بل يوزّعها على الفقراء لتكسب أمّي ودّ الله ورسله. دسّت أمي هذه المرة مبرومتها الذهبية في حقيبة خالتي وقالت لها «عالله تجيب نتيجة».

وعندما لم تلمس أيّ تغيير في أحوال زوجها، اتّهمت الشيخ بلال بأنّه دجال ومنافق. جحظت عينا خالتي واكتسى وجهها حمرةً خانقة كأنها تلقّت للتوّ صفعة على وجهها. بدا شعرها كأنّه يحترق من شدّة الغضب. أطبقت يدها على فم أختها قائلة «تفّي من تمك. أنتِ يلي زوجك ما بيعرف الله بالمرة. هالزلمة مش مسكون بعفاريت، مسكون بشياطين من راسو لكعب اجريه. روحوا شوفوا انتو شو عاملين لربنا قبل ما تحكو عالمشايخ!».

لفّت خالتي حجابها على رأسها وخرجت مسرعة من منزلنا

وهـي تسـتعيذ بالله مـن زوج أختهـا الكافـر. أغلقـت البـاب بعنـف وتركت أمي المفلسة من آخر حلقات الأمل وحيدة مع حظّها البائس. سيطر الصمت المطبق على الغرفة التي كانت تعجّ بمعارك الشياطين والملائكـة وخلـت فـي لحظات من كلّ شـيء فغاص ذهني في الله، ذاك الممنوع عنّا، الغريب الذي تزعم خالتي أنّنا أسأنا اليه.

-3-

انصرف أهل الحيّ مع مرور الوقت عن انتقاد أبي. كان متعالياً وبعيـداً عنهـم بصـورة غير متوقعـة. وبرغم أنّه غالباً ما شـعر بالملل، أعطى دائماً انطباعاً بأنّه غارقٌ في سهو يبعده عن الواقع المحيط به. تمكّـن مـن أن يظـلّ لوقـت طويل سـاهم النظرات، منغلقـاً في عالمه الخاص، كما لو أنّ كل ما حوله يتلاشى. أحبَّ أن يعتقد أنّه مشغول بقضايا أسمى وأهمّ من أولئك الرجال الّذين أمضوا أيّامهم في قهوة «موسى» بين طرطقة النرد والماء المتحرّك في قعر «النرجيلة».

لم يشاهد التلفاز وصنّفه كجهاز مضاد للثقافة. تركه لوالدتي التي كانت تتمدّد على الأريكة وتقلّب المحطات لتستقرّ على فيلم عربي. عند الثامنة فقط، يشاهد يومياً نشرة الأخبار. يبدي تفاعلاً غير منطقي مـع كلّ خبـر يـذاع، كأنّه بحاجة دائمة إلـى وجود «حدث». ليس أيّ حدث، بل حدث كبير كالحياة التي لم يعشها.

في ساعات لهوه معنا، كان شيء من الرقّة والهشاشة يخفّف من غربة مزاجه. شعرنا كلنا بحريّة أكبر، حتّى أنّه كان يتوقّف عن الكلام بأسلوبه الفخم ونبراته واستخداماته اللّفظية المعقّدة، التي جعلته يبدو

في أوقات كثيرة فظاً وجافاً. للحظات، كنت أشعر أنّه يمكنه أن يكون مسلّياً في رواية الطرائف والمغامرات في مختلف أنحاء العالم. غالباً ما فكّرت إن كان فعلاً على عداء مع الله، وتساءلت كيف أمكنه أن يكون ودوداً وصلفاً في الوقت نفسه، متحجراً ومتحرراً، زرب اللسان وكتوم كأنّه مخنوق بعباراته. راقبته أمّي من بين شقوق تلك المسافة الهائلة بينهما، وتحوّلت نظرات الإعجاب إلى احتقار وغيظ وغيرة. وحين كنا نجلس جميعاً لتناول الطعام، كانت تمضغ بتمهّل، من دون شهية، تتكلّف مشقة في ابتلاع الطعام وتشعر بالامتلاء بعد لقمتين أو ثلاث.

مرّة واحدة، سألها والدي أن تأكل المزيد. تغيرت كل ملامحها فجأة، كأنّ معجزة ما حلّت بالمكان. بدت مرتبكة، وصارت تتلعثم بلسانها. حاولت أن تضفي على صوتها رنّة موزونة، وأسلوباً لبقاً، مسرحياً إلى حدٍّ ما، في تحريك يديها وإظهارهما وهي تسكب الطعام في طبقها. بدت كأنّها تبذل جهداً في تناول الخضر كي تستعيد، عبر طلبه واهتمامه المفاجئ بما تأكل، رغبتها في العيش والسعادة، كي تسترد قواها وتعود جميلة من جديد.

والآن، وأنا أسترجع كيف أضاء وجهها في ذاك العشاء اليتيم، أذكر تماماً كيف كانت تختلج وتئنّ في نومها المتقطع بالأرق، وتقع ضحيّة نوبات الهلع، خاصّة مع غياب أبي شبه الدائم وسفره. عرفتها من ثقب الباب، على ذاك الحال من الخذلان والوحدة. وعرفتها في النهار على ذاك القدر من الانطفاء والقسوة، مسكونة بشعور دائم بالأسى والغضب، ورغبة شرسة بأن تحفظ ماء وجهها، وصورة

العائلة المثالية والمترابطة والغائب عنها، في العمق، أيّ نوع من التواصل، تماماً كما زال الاتّصال الجسدي الضئيل بينها وبين والدي.

كان جسدها صلباً كأنه دائم الوقوف، مرسوماً بشكل عمودي مصطنع في محاولة لإخفاء كل نتوءاته وإخراسه. عندما تمدّدت على الأريكة، برز نهداها المكوّران كأنّهما خارجان للتوّ من علبة سردين ضيقة، وتراءت لنا مؤخرتها المرتفعة التي تناضل للظهور بأبعادها الضخمة في جسد محشور بين حافتي هاوية. امتدّ شعرها حتى وسط ظهرها، لتبدو فعلاً أنثى، وتضمحلّ عن مفاتنها معالم الذكورة. كنت أخال أمي الخشبية تسقط من ذاتها في تلك الوضعية تحديداً التي فضحت مدى طراوتها وانسيابها الرقيق كالماء. والحقيقة الّتي أدركتها، وأنا أكتشف ذاتي، أنّ أمّي لم تكن فعلاً على ذاك القدر من الصلابة والخشونة، ولا على ذاك القدر من الغباء الذي حاول والدي إلصاقه بها. كانت المسكينة تحاول من خلال سلطتها أو تسلّطها أن تستعمر كل فضاءات الحرية، ليس للاستمتاع بها، ولكن لزهق روحها.

اكتشفت أمراً آخر وأنا أنمو، أنّ أبي ليس على ذاك القدر من الذكاء الّذي حاول أن يقنع الجميع به. والدي لم يتحوّل إلى إنسان بالنسبة إليّ إلّا خلال ساعات اللهو واللعب. عدا ذلك، كنت أراه كسائر الأشياء والكائنات الأخرى، منفصلاً عني. وكنت أرفض ذاك الجفاء والانشغال المزيّف الذي يستتر وراءه، فأطرد صورته من ذهني، تماماً كما فعلت مع والدتي. ألقيت المحيطين بي بعيداً، وانشغلت باللّهو مع ذاتي، مع الدمى والأوهام التي امتلكتها.

كنت أتفرّج لساعات من النافذة على المبنى المهجور في الجهة

المقابلة لمنزلنا. كان الطلاء الأصفر منزوعا عن شظايا البناء المتهدّم بسبب الحرب أو «الأحداث» كما كان ذويّ يسمونها. راقبت الغرف الخاوية والمكشوفة والأحجار المنتهكة وتراءى لي مراراً شبح رجل يخرج من بين الاسمنت المفتّت أرضاً. رجل أشيب يشبه والدي كثيراً، ولكنه يبدو أكثر مرونة وهو يتنقّل بين الحطام. استحضرت أهل الحيّ في ذهني ورسمت امرأة لذاك العجوز، ورسمتهما في تقارب وتوحّد عاطفي وحنون. وزيّنَت مخيّلتي تلك الجدران الخاوية بلوحات عدة وصور لأطفال يلهون بحرية في الردهة، بينما تفوح رائحة الطعام الشهي من المطبخ. ملأت المكان بالزوار، وهدايا العيد، و«المعمول»، و«المرقّد»، والموسيقى وكل ما افتقدته في ذاك الوجود اليابس، الصلب والمزيّف. وفي كل مرّة، كان صوت أمّي ينتشلني من أحلام اليقظة لأن الفتيات الصغيرات لا يقفن طويلاً قرب الشرفة أو الشبابيك.

ولأني اعتدت أن أمتثل لأوامرها من دون اعتراض، كنت أجرّ نفسي إلى حيث تريدني وأودّع شخوص حياتي الأخرى بسلام، وموعد قريب للقاء آخر يكون الدفء فيه سيّد المكان.

وكما ذكرت سابقاً، كانت حالة العدم المحيطة بي دوماً متناقضة مع ذاك العالم الداخلي الذي يكاد ينهكني من شدة صخبه وضجيجه. رافقني التوتر، على أيّة حال، منذ الطفولة، وكنت أحسّ أحياناً أنّي أكاد أدوخ من ثقل ذاك الباطن المتعطش دوماً لحياة أكثر تشويقاً وغنى، وأقلّ روتينية.

في داخلي، تاق قلبي مراراً للخفق، حتّى أنّي في لحظات معينة،

كنت أحسبه يتكوّر من شدّة التضخم ثم يهدأ تماماً كقطة شريدة أضناها المواء. لطالما أثار ذاك الخواء في نفسي الذعر، حتّى بلغ أحياناً حدّاً لا أعود أميّز فيه إن كان نتاج شعور داخلي، أو خارجي، ينسكب في نفسي. وفي مرات عدة، كنت أجالس أمّي واخوتي لكي أتأكد أني ما زلت على قيد الحياة وموجودة فحسب.

سرعان ما كنا نبدأ بالشجار، أنا وإخوتي فتصرخ بنا والدتي «اسكتوا. أتظنّون أنّكم وحدكم في هذه الغرفة؟ كفّوا عن استعمال هذه اللهجة. أكاد أختنق من ضجيجكم». كانت تغيّر وضعية جلوسها، وتكتّف يديها محدّقة بنا، فتتحول فجأة إلى رقيب يطلّ علينا ليكتم عنا اللعب، فأشعر أنّنا سجناء ملهاة دائمة، ملهاة غير متأنقة، تنتهي بشكل عام في صورة غير جيدة.

-4-

عندما رافقت والدتي إلى صالون الحلاقة، أمضيت الوقت في تأمّل رأسها ومقارنته مع رؤوس النسوة الأخريات. لم تكن يوما المرأة التي تغسل فروة رأسها خارج المنزل، بل النوع الذي يفضّل أن يتأكّد شخصيّاً من المساحيق الّتي يستعملها. كان حذرها واضحاً، سواءً في تعاملها معنا أو مع الآخرين. خرجت الحروف من بين شفتيها بأناقة مصطنعة فضحت تظاهرها، فيما رفعت يدها بحركة رشيقة لترجع خصلة تغطي معالم وجهها إلى خلف أذنها.

لبرهة، حين كنا نعبر درب العودة إلى المنزل، كان تزلّفها يفضحها ويعرّيها من جفائها، فأشعر كم تتوق عيناها السوداوتان

المكتئبتان إلى الشارع بأشواق لا نهائية. استنشق أنفها المطرّز عبثاً رائحة الهواء، ومالت أذناها إلى الأمام لتستنفرا إلى أبعد حدود قدرتهما على الإصغاء واستقبال مختلف أحداث الحي: نداء تجار الخرضوات، ونباح الكلاب الحرة التي كانت تشعر أنّ مصيرها أفضل من البؤس الذي أحاط بها.

كانت تكلّم نفسها أحياناً وتغرق في مونولوج طويل ترثي فيه ذاتها، كأمّ ثكلى فقدت وحيدها، «شفتي يا سعاد، طلعتي ايد لوَرا وايد لقدام. لا مال ولا دلال. حتى أختك القصيرة الزمكّة عم تشمت فيكي. بس شو بدي أعمل. يلي ما الو حظ لا يبحش ولا يطمّ. هيدا ربنا بيعطي الرزقة للّي ما بعوزها». ثم تستدرك قائلة « استغفر الله العظيم. استغفر الله العظيم».

للحظات، كانت تنتابني رغبة عارمة باحتضانها وإضفاء بعض اللون على وجنتيها اليابستين، فسرقت ابتسامة خفيفة من ثغرها وهي تمرّر أصابعها بين خصلات شعرها. تمنيّت لو نتحدث كأم وابنتها، ولكن سرعان ما عاودنا الشحوب ليكون ثالثنا، فمزّق اليأس الصامت قلبي ألماً ويأساً أخرس يجرح أكثر من أي نداء استغاثة، ثاقباً أكثر من أفظع الولولات.

لم أعرف وأنا أنمو إلى أي حدّ سأشبه والدتي، أو إن كنت سأبدو مثلها باردة ومتشنجة. ولكنّي انتبهت في مراهقتي أنّي كنت أدرب جسدي ليشبه طابور الصباح لكتيبة من الجنود، بلا أيّة معالم. كرهت بشدة طريقة جلوسي، ظهري المقوس، التصاق فخذيّ المريب بطريقة مشدودة كما لو أني أخنق فرجي عمداً، والهلع الذي أصابني

كلما ازداد حجم نهداي.

ارتديت في بداية مراهقتي قمصاناً واسعة خجلاً من بروز أيّة معالم للأنوثة. اشترتها لي والدتي بكميات وبألوان عدة، ولم أتحرّر من ذاك الزي إلّا حين دخلت الجامعة. بدوت غريبة بين فتيات يرتدين ملابس مختلفة، بينما كنت أشبه بملامحي، وحركاتي، وحتّى لون بشرتي، تلك القمصان. محت معالم جسدي الطريقة التي كانت تكدس بها والدتي رزم القمصان بعضها فوق بعض لأبدو نموذجا لآلة خياطة أو مصنع ألبسة ينتج أقمشة جاهزة ومتشابهة.

صمت والدي على ذاك القميص الموحّد، وإن اختلفت ألوانه. كان نوعاً من التواطؤ غير المعلن مع أمّي على ضرورة إخفاء أيّة علاقة لجسدي مع الحياة. لم يكن مسموحاً أن أخفّف من سماكة حاجبي أو أغيّر تسريحة شعري، فقد ضمن أبي بذلك أن أبقى في معزل عن الأنوثة الّتي بدا لي من كارهيها والمذعورين منها. كانت خالتي من كسر حلقة ذاك الزيّ، وأقنعت أمّي بجدوى أناقتي، فإن استمرّيت على ذاك النحو، أشبه الفتيان، لن يتزوّجني أحد.

لا شيء أثار الذعر في قلب والدتي أكثر من فكرة ألّا أتزوج، أن أتحوّل إلى عانس، فيظنّ الأهل والأقارب أنّها لم تحسن تربيتي. لم تزعجها فكرة بقائي من دون رجل بقدر ما كان من الممكن أن ترمز إلى فشلها في زجّ نموذج العائلة السعيدة في ألبوم الصور الّذي كانت تحفظه في الدرج الأسفل من خزانة ملابسها، وتقفل مخبأه بالمفتاح، وتبقيه في معزل عن الأطفال.

كلّما زارنا أحد أقربائها أو صديقاتها، تعمّدت إخراج كنزها

الثمين من حجره، وعرضه أمام الحاضرين «هون صورة سحر بحفلة المدرسة، وهون لما كنت حبلى بأخوها، وهون يوم خطبتي». كانت تغمض عينيها وتقصّ لزائريها الحكاية المعتادة عن لقائها بوالدي أثناء زيارتها لأخته. أعجبت به وهو يتصفح جريدة أجنبية فتعمدت إثارة انتباهه، وتظاهرت أنّها مهتمة بالشؤون الدولية وأخبار الثوّار. كلما روت الحكاية، توقفت لبرهة عن الكلام، وصعدت همهمة خافتة من بطنها إلى فمها. تقلّصت أعضاؤها، وأطلقت تنهيدة طويلة امتدّت إلى زمن غابر لم تكن تعرف فيه أنّ حياتها مع ذاك الرجل ستتحوّل إلى أرق مزمن، وأنّ الضيق سيضغط على حنجرتها لتستعيد الحزن الذي سكنها من شعرها حتى أخمص قدميها.

-5-

لا أذكر تحديداً متى دخل أول رجل إلى فراشي، ولكنّي متأكدة أن الأمر حصل خلال سفر والدي إلى الكويت. وبرغم جهودي لطرده، لم أتمكّن في تلك اللّيلة الطويلة من الابتعاد عنه. كان هناك بين رجال عدة ملأوا الحجرة والبهو الّذي امتدّت أمامه حديقة فسيحة. وتوافق الأمرإلى حد ما مع التوهّج والإثارة اللذين كنت بحاجة إليهما. جميع ما أحاط بنا كان مكسواً بالخزف. كان ينظر إليّ بين الجموع. يدنو ثم يبتعد وما إن أنظر إلى الوراء حتى يكاد يختفي.

لبرهة، لم يعد موجوداً. وبينما تاهت عيناي بحثاً عنه، شعرت بيده تلامس كتفي. كان هناك ممسكاً بذراعيّ. كان وجهه داكناً وملامحه غريبة يشوبها شيء من الحزن. أفسحت له مكانا ليتمدّد

قربي ورحت أمرّر يدي على جبينه، وأتحسّس عينيه وشفتيه وذقنه، ثمّ أسند رأسي إلى صدره وينتابني تلهّف لا يقاوم للإمساك به. واذ بي أستدرك للحظة أنّه ليس موجوداً، فأبكي حتّى أغرق في سبات عميق.

كانت تلك المرّة الأولى الّتي تقر فيها نفسي أنّها بحاجة إلى المشاعر الجارفة والحنونة، وأدركت كم كنت أشتاق إلى والدي، وكم أنّني وحيدة. فضّلت أن أتحدّث مع ذلك الغريب وألقي نفسي بين أحضانه، فرافقني في فراشي كلّ ليلة. كنت أتعرّى أمامه وأتحسّس جسدي بيديه، حتّى أنّي أطلقت عليه اسماً، وتركته يصحبني كلّ مرة إلى مكان مختلف، حسب مشيئته، الّتي لم تحصل في أي مكان سوى أوهامي. وعندما كنت أستيقظ في الصباح الباكر، لم أكن أجد سوى ظلالاً من أثره. وكنت أنسى دوما كيف انتهت الأمور، ليبقى كل شيء بيننا مفتوحاً، من دون نهاية.

في الواقع، كنت تعيسة جداً. ولكن، في الوقت نفسه، كنت مصمّمة أن أدع عيناي تنفرجان من شدّة الانفعال. وبكل جوارحي المشبعة بالخرافات عن أميرات قام فرسان بإنقاذهن من بين فكيّ التنين وتمتمات المشعوذين (الّتي كانت متصلة بمعظمها بالشيخ بلال وخالتي)، كان لا بدّ أن أنقذ نفسي من القحط الغارقة فيه، وأحوّلها إلى فتاة تتلوى بحرّية في قلب غابة، وتركض هناك من دون أيّ قيد.

كبرت الهوّة بيني وبين الحياة، واذ بنفسي تتوه مني، وتختفي عن ناظريّ لتنحني إلى الأمام في مكان مختلف تهمس لها فيه أصوات محمومة بأن تقترب، فتفعل بخطوات بنت صغيرة، قبل أن تتحوّل إلى امرأة. مرّات عدة، كانت ذاتي تدخل سراديب وممرات أشبه بنفق

تسكنه العتمة، فأفقدها ويتملّكني شعور باليأس قد يدوم أيّاماً عدة، ويجعلني أنزوي ساعات في وحدتي كما لو أنّني فقدت شيئاً حقيقياً وليس من محض الخيال.

توالت عادتي باستحضار الرجل في رأسي إلى أن أغرق في نوم عميق، حتى بتّ بالرغم من ضيق وجودي الفعليّ، أغوص في أماكن منفية عني، ليس فقط حسّياً، بل وجدانياً وفكرياً. كنت في حاجة شديدة إلى الآخر، ولو كان مجرد شبح، أو وهم اختلقته ليخفف وطأة الوحدة. وفي بداية علاقتي مع أوهامي، كنت أنتظر ذاك الآخر ليملي عليّ ما أفعل، فأكون بذلك دوماً تحت إمرة سلطة عليا ترشدني وتشعرني بقوتها وشراستها. هذا ما تطوّر عندما تقدمت في العمر، فلم تعد استيهاماتي الجنسية مبنية على الرضوخ والخوف من المبادرة في انتظار إشارة من الرجل. صرت أبادر وأحاول إمساك زمام الأمور، وأمارس الحب حتى أصل إلى النشوة، ولا أفارق جسدي حتى يصل إلى ذروة المتعة.

وغالباً ما كنت شديدة الرقة في خيالي. استغرقت بأحلام مثالية عن الحب والعطاء واختلقت رومنسية منفية عنا في المنزل. أغرمت برجال مختلقين كلياً وتحرّكت في سريري في تنفس خفيف ومتباعد وأنا أراهم يعبرون في داخلي. كان من الممكن ألّا يكون ذاك الآخر واقعاً، ولكن لم يكن ممكناً ألّا أوجده، فقد كان كغيمة دخان يتجسد أمامي في كل لحظة، ويكسو فضاء الغرفة لأبدأ في مطاردته حتى يتبخر. والآن وأنا أسأل نفسي كم من الرجال عرف خيالي، عشرة أو أكثر؟ لم أعد أدري.

وهل كان من جدوى حقيقية لكل تلك الصور؟ ربما كان مجرّد رفض لكل ذاك الجفاء الذي عرفناه. أعرف أنّي كنت أهرب إلى رجالي لأتدثّر بأجسادهم، وأروي عطشاً إلى الاعتراف بشخص ما يدعى «أنا»، رافضة أن ينتهي بها الأمر كوالدتها المسكينة، فتتسابق الخطيئة في ذهنها علّها تجد فيها الخلاص. كانت فتاة صغيرة تختبئ في داخلي، فتاة حرّم عليها اللعب واتّشح كل ما حولها بالقسوة، وكنت أحاول أن أستعيد حقها المسلوب. ربّما كان خياري أن أدرس الهندسة الداخلية الدليل القاطع على اشمئزازي من منزلنا الفارغ الأثاث. الأمر الذي أثار ذعر والدتي طبعاً، فقد كان يجب أن تأخذ دراستي منحى أكثر جدية، لا وجود للفن فيها.

كان الفن تعبيراً عن الخلق، والخلق لأمّي أمر مدمّر، خارج عن المألوف. ليس مكتسباً، بل مرتبط بقدرتنا على العبث بالأشياء، وإعطائها حلّة مختلفة عمّا يجب أن تكون بحكم عرف معين أو عادة. لذلك، كانت تحرص ألّا يبدو أثاث المنزل متغيراً أو شيئاً يمكن استبداله. كان يجب أن يبدو مناسباً ومرتّباً، وليس بالضرورة حيّاً. ولمّا أحضرت لها «كاتالوجات» مختلفة عن المفروشات، وحاولت أن أشرح لها كيف تخلق الأنسجة المتداخلة بصمة مختلفة عن الّتي نعتادها، كانت تعتمد سلوكاً لا مبالياً، لتؤكّد لي أنّ قناعاتها راسخة وليس من إمكانية لتغيير قطعة أثاث واحدة في المنزل. لم تكن تحتمل أن تكون موجودة وسط أشياء جميلة، فذاك قد يفجّر كل الحزن الذي تكدّس في قلبها، حتى آمنت به كنمط عيش.

كان جميع من حولي مقيدين بأنفسهم الاجتماعية، فتعثّر عليهم

العيش، بينما تركت الآخر المختلق لكي يحدث في داخلي على قدر ما كان يصعب عليّ أن أمدّ له يدي وأضحك معه. وكنت أحتاجه بشدة وأخافه لدرجة إنكاره. انفصلت عنه فسكنني. ويبدو الأمر حين أقرّ به ضرباً من الجنون. ولكن هل كنت يوماً شيئاً سوى ذاك الهباء؟ ألم أكن أشبه ذاك الفراغ المحيط بي والّذي يتوق للامتلاء؟ ألم تهرول تلك الخواطر في ذهني حتى أرهقتني فكرة وجودي وانعدامه في الوقت نفسه؟

كل تلك المحاولات لقتل الضجر والوفاء للحياة. كل تلك المرّات التي استعطفت فيها والدتي أن تلتفت في اتجاهي وتخبرني شيئاً عن الحياة تبدو اليوم موجعة. مرّات عدة، كنت أنوي أن أخبرها عمّا يؤرقني أو أستعدّ للحديث مع والدي، فأجد الكلمات تسقط مجدداً في ذاتي، ويبقى ذاك الآخر الوصل المضني الذي يلجني كلّ لحظة من دون أن أبلغ أيّة ذروة. والآن تطاردني جميع تلك الأسئلة الّتي كانت تعلق عند حلقي، وأنا على وشك النطق بها، فأعود لأرسم ابتسامة مذلة وخضوع، كأنّي غير مرئية.

حسدت إخوتي لقدرتهم على الانخراط في الواقع، بينما بقيت خارجاً. كانوا يتهامسون وهم جالسون على كراسي مصنوعة من القش في المطبخ، ويرتكبون بعض الحماقات التي تثير غضب والدتي، فيصمتون فوراً إن علا صراخها، ويعودون إلى الحركة بعد خروجها من مجال السمع. وفي كل مرة حاولت أن أقلّدهم فيها، شعرت أنّي صغيرة الجسم، حزينة، هشة، ضعيفة ومقيّدة الكتفين، لا أستطيع مجاراتهم في العبث والبساطة.

عجزت عن إقناع نفسي أنّنا عائلة سعيدة فعلاً، وأدركت في قرارة نفسي أنّ الفرح لم يلمس عتبة دارنا يوماً. وعندما بدأت دراسة الهندسة، كنت أمضي ساعات طويلة وأنا أرسم ديكوراً مختلفاً لمنزلنا، فأملأ المكان بالألوان، وأصمّم مدفأة حطب وأبحث عن الموقع الملائم لها. لم تكن المدفأة تقتصر فقط على احتياج الأسرة إلى الدفء والحماية من برودة الشتاء القارصة، وإنّما كان لها أهمية أكبر بكثير، وهي الدفء العائلي. فالتجمّع والالتفاف أمامها للاحتماء من زمهرير الليالي الباردة كان سيساعد على تكوين أجواء حميمة، باتت الحاجة لها ضرورة في ظلّ برودة علاقات عائلتي الخاوية.

لكنّ كلّ ذلك لم يجد نفعاً، فقد بقينا دائماً على ذاك الحد الفاصل بين العدم والحياة. وكنت مدركة أنّ شيئاً ما يجب أن يسعفني من تلك المرارة ويجعلني أشعر أنّي أنتمي إلى ذاتي، أو حتى إلى الآخر. كنت بحاجة إلى أن أعرف أنّي لست وهماً، وأنّي موجودة في مكان ما غير الأفكار. وكان ذاك ما دفعني للتعلق بسامي في بداية علاقتي به، فاهتمامه المفرط بجميع تفاصيل وجودي، كان لا يضاهى.

صباح كل يوم، قبل أن كان يخرج إلى تجوّلاته، كان يمرّ لرؤيتي. وكان يتأمّلني فأبتسم، ويتفحّص بعينيه كل ذرة مني، من أخمص قدميّ حتى أعلى رأسي، مروراً ببشرتي القمحية والملساء. ابتسم برضى كلما احمرّ وجهي وهربت عيناي إلى الفضاء الواسع، وأحنيت رأسي عن غير قصد انحناءة خفيفة، ثم ركضت إلى قاعة المحاضرات. لم تزعجه تلك التصرفات الطفولية، بل كانت تخوّله أن يستغرق في مدى نقائي وسذاجتي. كان تلعثمي أمامه يشعره

بالطمأنينة، كأنّه ضمانة أنّي لم أكلّم رجلاً قبله، وأنّه سيتمكّن من الاستحواذ على كينونتي الهشة التي كان من الممكن أن تتناثر بمجرد أن ينفخ عليها أحد، لأنّها لم تكن مترابطة أو متماسكة، وربما لأني لم أعرف إن كانت فعلاً موجودة.

اهتمام سامي بي وإصراره على رؤيتي بشكل يوميّ كان قمة الاعتراف بأني بتّ مرئية، خاصّةً أنّه بدا شابّاً لطيفاً يريد أن يكون معي أكثر من أي شيء آخر. حاولت تجاوز خجلي والتظاهر بأنّي واثقة من ذاتي وشديدة البنية أمامه، ولكنّه كان يعرف أنّي أمثّل، ويرسل إليّ إشارات مفادها أنّ حيائي يروقه ولا داعي للتخلي عنه. كلّما قابلته، شعرت أنّ حجمي يتضاءل وأنّ بنيتي الصغيرة تتلاشى تدريجياً أمام ضخامته، لأتحول إلى لا شيء، فأحاول أن أستمد ذاتي منه. لذلك، بدا كل ما قد يقوله مقدساً أو حقيقة مطلقة لا أستطيع التشكيك بها. فعلياً، لم أكن أعرف سوى ما قد يخبرني، فقد كان احتكاكي مع الحياة دائماً هامشياً من الموقع الخلفي.

لم يكن تعايشي مع الواقع داخلياً وحقيقياً، بل شيئاً يلتفّ حولي وأدور فيه من موقع الاشتهاء والرغبة القصوى بأن أكون، بأن أسمع أنفاسي، بأن أشمّ رائحتي، وأتلمسّ شعري لأتأكد أنّي هنا، في مكان ما. مع سامي، كنت موجودة ومستعدة للإصغاء. أخذت شكلاً ما ولو بحسب ما يناسبه. كان يخبرني ما يحب أن أرتدي، ويشتري لي الكثير من الحليّ، خاصّة الأساور الغريبة الشكل. لم يتذمر من شعري المعقوص إلى الخلف، ولكنّه كان يطلب مني أن أنزع رباطه حين أجلس معه فقط، فيمرر أنامله عبره، ويداهمني فجأة انقباض

خفيف في كلّ أنحاء جسدي. ولأني كنت قليلة الكلام، تسلّم هو زمام الأمور، وبدا مستمتعا بقدرته على التحكّم بمجراها، غارقا في تلقيني دروساً عن كيفية حسن التصرّف للفتاة في أيامنا هذه.

- هل ستستمرين في الرسم بعد زواجنا؟

- قد أفعل. إنّه شيء أقوم به دائماً.

- كم من الوقت تمضين في الرسم؟

- ليس هناك مدّة محدّدة.

- ولماذا ترسمين؟

- إنّه أمر جميل.

- أتعرفين ما قد يكون أجمل؟

- لا.

- الاهتمام بالعائلة.

- هما أمران مختلفان. أليس كذلك؟

- نعم. ولكن قد لا يكون لديك الوقت للرسم.

- ما الّذي قد يشغلني؟

- أنا. ألا ترغبين بأن تكوني معي؟

- نعم. أريد ذلك.

عرفت من البداية أنّه كان شديد الغيرة، محتاطاً ومترقباً لسائر تحرّكاتي. وبدا لي أحياناً أنّي أعيش معه في حالة تفحّص لا تنتهي، فعزمت ألّا أخبره عن خيالي المتّقد بالصور، حتى أنّي بتّ ألجم أفكاري وأحصرها به حتى أغفو. وعندما عبر في مخيلتي، رسمت لنا دوماً بيتاً مصمّماً بأشد طريقة متكلّفة يمكن تصوّرها، ستائر ممتدة

على طول الحائط، كراسٍ وثيرة، ومناضد صغيرة عليها تحف خزفية. أثاث ضخم يستوعب الحياة الجديدة الّتي خطّطت لها، والهالة التي رسمتها لزوجي المستقبلي.

كان مخلّصي الذي سينتشلني من بؤس والديّ، ويسمح لي بأن أحقّق استقلالية ما، ويغرقني بالأساور والألوان. وبالنسبة لفتاة مثلي، لم تجرؤ يوماَ أن ترفع ناظريها إلى ذويها، وتسجّل اعتراضاً على مصادرة كيانها، كانت شجاعة قصوى أن أخالف أوامرهم بألّا أتحدّث مع أي رجل غريب. تحوّلت نقمتي إلى ذاك العصيان السرّي ولأني كنت أقوم بضدّ ما توقّعوا أو طلبوا مني، حسبت ذاك التناقض بين الّا أكون وأصبح فجأة كياناً محاطاً بسامي، عين الصواب، وبأنّ المخالفة أو الانغماس في الاتجاه المعاكس هي الدرب الذي يجب سلوكه للخلاص.

كانت تربية سامي دينية، ولكنه لم يكن يوماً مواظباً على الطقوس اليومية للممارسة الدينية كالصلاة والصوم وما إلى ذلك من فرائض، وبرّر الأمر بضيق الوقت أو المرض. كان حريصاً على انتمائه لهويته الإسلاميّة، فقد أعطته حسّاً بالفوقية تجاه الطوائف الأخرى. وكان زوجي مؤمناً بأنّ «المسيحيين» لا يدخلون الجنة وأنّها حكر على مجموعة من النخب الإسلامية. كان إيمانه متعنتاً ومتعالياً، كسائر أفراد عائلته، كأن علاقتهم بالله نفعية، وكأنّهم يدخلون الطبقيّة في الدين.

ففي حديثه عن الخالق، بدا سامي كأنّه يقوم بعملية حسابية قائمة على توبيخات صارخة لتقاعسه عن توظيف تديّنه في محاربة كل ما

لا يتناسب مع آرائه. ولكن بالنسبة إليّ، أنا من كنت توّاقة لولوج بيئتي من أيّة نافذة صغيرة، كنت أرسم صورة لذاك الاله، السلطة القصوى التي تكلّمّ عنها سامي، فأحسبه وكيل مبيعات لإحدى شركات المفروشات، وأشعر أنّي كلّما أحسنت التصرف، كلّما صارت فرصة الحصول على قطعة أثاث إضافية مشروعة. فأبتسم بعدها بخبث، في انتظار مكافأة الهية ما.

عندما كنت أعود إلى المنزل، كنت أنظر إلى أبي بشفقة كأنه ليس أكثر من أحد منتجي الأقمشة الفاشلين، يفاصل خيّاطي الباياضات المنزلية ومستوردي البرادي الجاهزة، برغم أنّه لم يكن يوماً مهتمّاً بالتجارة أو مؤمناً بها. كنت أصرّ أن ألصق به صفة تاجر أدنى مستوى، أقرب إلى الشياطين وكلّ ما اتصل بالعالم السفليّ الذي يحترق فيه الكفّار أمثال الأب المتعنّت الذي يرفض تعليق آية الكرسي في الصالة.

بقي اهتمامي بالدين برغم ذلك سطحياً، ودار حول نفسي واهتمامي بأن أجد الوجه الآخر لعائلتي، جديّ وخالتي وغيرهما من الأقارب الّذين كانوا يذكرونه في كلّ مناسبة، ويراعونه في كافة الطقوس، بدءاً من أغطية الرأس حتى التوجّه إلى المصلّى يوم الجمعة. كان الله وسيلة اجتماعية تخوّلهم الانخراط أكثر مع أهل الحي، فأصبحوا مقبولين من الجميع ومحبوبين، على عكس ذويّ، وخاصّة والدي الذي كان الرجل المنبوذ والموبوء، الملحد-الآخر المختلف الّذي لا مكان له وسطهم.

وبرغم كونه الموبوء، كان أيضاً المجهول، الرجل الغامض الذين

يريـدون أن يتقرّبـوا منـه. أغراهم منظـر المثقّف الذي أحبّ الجلوس لسـاعات طويلـة فـي المقاهـي، ظاهريـاً منفـرداً، ولكن في الأسـاس من أجل المحادثات والنقاشـات، ومن أجل الشـاي المغلي وتصفّح الجرائـد والمجـلات. كانـوا يتأمّلونه وهو يتعامل مـع النوادل معاملة السيّد المتشدد وكثير الطلبات، ولكن من جهة أخرى، برحابة صدر.

الشاي إمّا بارد أو ساخن جداً، والقهوة ليست مغلية على القدر الكافي، وما إلى ذلك من انتقادات لا تثبت بالضرورة شيئاً سوى رغبته أن يفهم المحيطين به أنّه يعرف أكثر من الجميع. كان يرتشف القليل من شـرابه، ويدخّن سـيجارة أو سـيجارتين، ويرفع حاجبيه عند قراءة الصحيفة كأنّه اكتشف للتو سرّ تفشي الأزمات في العالم العربي، أو كيفية تطوير العالم الثالث ودفعه الى النمو.

هكذا نظرت إليه أمّي أيضاً، كأهالي الحيّ، كأنّه السيّد الغني الذي يجب أن يخدموه بتواضع وتقدير، وخشية وإخلاص وتسامح من غير حدود، لسبب واحد أنّهم لم يكونوا قادرين على الغوص في أعماقه، ولأنه بدا دوما منهمكاً في ما قد يفوق قدرتهم على الاستيعاب.

ولكن ذلك لم يكن حقيقياً، فأين انجازات السـيّد الذي أمضى أكثر من عقد كامل في الوهم والبكاء على الأطلال؟ بدا لي أنّ الزمن توقّف عند محطة واحدة في توقيت والدي، انهيار الاتحاد السوفياتي، وتحديداً سـقوط جدار برلين وانتهاء المانيا الشـرقية الاشـتراكية التي أمضى فيها بضع سنوات وظنّها المكان الّذي لا يقهر.

بـدا لـي أن دويّ انهيـار السـور ما زال يتـردّد في أذنيّ أبي حتى اللّحظـة، كأنّ كلّ السـنين التـي أتـت بعد ذلك لم تكن أكثر من وهم

حوّل كل ما اتّصل به إلى سراب أيضاً. بقي العمال مظلومين وبقيت شبكات المصالح متحكّمة بالسلطة. مات أصدقاؤه ولم يتزوّج مناضلة مثله. لم يعترف أحد بألمعيته وانهار سور برلين، متنحياً للرأسمال المتوحّش الّذي انقضّ على حيوات البشر. ومع أفول حلمه الكبير، غاب أبي عن العيش، مستكبراً على القدر، عاجزاً عن الاستمتاع بأي شيء، سواءً أبوّته أو عمله أو حتى مضاجعة زوجته. تحوّل قضيبه إلى عضو منسي وعصيّ على الانتصاب، رافض ولوج امرأة عدا عن أرملته الثورة.

-6-

في كثير من المرّات، تهدّد الوقائع الحقيقة. نسترسل في الحياة المطبوعة كما يجب أن تكون، ويفرض الكون سطوته علينا من دون أن ندرك. وقد مضت سنوات عدة فقدت خلالها لذة العبور إلى شطحات نفسي، إلى المثير، إلى العميق، إلى المضيء والمستحيل. ويبدو لي أنّ حياةً برمتها مضت من دون أن أعرف إن كنت حيّة فعلاً. وفي مرات كثيرة، كنت أشعر برغبة فعلية في الغياب، والاختفاء والتحوّل إلى ذاك العدم الذي لم أعرف سواه منذ طفولتي.

وكما ذكرت في البداية، كنت محكومة بالرغبة منذ نشأتي. أخذت تلك الرغبة تتطوّر وتأخذ أشكالاً مختلفة في كل مرحلة عشتها. واذ اقتصرت علاقتي بالرجال، الّذين استضفتهم في مخيلتي في بداية المراهقة، بالمداعبة، اختلف الأمر بعد زواجي، كأنّ شبقي أخذ يتوسّع ويستدرج إلى كينونتي ضرورة قصوى لتأكيدها. كان

شـرطاً لوجـودي أن أتعـرّى مـن كلّ شـيء لأبلـغ عمقاً في نفسـي لا يستطيع أن يكون خارجياً، بل كان يجب أن ينضب من الداخل لأتأكد من صدقيته.

كنـت أحـب الرجـل وأتـوق إلى الوجـود الذكوري فـي حياتي. ورسمت نفسي دوماً بين ذراعي عاشق، كأنثى منوّمة مغنطيسياً يضيء وجهها من بريق الشارع الذي يتسرّب من النافذة، بملامح ذاوية، في حالـة استسـلام كامـل. أجمل اسـتيهاماتي كانت تلـك التي أصبحت خلالها في حالة هدوء كامل، كأنّي بلغت لِلتو ذروة السكينة. حدث ذلـك حيـن كنـت أحصل على متّسـع من الوقت للانفراد بنفسـي في المنزل، فكنت أسـتغرق في الخيال إلى أن أصبح شـديدة الهشاشـة، مرتعشـة كعصفـور صغيـر لـم يعـد بإمكانك أن تقسـو عليـه، حتى لا تنطفئ حياته. ذاك هو العمق الحقيقي الذي كنته، طفلة مزوّدة بغريزة متطـورة بصـورة اسـتثنائية للبقاء، راغبة فـي المداعبة والتدليل، ولكن خائفة من أن أطلق ضحكاتي عالياً كي لا يسلبني إياها أحد.

ربما كان الزواج حلّا لكي أشرّع الرغبة وأحيطها بغطاء مقبول. وجدت نفسـي في حالة ذعر من أن يتركني سـامي لسـبب أو لآخر، فصمّمـت أن أقـدّم لـه قبـولاً وطاعة عمياء كـي أضمن وجوده قربي. وعندمـا تقـدّم رسـمياً للارتباط بي، كنت مربكـة حتّى الضياع، ولكن متلّهفة. حضر سامي ووالداه لزيارتنا وسط خوفي من تصرفات والدي البعيـدة عـن اللّياقـة، وإصرار والدتي على أنّه قد يسـبب لنا الإحراج أمام الضيوف إن بدأ برواية وجهات نظره العجيبة، على حد وصفها.

لـم يرحـبّ والـدي بضيوفه كما يفعل الآباء عادةً، ولولا حضور

خالتي وزوجها في تلك الأمسية، لهرب «العريس» إلى غير رجعة. بعد انصرافهم، اختلى بي في غرفته. كان كتفاه مرتخيين ورأسه متعباً، وبدا كأنّه يعوم في دائرة الضوء الأصفر الذي صدر عن مصباح طاولته، وسألني «انت بدك تتجوزي يا بابا؟».

شعرت بالخجل وأومأت رأسي إيجاباً. نظر إليّ مجدداً وقال «مش بعدك صغيرة يا بابا؟». لم أعرف ماذا أقول، ولكن فجوة زمنية تفجّرت في تلك اللحظات، وجعلتنا ندرك أننا لا نتحدث أبداً، فقد كانت نظرات والدي تشير إلى بعدنا المتراكم على مدى سنوات طويلة. سكتنا إلى أن كسر والدي الصمت بزفير طويل وقال «خير يا بابا، خير».

تزوجت سامي وتحققت رغبة والدتي بأن تتوّج نجاحها في تربية العائلة السعيدة بمراسيم تقليدية لم أعرف منها سوى أنّي سأصبح شيئاً آخر، وسأخرج من ذاك الشحوب الذي كان يخنقني فأفقد القدرة على احتماله أحياناً، وأكاد أبصق نفسي أو أخبطها كي أسحق الميكروبات التي تسلّلت إليها خلال عيشها.

تأمّلت بضيق المدعوات إلى حفل زفافي البسيط، فقد كنّ جميعهن متقدّمات في السن، صديقات والدتي وخالتي، نساء بمشدّات ضيّقة وجوارب نايلون، مصقولات بالتسريحات المنفوخة أو أغطية الرأس والكثير من الحلي من الخواتم والأساور والحلق. راقبت والدي المأخوذ بنفخ سيجاره الكوهيبا في محاولة أخرى منه للظهور كإنسان مصقول ولامع بطبيعته، بينما كانت والدتي تتعمّد أن يظهر كل شيء في قمة النظافة والترتيب. ذهلت لرؤية جديّ الباسمين

يتـورّدان كمـا لـم يفعـلا من قبل. وأدركت حينهـا أنّ لحظة الاحتفال بالبنـات لا تكـون سـاعة ولادتهـنّ، إنّمـا سـاعة عثورهـنّ على زوج. وفكّـرت بـكل الفتيـات اللّواتي يقال عنهن «عوانـس»، فتمرّ حيواتهنّ من دون ابتسامة رضا قد ترتسم على ملامح أفراد عائلاتهن. ولكن ما همّي بهنّ، شعرت أنّي أفضل من كل البنات لأنّي عثرت على زوج، وكنت أستودع نفسي التي أنجبها والديّ، شاعرة بالفخر والنصر لأنّي وجدت كياناً آخر يمكنني أن أكون فيه وأتخلّص من عدمي.

طلبت من سـامي أن يشـتري الكثير من اللّوحات لنعلّقها على جـدران المنـزل، كأنّـي أنتقم سـرّاً من خواء منزلنا، وأشـعر كم كانت رهيبة، تلك السـنوات من الملل وهدر المسـاحة، وكأنّي في زواجي، سـأتوجّه إلـى الوجـود الجديد، الجنّة، إلى أحـداث واقع ما في تلك المخيلة التي سيطرت علي.

هكذا أصبحت على مقربة من الوجود، مصمّمة أن أرمي في سلّة القمامة كل الماضي، متأبّطة ذراع سامي، مفعمة بالآمال أنّي سأكتشف أخيراً كيف أكون امرأة. ورحت أفكّر كيف تضحك لنا الحياة لتمنحنا مـن حيـث لا نـدري تعويضـاً عـن كلّ مـا مضـى. كان سـامي الآخر الجديد، الآخر-الضد لكل العبثية الشعواء التي لم أعرف سواها.

كنت سأتوقف أن أكون مجرّد فتاة من عامّة الناس، بل سأصبح زوجـة أحدهـم، سـيعترف رجـل مـا بأهميتـي ويسـتمتع بمشـاهدتي وتملّكـي. وسأسـتمتع بإلقـاء عدميتـي عليـه لكـي يتلقفهـا وسأشـعر بالراحـة وأنـا أهبـه ذاتي التـي أهرب منها ليحتملهـا، أو لأصير جزءاً منه، وبالتالي، لن يتعلق وجودي بي فحسب، بل سيصبح ذاك الآخر

وجهة أتبعها فأتخلّص من عناء الحياة اليومية، وأبلغ درجة معينة من الأمان لأنّي لن أكون موضع ذاتي.

كنت أشعر بالامتنان تجاهه، وأبذل ما بوسعي كي أكون على درجة النبل والوقار والأدب التي أعجبته، فأقدم له الشكر المستمر على انتشالي من الثلاجة التي كنت أحيا فيها. والآن وقد تيقّظت أنّي تحوّلت تماماً إلى كلّ ما هربت منه، صارت تتملكني رغبة صاخبة بالضحك أو ربّما بالبكاء، لأنّي كنت أجري كلّ معاركي وحملاتي بأيدٍ فارغة. وكنت دوماً مسحوقة بشعور أقوى مني جعلني أدمن الحرمان، وليس الحرمان بمعنى إنكار اللذة أو الفرح، بل استحالة إقناع نفسي بأني أستحق البعض منه. فتحسّست مراراً وجهي ساخرة لأتأكد أنّي لم أكن سراباً، وفي سريرتي، أردت أن أختفي وأصبح ذاك اللّاشيء، أو أن أضحك لساعات طويلة، لأني عرفت أني مجرد مصادفة لم تكن الحياة مستعدة لحضورها. واذ استقبلتها، كانت تشعرها دوماً بأنّها ذاك الفائض الكثيف الذي لا مكان له.

وفي كثير من المرات، كنت أبكي من الرغبة، التي اكتشفت مع الوقت أنّها لم تكن رغبة جنسية، بل رغبة في الوجود، في إثبات كينونة ما، وكان جسدي يئن نابضاً كشكل من العصور البدائية، شبيهاً بالغرس الذي ينبت من تحت التراب، فأغمض عينيّ، وتلتهب شرارة كهربائية تسري بين أعضائي، لتكشف نفسي الشغوفة والتواقة على ما هو أعلى من مستوى فهمي وإدراكي.

وفي استيهاماتي، صرت أدور دوماً حول نفسي، وأشعر بلسان الآخر الذي يبلّل نهدي فيحيطه بباطن يده كمن يحمل ماسة صغيرة

ويرسم حوله دوائر تجعلني أنتفض. كنت أسند رأسي إلى الخلف وأغمض عينيّ لأرى ما هو أبعد من الوقائع، وترتاح يدا الآخر على عنقي فيما يتمدّد فوقي ساخناً وهو يستقي رهافة بشرتي وجسدي المهجور، وتبدأ رائحة أنفاسه الرطبة والفاترة بملامسة شفتي المفتوحتين نصف فتحة وعلى استعداد كامل لالتقاط المتعة.

ولشدة التصاقي بنفسي، كان ذاك الآخر يتحول فجأة إلى حقيقة فأمسكه لبرهة برقة شديدة وأمرّغ رأسي في صدره وأغرق في الصمت. كنت أخرج من مستنقعات العتمة وأتحرّر من الهباء وأستمر بممارسة ذاتية مع شركائي الوهميين حتى أفقد الشعور بعضوي الصغير والرطب، فيتحرك لأنتهي برعشة في أسفل بطني وساقي. كنت أسترخي بعدها، كأني صرت إحدى تموّجات البحر العذبة ساعة هدوئه بعد عواصف عاتية، فأبتسم وأضحك أحياناً بمكر شديد لأنّي سلبت الحياة لحظة فرح وسلام، وتمكّنت من بلوغ ذروة ما، أنا التي لم أعرف من نظرة والدتي إلى كيانها المبتور والمهدور سوى الحضيض.

-7-

هل كنت دوماً على ذاك القدر من الوحدة، أم تراني لم أتعلّم كيف أكون على قيد الحياة؟ ولماذا كان عليّ اختبار قسوة الشهوة الجنسيّة على هذا النحو؟ بدا لي أنّ شيئا لن يشبعني يوماً، وكنت في الوقت نفسه مسكونة بشعور نقيض، أنّي لا أريد شيئاً على الاطلاق. الجنس بالنسبة إليّ كان ذاك العالم السفلي الذي سيؤدّي بي إلى

الجحيم والحضيض فأخسر مثاليّتي الموروثة عن أمّي. وشعرت أحياناً برغبة بأن أكون مترّفعة عن كل ما هو دونيّ وماديّ، المضاجعة ضمناً، لأضمن بذلك كياني الأنثوي الإجتماعي.

وكان ذاك السفليّ والغريزيّ ما جعلني ألتصق بالأرض مرات عدة، ودفعني لأخلع ملابسي وألمس ببطني البلاط، وأتلذّذ ببرودة تطفئ هيجاني الداخلي، فيصبح عضوي رطباً كفتات الصخور المشرذمة، وكلّما عانقت شهوتي، صرخت بأعلى صوتي لأغلبها وأثبت لها بأنّي أقوى من أن أكون امرأة منحطة تقدس اللّذات، وبأنّي أشبه زوجة سامي المتخيّلة وصديقات أمي.

ومرّات عدة، كنت أتحوّل بعدما أتسلّل إلى الحمام إلى حيوان مفترس، فأطرق الباب الخشبي بكتفي ثم أضرب جسدي بالحائط، وأستمر بالالتفاف دائرياً حول ذاتي إلى أن أهدأ ويسري خدر خبيث في أعلى فخذيّ.

كنت وحيدة مع نفسي، أي مع الضيق والقلق لذهن مهشم لا يكف عن التفكير. وعندما خلا البيت من سامي والأولاد، بدا لي أنّ توتّري العضوي يدوم أكثر مما ينبغي ولا يهدأ، فكانت تنتابني رغبة جامحة بأن أنزع الباب الذي تأمّلته لساعات، وبدت عتبته خالية في انتظار أن أجتازها إلى مكان آخر. وكان حزني ينتهي دوماً باشمئزاز عنيف من الخشب والجدران، لأني كنت أتمنّى رؤية الخارج وحرمتني تلك الحواجز من ذلك.

لكنّ ما أريد وما لا أريد لن يمحوا يوماً فراغ سنوات عدة من الصراخ الصامت والخوف من أن أعبّر عمّا يحصل في داخلي. كان

لساني أشبه بكرة لحم تتدلّى من الحلق ثم تتكوّر للاختفاء في الداخل كلّما ابتلعت صوتي. لم تشبه شهوتي الأجساد فحسب، بل الأسماك الّتي يحبسونها في أكواريوم صغير، وتدور فيه لساعات حتى تموت من الضجر، بعدما تحوّلت إلى اكسسوار في حياة البشر. كنت أرى نفسي في أعين الحيوانات البرمائية تتفرج من خلف الزجاج على عالم لا صلة لها به وتتوق إلى شيء تعرف أنها أتت منه، ولكنها لا تذكر ما هو.

تلك كانت حالتي عندما كانت والدتي تطوف بنا أسواق المدينة المحلية، فأرى أجساداً بأنماط مختلفة تعبر قربنا مزدحمة. الباعة الذين ينادون على بضائعهم ويتقدمون بعروض خيالية للمارّة لإغرائهم بالشراء. الألوان، الكثافة، الأولاد الّذين لا يرتدون ثياباً نظيفة مثلي، ويهرولون بحرية بين سيقان المارة. رائحة الكعك الشهي الذي يفوح من كشك صغير وأبي الذي حرّم علينا تناول كلّ ما هو معرض للهواء وليس محمياً وراء واجهات زجاجية.

لم أعرف يوماً لماذا كانت تصحبني إلى الأسواق الشعبيّة، برغم أنّها آمنت بأننا من تلك النخبة المتوسطة الحال مادياً، ولكن أرقى وأعلى بدرجات من سائر الكائنات. ذاك كان الشعور الذي يملأها ويشكّل العبء الأثقل عليها، أن تكون زوجة المثقّف وبالتالي، ألّا تتصرف بعفوية مع صديقاتها اللواتي كانت يوماً مثلهن، من عامة الشعب.

حملت على ظهرها وصمة حظها العاثر وزوجها الذي لا يلمسها إلّا في المناسبات، أي لإنجابنا نحن أولادها الاربعة. انقطعت عن

صديقاتها كي لا يتمكنّ من رؤية نهديها اللّذين أكلهما الدود، وفرجها الّذي ارتدت سروالاً داخلياً فضفاضاً وأكبر بقياسين دوماً كي لا يحتك به، فتتذكر على هامش صحوة كيف يلمس الرجل جسد امرأة.

ربما هذا ما كان يحفزها على اجتياح كل تلك الأرصفة بنهم وبسرعة، خائفة من أن يلمحها أحد، ومن أن يعرف والدي أنّها تحب التسوّق في أماكن الفقراء والعوام، أو أنّها ترغب بتعليق آية الكرسي المذهّبة في وسط الغرفة. كان يؤلمها أيضا أن يكتشف أنها تؤمن بالله، وتحب الصلاة أحيانا كي تصبح كأختها التي يلجها زوجها يومياً بعد أن يصلي الفجر.

كانت خالتي تصف لأمّي كيف يضاجعها زوجها، بلا انقطاع، وتسرف في الكلام عن حجم عضوه وكيف يصفعها على مؤخرتها كلّما اقترب من القذف، فتبلغ رعشتها مرات عدة ومتتالية. وكنت أشعر أنّ خالتي تتعمّد العضّ على شفتيها كلما وصلت إلى الجزء الّذي يتناول النشوة من الحديث، كأنّها تريد أن تثير غيظ أمّي وتؤكّد لها أن النذل البرجوازي الذي ارتبطت به لا يصلح لشي سوى القراءة والكتابة، تماما كأن الثقافة ليست سوى عاهة نخفي انكساراتنا وراءها.

لا يهم كثيراً ما دفع والدتي إلى الذهاب سرّاً إلى الأسواق الشعبية، فما أعرفه هو أنّي كنت أستمتع كثيرا بذاك الاحتكاك المباشر مع الأجساد الّتي راقبتها تعبر أمامي، الأصوات الحقيقية التي انسابت إلى مسمعي، الضجيج، المكسّرات المعبّأة في أكياس نايلون، حتّى القمامة المرمية على أطراف الطرقات، كانت تشبه الكائنات الحية.

البيجامات الرخيصة والمعلّقة بعشوائية على ناصية الشارع،

الأقمشة المعروضة في واجهات المحلّات، والشخوص المنهمكة في الأحوال اليوميّة، كلّها بعثت في نفسي مسرة ولكنّها أبقتني في مؤخرة الحياة، فإن كنت أشاهد حينها من مسافة أقرب، بقي ممنوعاً عنّي أن أكلّم تلك الأجساد، أن أرى أفواهاً تتحرّك عن كثب، أن أتناول حبة فاكهة غير مغسولة عن بسطة خضار، أن أطلق العنان لنفسي المأسورة وأسمح لها أن تغوص في ما يسمّونه الحياة.

بقيت مرآة لأشياء تحدث، أشبه بحيوان مسجون في عربة سيرك يمرّ في الغابة ويتأمّل والدته الطبيعة من البعيد من دون أن يرتمي في أحضانها. ومع مرور الأيام، بقي الرجل بالنسبة إليّ حاجة ملحة تسكنني ولا أصل إليها. كنت أشبه بطفل قطعوا له ثدياً ما كي يرضعوه، ولم يفهموا أنه يحتاج للذراعين اللّذين يطوّقانه أثناء إشباع جوعه.

كنت بحاجة لجسد الآخر أنا أيضاً لإشباع نهمي، لأشعر بالفرح ثم أتمكّن من الضحك. وكم احتجت لسماع صوت ما، لكي أمسح كل ذاك الغبار عن الأسواق الشعبيّة المنسيّة والبالية، وأحوّلها إلى بهجة. أردت أن آكل طعاماً غير صحي، ولكن بنكهة، وأن أمسح كل تلك المساحات المهدورة من الحياة وألوّنها بالغضب، الحزن، السعادة، التعاسة، الغيرة، الانتظار، الخيبة، الأمل، السلام، القلق، أي شيء كان سيفي بالغرض ما دام سيعبّر عن شعور ما غير العدم.

برغم أنّ تلك الأحياء الّتي مررنا بها بسرعة فائقة كانت مسكونة بالفقر، انتابني شعور حميم تجاه المكان، وألفة كانت تخلق نوعاً من التعاطف بين أولئك الباعة والزبائن. كان فن الحياة والتواصل هناك، في العالم الذي انتابتني رغبة بكسر أبوابه، فعندها فقط، كنت سأتمكن

من كسر القفل الحديدي لملامح أمي وفهم ما يدور في سريرتها.

راقبت المدينة في تلك الساعات القليلة، وانتباني شعور مزدوج تجاهها، حنين وتعاطف مع كل من يعبر فيها من جهة، وغضب واشمئزاز من جهة أخرى. كانت الشوارع حزينة وكئيبة، مظلّلة بمحاولات لرسم ابتسامة صفراء على أرصفتها. للحظات، كان يتحوّل كلّ ما حولي إلى قيود حديدية وأسمع عويل الناس الّذين يحتاجون بشدة إلى الاهتمام والرعاية. عاش الناس هنا، أو بالأحرى فقراء المدينة، بأقل من الحدّ الأدنى، بأحلام لا تستطيع ملامسة شقوق الواقع، بمخيّلة لا تعرف الأحلام، برغبات لا تعرف أنّها رغبات، بوهن إراديّ مجرّد من الإدراك، وبساطة تنمّ عن الخوف أو الرغبة بأمان وهميّ هُم الأدرى بانعدامه.

-8-

كلّما حاولت العودة إلى أيّة ذكرى محسوسة عن علاقتي بزوجي، بدوت أقرب إلى غرفة مغلقة، موصدة وصعبة الاختراق. ولسبب ما، لطالما كان ظهوره في حياتي مشوّشاً، كأنّه صلة اقترنت بها لتكوين وجود مرئي، قريب من الواقع وضرورة للحياة، ولكن غائب كل الغياب عن المحسوس الذي كنت أحيا فيه وحيدة. كان هو الآخر الذي يشكّل تجسيداً لرعشة جنسية يمكنني إدراكها، لكنّه لم يكن يوماً الرغبة الّتي حاولت العبور إليها. كان يمدّدني على السرير ويقبّلني بنهم، فأخاله يحاول نهش أكثر كمية ممكنة من جسدي. وكلن يلجني بسرعة، قبل أن أدرك حتى الحالة الّتي أجد نفسي فيها. مرات عدة،

كنت أشارف على البكاء أثناء استلقائه فوقي، وكنت أتمنى لو يتوقف قليلا ليستطيع تهيئتي بشيء من الحنان، لكنّه كان دوماً منهمكاً بكيفية الاستيلاء عليّ. لم يستطع أن يمارس الحبّ معي ببطء، كأنّ المسافة الزمنيـة مـا بيننا ستكشـف مدى بعدنا وسـتجعل الواقـع يظهر: تقاربنا ليس حقيقياً.

فـي غضـون لحظـات قليلـة، كنـت أتحوّل إلى قطـة صغيرة في انتظار أن تدوسـها شـاحنة كبيرة مارّةً على طريق ضيّق، تماماً كما لو أنّي أسمع هدير المحرك وأستسلم للموت خوفاً تحت تأثير سطوة ما.

تجسّـدت علاقتـي بـه على هـذا النحو، ومقارنة مع اسـتيهاماتي المشـبّعة بصور تكاد تبدو أقرب إلى الخيال، شـكّل الأمر خيبة أمل كبرى. دفنت كلّ شعور بالغضب إلى جانب أحزان الطفولة، وأقنعت نفسـي بأنّ الحياة الحقيقية مختلفة كل الاختلاف عن الأحلام، وبأنّ الواقع هو ما يجب أن نستسلم إليه من دون أن نحاول تغييره. وشيئاً فشيئاً، صرت والدتي، المرأة الوحيدة التي كنت أرفض أن أكون.

مرّات عدة، كنت أنظر إلى المرآة وأشعر أني صرت قبيحة جداً. لم يكن الأمر كأني أصبح بلا ملامح، أي أنّي أغيب عن وجهي كحالة العدم التي قضيت أعواماً عديدة فيها، بل كنت أتحوّل إلى شيء داكن ومهتـرئ. كنـت أتضخّـم في نفسـي حتّى الانفجـار، وأصبح كتلة من البشاعة تغرق في موجة من الازدراء، فأرغب بمغادرة ذاتي أو إطفائها بطريقة ما لكي أتلاءم مع تكاوين الحياة، لكي لا أشبهها. والآن، لم أعـد أعـرف إن كانـت نفسـي مـن أرى، أو ذاك الآخـر، ولماذا كانت ملامحـي تتغير حسـب الظـروف والوجوه التي صادفتهـا، كأن المرأة

تحتاج إلى اعتراف الرجل لكي يكتمل جمالها.

كنت أعرف أنّ سامي يلاحقني، وأردت بمختلف الطرق إخفاء ما قد يثير ذعره مني، كأن يعرف بأنّي أمارس العادة السرية، فأتوقف عن أن أكون ذاك الشيء الأبيض الذي بمقدوره تلوينه، وبالتالي، تصبح لي ألواني الخاصة. والآن أعرف أنّي تمسكت به، من موقع الباحثة عن اعتراف، اعتراف لم أحصده من والديّ. وكان ذاك الاعتراف أهمّ بكثير من عواقبه، من إلغاء تلك الأنا التي لم أسبر غورها يوماً.

كنت مستعدة لتحمّل كل شيء من أجل تلك الورقة الثبوتية، العقد، الإحساس بأنّي مكبلة ولكن على الجهة الآمنة من الوجود. كنت أتداعى أمامه وأعطيه تلك السلطة المطلقة، التي احتاجها هو الآخر تأكيدا منه أنّه امتلكني، وبالتالي سلبني هوية منفصلة عنه، وأصبح بإمكانه أن يعجنني ويضعني في القالب الذي اشتهى.

وإن كان زوجي يبدو هادئاً كلّما استطاع أن يكون أكثر تحكّما بزمام الأمور، ازداد توتره عندما شعر بالخطر أو التهديد، كأن أفلت منه ولو للحظة، أو ألّا يكون أولويّتي ومحور اهتمامي الوحيد. كانت تؤرقه فكرة ألّا تمر جميع خطواتي عبره، وأستطيع بذلك خوض معرفة تجهض كونه السيد المطلق، وتتيح أن يكون شيئا ما يقوله خطأ.

اشتدّ التصاقي بسامي في حضور والدتي، ولا أستطيع أن أنسى يوم زارتنا وأبدت امتعاضها من وجود لوحة في غرفة الطعام. بدت فجأة كأنها تقوم بثورة، وراحت تحقّر اللوحة المعلّقة عندنا في غرفة الطعام. حقّرتها لأنّها تجمّل الواقع. ولمّا قلت لها أن هذه اللوحة تحوّل الحياة إلى قطعة حلوى سويسرية، أجابت أن الرّسوم تحاول

أن توهمنا أنّ العالم يخلو من الكوارث والخراب والمصائب. وكان ذاك ما أغضبها. أثناء تلك الاندفاعة، بدت لي بائسة أكثر ممّا يمكن تصوّره. رحت يومها أبكي، وحسبت والدتي امرأة افترستها العقارب.

انتهز زوجي فرصة رحيلها، وكان يروقه أن يراني متألّمة من ذويّ. استعمل ألفاظاً نابية بحقّ والديّ، وكنت عاجزة عن مواجهته أو إجابته، لأنّي كنت في تلك اللحظات مسلوبة الأهل، كطفل يتيم. وكان يرصد تحركاتي بتعجرف ويقترب لمضاجعتي، كأني ذاك الجسد الذي لا مأوى له سواه، فأرضخ فاقدةً أيّة لذة، لانّي أثناءها أكون ذاك الجسد، اللّاشيء الذي يحوّله هو عبر التواصل معه إلى صورة ربما، أو مجرد إطار.

وبعد ذلك، كان يتعمّد إثارة موضوع عدم تديّن أبي، ويخبرني عن رجال عائلته الّذين كانوا يخطّون الآيات القرآنية حتّى تتورّم أصابعهم، والّذين شيّدوا بسواعدهم أحد أعرق الجوامع في المدينة. وكان سامي يحتفظ بصورة قديمة وباهتة لكبار رجال العائلة، معظمهم من الأفندية الحليقي الرأس، المنتفخي الخدود، الّذين يعتمرون الطرابيش الحمراء مع الشراشيب السوداء، ويرتدون السراويل الفضفاضة والثقيلة، التّي تلتفّ على عرض كروشهم. تحيّن الفرصة للسخرية من أبي الّذي كان قصير القامة بعض الشيء، منخراه أشعران ومظلمان مثل المغاور، وحاجباه كثيفان، أحدهما مرفوع دوماً كما لو أنّه في حالة شك أو سخرية هزيلة. وكنت أسكت على مضض، فإن أبديت امتعاضاً، سأدخل دهاليز الأحاديث المتشنجة التي تعمّد إثارتها.

للحظة، كانت تساورني رغبة في شتمه، أو السخرية أيضاً من

عائلته، ولكنّي كنت أسكت وأترك لذاتي الأخرى مهمّة التجريح به بصمت من دون أن يسمعني. تحوّل سامي شيئاً فشيئاً من ذاك المطلق الّذي غرقت فيه إلى رجل أمقته، وأتمنى التحرّر من كياني المزروع فيه، أو كيانه الذي أصبحته.

عندما فقدت وجوده في داخلي، طرأت عليّ نفسي من حيث لا أدري. أصبحت أكثر حميمية مع ذاتي باحثة عن تفاصيل أخرى للوجود. بدأ الوجه الآخر لسامي ينكشف أمامي، لأرى بوضوح ما عجزت عن فهمه وأنا أبحث عن مأوى. تزوّجته كأمرأة تمتلك نصف وعي، كأنثى لا ذات لها، وتركته ينساب عبري، واحتملت جنونه ونوبات غضبه من دون فهمها.

وقفت أوقاتاً طويلة في الشرفة، أراقب العمال يشتغلون بحميّة، فيما يتصبّب منهم العرق، كأنّهم يرقصون فوق الحصى. كنت أراهم نصف عراة، مشعثي الشعور، وفي حركة مستمرّة. حسدتهم اذ لا وقت لديهم للغرق ساعات في التفكير مثلي.

كانوا مجبولين بالحياة والشمس، وكنت هناك، أنظر، أحلم وأتخيّل. ولطالما انتظرت عودة سامي إلى المنزل بترقّب، وكنت أشعر بالخوف عندما أسمعه يدوس بحذائه أرضية المنزل، فأغادر الشرفة بسرعة وأركض إلى داخل المنزل، لأتظاهر بأني منهمكة في الأعمال المنزلية.

وعندما كان يبقى في البيت لساعات طويلة، كنت أتعمّد أن أنزل السلّم ببطء لكي أرمي النفايات في مستوعب القمامة. وقبل أن أعود أدراجي، كنت أسند ظهري لبضع دقائق على الجدار، وأتأمّل جارتنا

الروسية التي تكنس شرفتها ليلاً نهاراً، وأسأل نفسي لماذا تزوّجت هي الآتية من بلد التحرر والعاهرات، بحسب أمّي. والحقّ أنّي كنت أتأمّل جاراتي جميعهن، النساء الموقّرات وبناتهن العصريات، وأفكّر لماذا تربّينا على أنّ المرأة لا يحق لها أن تشارك في الحياة العامة، ولماذا يبقوننا نحن النساء بعيدات عن العالم، لا سيما بعد ولادة الأبناء.

منذ لحظة حملي الأوّل، كنت ملزمة بأن أعيش على فكرة الأبناء، وهذا ما كان متوقّعاً منّي، ولم أجرؤ يوماً على مخالفة المتوقع. أصبحت نسخة أخرى عن أمّي، وبشكل أقسى، فإن كان عدم اكتراث والدي جعل زوجته تتضاءل، كان امتلاك سامي لي، وسطوته المفروضة عليّ، وضربه المتواصل ما حوّلني إلى فرخ يتغذى عليه الآخر ويكبر.

أهلكت أمّي شهوتها، وحنّطتها كمومياء خرساء مدفونة في الأسفل، أمّا أنا، المحكومة بالشهوة الداخلية، قبل أن أعي الرغبة حتّى، تحوّلت إلى أداة لأمتّع سامي وأهلك ذاتي، فلا أصل معه إلّا إلى رائحة الموت. ماذا غير ذلك وقد حوّلني إلى جسد رمادي، يلتهمه بسرعة ويعوّده على الإساءة.

ولطالما سألت نفسي هل قدر كلّ امرأة أن تبكي داخل وسادتها، بعد أن ينام زوجها، لأنّها حيرى بين أن تكون أو لا تكون؟ وهل مصير النسوة متعلّق بأطباع أزواجهن فحسب؟ كنت أقارن الدموع التي سكبتها والدتي حينها بدموعي اليوم، ولا أصدق كيف صار عالمي كئيباً هكذا.

-9-

كان لا بد أن أتعرّف على الرجل الذي صار زوجي متأخرة، فلم أفعل في بداية علاقتنا سوى أن أكون حذرة جداً، لأنّه لو ارتاب أنّ بي كل تلك الهواجس، واكتشف النقص في شخصيتي، كنت سأعجز عن الزواج به. لم أفعل شيئاً سوى أن أتلقّاه بترقّب وسكون. والواقع أنّي لم أراقبه يوماً قبل أن أرتبط به. سلبني العدم الذي استغرقت فيه، وانتهت بي الليالي التي كنت على علاقة به فيها أن أغفو على سراب بأني سأمتلك أشياء كثيرة مع رباطي القادم، ومنها طبعاً الحرية والوجود.

وقد بدأ زوجي يتجلّى لي من خلال رفضه المطلق لشيوعية والدي، وإصراره على تذكيري بأن تربيتي غير الدينيّة حوّلت أبي إلى حثالة، فتكلّم عنه كأنّه نوع من الغبار أو العفونة، وكأن صنيعه ذاك لن يغفر يوماً. وكان يطرح عليّ دوماً الأسئلة كأنه يستجوبني ويستدرجني للبكاء، لأقول له أنّه محق وأنّ أسلافه الذين يشبهون الأثاث المعتم تحف لن يتكرّر لها مثيل، وبالتالي هو أيضا كأقرانه رجل لا يتكرر، يجب أن أشكر الحياة يومياً لعثوري عليه. وكان يجب أن يشبه أبي عدواً دخيلاً على طفولتي وبنوّتي، ليتأكّد أنّي لست متواطئة معه على أفكاره المختلفة.

وكان سامي يسألني دوماً عن أصدقاء والدي المسيحيين، والطقوس التي يمارسونها، وإن كنّا نأكل في منازلهم. وكنت أخبره عن الزيارات التي قمنا بها بضع مرّات إلى منطقة «بشرّي» الجبلية في فصل الشتاء، وأصف له نتف الثلج التي كنت أتفرج عليها تملأ الجو

بهدوء، فأشعر بالسلام. كان ينصت إلى حديثي بتلهّف ولدٍ صغير، ثـمّ ينقلب مزاجه فجأة كأنّه تذكّر أنّه لا يجب أن يظهر إعجاباً بما يتّصل بماضيّ.

- هل يجلس في مكتبه طوال اليوم؟

- نعم.

- هل كنت تجلسين معه؟

- لا، لكنّي كنت أتسلّل إلى هناك أحياناً.

- لماذا؟

- لأرى ماذا يقرأ.

- أتظنين القراءة مجدية؟

- نوعا ماً.

- ولم يحاول أن يصلّي يوماً؟

- لا.

- لم يذهب إلى المسجد يوم الجمعة؟

- لا، لم يفعل أبداً.

- ووالدتك؟

- أعتقد أنّها أكثر تديّناً منه.

- هل منعها عن الصلاة؟

- لا، لكنّها لم تخبره يوما أنّها تحبّ الصلاة.

- هل زاره رجال؟

- لا، نادراً ما فعلوا.

- وأنت؟ هل كنت ترين أصدقاءه؟

- لا، لماذا تصرّ على الحديث عن حياة والديّ؟

- لأنّ أهل الحي يقولون عنه أشياء كثيرة.

- ولكنّك تعرف أنّهم ليسوا محقين.

- المشايخ لا يكذبون وهو لا يروقهم.

وقبل أن أعبّر له عن انزعاجي من حديثه، كان يسألني أن أقترب منه وأطارحه الغرام. فبعد ذاك الحوار، كان يعرف أنّه جرّدني كلّياً من كلّ شيء، من حجج أدافع بها عن عائلتي، من تديّني، من عدم تديّني، من جسدي، من كياني. وبالتالي باتت مهمة استيلائه عليّ أسهل، لأنّني أكون عندها أضعف من أن أقاوم.

وفي كل مرة ولجني فيها، في مثل ظروف ذاك الحديث، شعرت أنّه يسلبني من أحضان أبي، ويحوّلني إلى دميته المطيعة. فبات الشعور الوحيد الذي انتابني كلّما اتّصلنا جسديّاً هو أنّي أشبه ثقباً أسودَ كبيراً في الحياة، امرأة بلا رائحة، عود مكسور عن غصن شجرة وملقى أرضاً ليدوسه المارّة.

-10-

في حيّ الزاهرية في طرابلس، كان سامي يتنقّل بخطى رشيقة بين الأزقّة، وصولاً إلى شقّة قريبة من فرن «المير»، حيث أمضى طفولته الأولى. وكان، كسائر الشبّان، يحبّ لعبة كرة القدم كثيراً. انساق إلى تسجيل الأهداف منذ أن تعلّمت قدماه الصغيرتان الركل. كان ينتظر أصدقاءه على ناصية الشارع قبل أن يتوجّهوا إلى ملعب كبير في الباحة الخلفية لمدرسة الآباء الكرمليين التي تلقّى علومه الأولى

فيها. غاب الحضور الأنثوي عن مدرسة «الطليان»، كما كانت تسمّى آنذاك، والغريب أن الصبيّ الذي نشأ في بيئة انسجم فيها المسلمون والمسيحيون، نما فيما بعد ليفضّل العزلة وينغلق اجتماعياً.

كانت المدرسة للذكور فقط، حيث التقت بطولاتهم وأحاديثهم الفجّة، مستغرقين في غيابهم عن العالم الأنثوي الذي رمز في أذهانهم إلى صورة ممتلئة سينمائية، أو، كما هو رائج في المناطق الشعبية، ابنة الجيران، أو حتّى امرأة ذات جمال ذائع الصيت في الحيّ. وكان الشبّان الأكبر سنّاً يلتقون في نهاية الأسبوع للذهاب إلى سينما «البيكاديلي» ومشاهدة الأفلام المعروضة هناك.

قبل أن ينتقل سامي وأهله إلى شارع «عزمي»، وينفصل عن الحيّ والمدرسة القديمة، رسب في الصف السادس الإعدادي، وأحسّ بهزيمة تكاد لا تفارقه حتّى الآن. حمل في يده دفتر علاماته وراح يهرول كأنّه وحده الذي يمشي في الطريق، وكأنّ جميع الشخوص وقفوا على الأرصفة ليتبعوه بنظراتهم. تلقّت والدته الصدمة على مسمع إحدى الجارات لمّا دخل ابنها إلى الغرفة لاهثاً. كان عليها أن تلطّف الموقف وتجد ذريعة لإخفاق ولدها قبل أن تلتصق به صفة الفشل، فما كان منها إلّا أن صرخت بنبرة عالية «هيدا لأنك مسلم عند الرهبان يا ابني. طول عمري وأنا بقول لبيّك يغيّرلك هالمدرسة». ثمّ توجّهت إلى الجارة، وقالت «شفتي يا إم عادل، سقّطولي الصبي».

طوّقت الأم ابنها بين ذراعيها، من دون أن تتولّى حتى مشقة تفحّص علاماته، وهمست في أذنه «بكرا بحطّك عند يلي متلنا، وهونيك بقدروا قيمتك».

أخبرني زوجي عن تلك الحادثة عندما مررنا مرة في رأس الشارع المؤدي إلى الجامع المنصوري الكبير، حيث تقع الكنيسة الإنجيلية للبروتستانت. بقي يتأمّل قبة الجامع والصليب في أعلى الكنيسة وهو يروي الحكاية وكيف كره مدرسته القديمة، وابتعد عن رفاقه، فصار لا يلتقي بهم إلّا لكي يغلبهم في كرة القدم.

كانت الكرة تتدحرج بين قدميه وهو يضع الشبكة نصب عينيه لكي يفوز. ولمّا كان يخسر، كان يتحوّل إلى كائن عدواني، رافضاً التواصل مع باقي الأصدقاء. عند عودته إلى المنزل، كانت أمّه تضمّد جراحه بمكعبات الثلج، وتغدق عليه المديح إن كان رابحاً. وعندما كان يبدو مثبط العزيمة من الخسارة، كانت تقول له أنّها تتخيّل العشب الأخضر يتمزّق تحت دعساته الشرسة، وأنّه في المرة المقبلة، لن تجرؤ الكرة على الإفلات منه.

مرّات عدة، كنت أتمنى لو يبتعد زوجي عنّي إذ لا تعود لي قدرة على تحمّل وطأة جسده. كلما انساب لعابه فوق نهدي، انتابتني رغبة عارمة بالتقيؤ واذ كنت في ذاك العالم المثالي الواقعي، عرفت أنّي أدنى بكثير من السفلي. كلما اقترب مني، ازددت بعداً عنه.

كنت ألمح في وجهه رجالاً تتدلّى شهواتهم من أعناقهم ويسيل لعابهم في انتظار أرملة ما للتوقف عن الرقص، لكي ينقضّوا عليها. وكان يضع يده اليسرى على خصري النحيل فيبدو لي حينها أنّ الجميع توقّفوا عن الرقص، وأنّ الدم تصاعد إلى رؤوسهم وصاروا يغلون من الغضب، ويلهثون متدلّي الألسنة. كنت أحلم بأن يتّسع الفراش شيئاً فشيئاً ويبتلعني لأختفي عن الوجود. لكن لا السرير

أسعفني يوماً ولا جسده رحمني. كنت أغمض عينيّ وأحاول الغياب في عالـم آخـر ريثما تنقضي تلك الدقائق. وعندما كنت أسـتفيق من الغيبوبة التي أغوص فيها، كنت أعود لأحصي الطرق التي قد تمكنّني من التملّص منه، فلا أنام معه مجدداً.

وفـي إحـدى المـرات، ثبـتّ يدي إلى السـرير ثـم أفلتهما. رفع خصلات شعر تدلّت على وجهي وحدّق في عيني. بحثت عن مكان أهرب اليه وجال نظري بين السقف تارةً وبين الخزانة «الكرزية» اللّون تارةً أخرى. مرّر أصابعه على وجهي وراح يقول «شو طيبة يا مرتي». أفلـتُّ مـن قبضتـه وركضت إلـى الحمام. أوصدت البـاب وداهمتني ملامحي في المرآة. تحوّلت كل الأشـياء إلى «انا»، «رولو» المحارم الورقية المتدلي من علبته الفضية الانيقة. سلة الغسيل التي ربض في قعرها قطعتان من ملابسه الداخلية، وحتى المرحاض. جميعها «أنا».

تحسّست نفسي وانتشلت من الغسالة قميص نوم «ساتان» متسخ قليلا لأداري به جسـدي. أسـندت رأسـي الى الحائط وتبعني المكان بتعابير من أسى. كانت الأشياء تشبهني، ليس لأنّي تحوّلت إلى علبة بلاسـتيكية أو جـداراً مـن «البورسـلان» فحسـب، بل لأنّهـا هي أيضاً مقبوض على نبضها وعاجزة عن الفرار.

طرق على الباب، ونادى «شو نمتي جوّا يا سحر؟».

طلبت منه أن يستعمل الحمام الثاني. تأفّف وتابعت أذني بشغف رنيـن خطـوه كـي أطمئنّ أنّه صار بعيداً، وأنّ ما يفصلني عنه أكثر من باب، ولو كانت المسافة الإضافية مجرّد أمتار. نظرت إلى الساعة في معصمي. شعرت أنّ عقاربها متوقفة في الاتجاه نفسه وأنّ الزمن جامد

في داخلي، يحتضر من دون حراك.

منذ بدأت علاقتي بسامي تسوء، أدركت أنّ الوقت يموت فينا، وأنّنا نصبح أشلاء من رماد، وأنّ الحياة ليست تلك التي ندور في فلكها في حراك مستمر منهمكين بشؤونها اليومية، إنّما هي الدقائق التي نشعر بنبضها في داخلنا، وبأننا نحتويها كما هي تغمرنا. الحياة لحظات نطارح فيها الوقت الغرام ودقائق من متعة تملؤنا وتفيض من أرواحنا وأجسادنا. كانت جميع الأماكن تضيق بي واجتاحني الموت إلى حدّ الاختناق وعجزت عن ابتلاع نفسي. كنت بحاجة ماسة إلى التنفس، وعبثاً وجدت معبراً للهواء.

فتحت صنبورة الماء وعدّلت الحرارة. شعرت بلذة عارمة وأنا أقف تحت «الدوش» كأنّ نهديّ اللّذين انطفآ فجاة عادا إلى مكانهما والتصقا بي، وتلألآ منتصبين بعد لحظات عذاب مقيتة أهلكهما فيها المص. ففي هواء الغرفة المرتجف، حيث قايضتهما بالعلوي، كانت رائحة الاغتصاب والموت.

انسكب الماء الدافئ على جسدي كما يمرّ رذاذ المطر على الأرصفة العطشة، وتنساب قطرات الندى على أعناق الزهر. تساءلت متى ينتهي هذا الجحيم الذي أعيشه وأتلمّس من الحرية شيئاً، ولو حتى قعرها.

ناداني زوجي مجدداً وقال أننا تأخرنا عن زيارة أهله، وأنّ الأولاد سبقونا إلى هناك. لففت جسدي بالمنشفة وأنا أفكر لماذا يجب أن أرافقه في تلك الزيارات السخيفة التي تمتصني ولا أشعر فيها بأيّة راحة. تراءى لي أني أسمع أصوات ذويه وعائلته المجتمعة.

لم أعد أحبّهم كما في بداية علاقتي بهم. وغالباً ما أحسست أنّي ما عدت أحب أحداً يربطني بحياتي الواقعية، فهربت إلى الخيال باحثةً عن وجوه جديدة.

وكنت أختلق أناساً وهميين لكي أضحك وأتهكّم ممن حولي في سرّي. هكذا كانت حياتي تحصل دائماً: في داخلي. ولطالما كانت علاقتي بالآخر شيئاً مريباً ومضطرباً لا أستطيع فهمه. لشدة رغبتي في أن أكون قريبة منه، كنت إذا اصطدمت بحاجز صغير، أتقوقع كالسلحفاة في مخبئي وأرتدي صدفة على ملامحي لتقيني من الخطر.

ولكن الآن باتت الأمور مختلفة، حتّى أمّي، لم أعد أرغب في رؤيتها. صرت أتجنّب زيارتها. منذ أخبرتها أن زوجي يضربني وآثرت أن تبقي الأمر سراً وأخفته عن أبي، صرت أشعر أنّها لا تحبني. ولأني لا أريد أن أقسو عليها، كنت أسأل نفسي هل يجب أن تكون هي من يحميني أم أنّني أنا من يجب أن أقف للدفاع عن نفسي؟

تردّدت كثيراً قبل أن أخبرها أنّ زوجي يضربني، والحقيقة أنّي لم أكن أتوقع منها المساندة، إنّما أردت أن أوجّه لها اللّوم بطريقة غير مباشرة على الحال الذي انتهيت اليه.

- قدّيش بيضربك يعني؟

- كل شهر أو أسبوعين، حسب ما يكون معصب.

- وإنت شو بتعملي؟

- ما بعمل شي. بسكت.

- طلع حظك متلي يا معترة.

- أنا مش متلك يا أمي. أنا عم خبرك لأن ما عاد ينسكت عالموضوع.

- وليش ما بتخبري بيّك؟

- ما إلي قلب. بخاف يزعل، هو ما كان بدو أنّي اتجوز من الأساس.

- ليكي يا بنتي، كل الرجال هيك.

- شو يعني هيك؟

- بدن يعملو أبطال، ولما ما بيقدروا بفشّوا خلقن بالمرا.

- وليش المرا بدّا تتحمل؟

- لأن ربنا خلقا هيك لتتحمّل، ما شفتي كيف بيحمّلا الولاد ببطنا. خلّاها تشارك معو بالخلق.

- اذا هلقد الله بحب المرا، لشو ليعمل كل الأنبياء رجال؟

- ولي سكتي، ما تكفري. أصلاً ما في شي وصّلنا لهون إلّا كفر بيّك.

لم أعرف في تلك اللّحظات إن كان عدم تعاطف أمّي ينمّ عن وجعها أو واقعيّتها، أو عدم اكتراثها بي. ورحت أحاول تفسير نظراتها إليّ، وإن كانت تحمل فعلاً شعوراً بالنصر لأنّي انتهيت مثلها، أو أنّها لا تعرف واقعاً مختلفاً للنساء. لم تعرف من الحياة سوى الغرفة التي نامت فيها مع والدي، دائمة الوحدة. مضت الأعوام وتخطّت الثلاثين، ثم الأربعين، وشارفت على الخمسين، وهي تبدو على الحال

نفسها، كأنّ الأمر الوحيد الّذي تغيّر فيها هو العمر فحسب.

-11-

أغلقت باب غرفتي كي ألبس ثيابي بهدوء. أخرجت فستاناً من الخزانة بسرعة جنونية. مددت يدي لالتقاط ملابسي الداخلية من الدرج، واذ بيده تلتف حول خاصرتي. أبعدتها عن جسدي بشيئ من الغضب، وقلت له «ما هلق قلتلي تأخرنا، خليني البس». وبما أنّي كنت أدرك أن نظرة الغضب لا تخيفه، رسمت على ثغري ابتسامة صفراء فضحت مدى ارتباكي وهلعي. قبّلت جبينه بدلال مفتعل وطلبت منه الخروج من الغرفة.

وقف سامي عند الباب. تفرّج عليّ وأنا أضع ثوبي على جسدي. ثم سألني «أتحبينني يا سحر؟».

حاولت التملّص من الإجابة، وقلت له أنّه يختار أوقاتاً غير مناسبة لإثارة الرومنسية. حاولت إقناعه بأني منشغلة بالتفكير في الأولاد، إن كانوا قد تناولوا طعامهم أم لا. ثرثرت عن ابني طارق وتأفّفت لأنّه يكثر من أكل «الشوكولا».

حاولت أن يبدو صوتي محايداً، بعيداً عن أي انفعال. تحرّكت شفتاي بطريقة لا إرادية وسرعة كثيفة. وكان قلبي يهبط الى قعر جسدي ثم يعلو إلى حلقي. هكذا بدوت حين كذبت، مسكونة بضجيج أزلي.

أخرسني سامي وكرر سؤاله. نظرت إلى حافة السرير. بحثت عن بدعة ما قد تكون أكثر نجاحاً في مواربة الحديث. تدفّقت في

ذهني جميع عبارات الامتعاض والاشمئزاز الّتي قد تقولها امرأة لرجل. انسكبت في قلبي جميع الأحاسيس المزعجة التي لا أجد لها أي تفسير. انتفاض جسدي الرافض كلما لامست يداه أي جزء منه، الغثيان الذي تشعرني به قبلاته، صوته الذي لم تعد لي قدرة على احتماله، حبّه الفائض الّذي لم أعرف منه سوى الاختناق، معرفته الدائمة بالأشياء، محاولاته البائسة للتفوق عليّ، سطوته على حياتي. حتّى أنّي فكرت في بائع اليانصيب الذي أشتري منه الأوراق بداية كل أسبوع، علّني أحصد ثروة لأفرّ وأولادي من هذا الرجل.

تكدّست جميع تلك الأفكار في رأسي، بينما حاولت أن أجد إجابة مناسبة لسؤال سامي. رفعت رأسي وتوقّفت عن النظر إلى حافة السرير. أدركت جيّدا أن لا مفر من الكذب، دفنت كل تلك الصور التي تأسرني، وقلت له «طبعاً أحبك». ابتسم بمكر تاجر عرف أنّه أتمّ للتوّ صفقة مزوّرة رابحة تضاعفت فيها أرباحه، وأدركت أنا مرارة أن نكون منافقين. طبعاً أحبك يا سامي. هل للضحية هرب من حبّ الجلّاد؟ هكذا تحوّلت أنا وزوجي إلى عدوّين صامتين تجمع بينهما حياة مشتركة ويفصلهما كل ما فيها.

كان سامي يقود السيّارة بهدوء، فيما جلست قربه. وكانت عيناي مشدودتين إلى الخارج ووجهي ملتصقاً بالزجاج. رحت أقنع نفسي بأنّي كائن سحري، له نفحة فائقة القوة وهو يناضل ضدّ الرفض، ضدّ الذات الدنيئة الّتي تحاول أن تثبط عزيمتي، وتبعدني عن الرجل المربوط بي. كان لا بد أن أعتنق أسمى الأفكار كالانتحار بين أحضان رجل أرفضه لأنّ المدينة وشوارعها، وجامع المنصوري

الكبير، الذي تعلو قبّته في السماء، ينصّ أنّ سعادتي هنا، لأنّ أمّي تقول أنّ حياتي هنا، ولأن صوت اللّذة في داخلي هو شيطان رجيم سفلي أرسله الله لاختبار صبري.

وكنت أرى شبح الشيخ بلال بين الأزقة التي عبرناها وأسمع ضحكه الساخر وأحسبه يصرخ: سأرسلك إلى النار من أجل أفكارك السافلة ورغبتك بأن تنتعلي حذاءً أحمر اللّون، وسأحرقكم جميعاً في اللّهيب، أنت ووالدك وجميع شيوعيّي الأرض. وكنت أشعر أنّه رفسني لأقع جاحظة العينين، فاغرة الفم عند قدميّ ملاك أسأله الرحمة. ثم كنت أرى الشيخ بلال وقد ألصق شفتيه الغليظتين إلى سيف الملاك وقطع رأسي، ثم رماني في المقبرة وأنا نصف حيّة، نصف ميتة.

وعندما نظرت إلى سامي، بدا لي كذبابة تقدح بالشرّ، وتمنّيت أن يختفي ككتلة بخار متحرّكة في نور الشّمس المحرق. كان بالنسبة إليّ تماماً كالمتوحّشين الّذين يقيّدون أمواتهم قبل أن يرموهم في القبر لكي لا يخرجوا منه ويتحوّلوا إلى أشباح.

رافقتني رغبة دائمة في التمسك بشيء ما، سواء كان زجاج السيّارة أو نوافذ المنزل، أو طرف السرير الّذي كنت ألتحفه مذعورة، أو كرسي المطبخ الّذي كنت أجلس عليه لساعات من دون حراك. كنت كسيّارة رفع عنها غطاء «المحرك»، ورقة صفراء هشة يعصف بها الصقيع. وكانت أعماقي تتلوّى شمالاً ويميناً فأشعر أنّي صرت في كلّ الأمكنة في غضون ثوان. أجول في متاهاتها كأنّها تحيا بي منذ ولدت، كأنّها تصرخني وتلفظني. كأنّ هذه «الأنا» التي من المفترض

أن أكونها «أنا» مسبقة ولدت قبل أن يصبح لي جسد ووجود، وقبل أن أكون كائناً حياً. كأنّها داهمتني وأنا في بداية العقد الثالث من عمري لتقول آن لك أن تكونيني. أنت لست أنت. أنت «أنا». وكناسكة نذرها الله لتكون له، كنت أصبح ملكاً لقوّة لا إراديّة لا أستطيع أن ألمحها ولا أن أراها، ولكنّي كنت أشعر بها في كلّ التفاصيل.

رحت أفكّر هل يعرف سامي مدى الصخب الذي يعتمل في داخلي أم أنّ ذبذبات روحي تجول في محيط غريب عنه. نظرت إلى وجهه ملياً. استرجعت حركته الشاذة في تقديم كتفه أثناء السير، انطباق شفتيه انطباقاً غير مستقيم، وزأزأته. كل هذه العيوب البسيطة باتت لي لافتة للنظر. بحثت في عينيه العسليتين وبشرته الحنطية عن شيء يميّزه عن الآخرين فلم أجد. لم يكن لسامي علامات فارقة من هذا النوع. أثار اشمئزازي صوته الرفيع الّذي يتنافر مع ضخامة جسده، ووحمة كبيرة في جبينه، لم أكن أرى غيرها إن أطلت النظر إليه. تحّول وجهه كلّه فجأة إلى وحمة، وحمة أمقتها.

شعرت بخوف دائم من أن موتي يقف على عتبة بابه. أصبح بالنسبة إليّ رمزاً للنهايات، نهاية الأحلام والرغبات، نهاية الحياة أو موتها السريريّ. مشيته الغريبة وأنفه الكبير الأقنى وعيناه الضاحكتان، كلّها كانت تعني لي الموت. والدقائق القليلة التي كان يجامعني فيها، لم تكن أكثر من نهاية جسدي.

ركن السيارة أمام البوابّة الحديديّة الكبيرة. ترجّلنا منها، واذا بطارق يركض صوبي من البعيد. رمى نفسه بين أحضاني فجذبته إليّ بقوة ولثمت وجهه، وسألته «هل أكلت يا حبيبي؟». هزّ رأسه

إيجاباً، ثـمّ قبّلنـي وأفلـت من بين ذراعـي. تأمّلته وهو يأتي بكرة من صنـدوق السـيارة. أمسـكها وركض حرّاً إلى البعيـد. نادى أبناء عمّته كي يشـاركوه اللعب وراح يلوّح إليّ بيده، فبادلته ابتسـامة خافتة وأنا أتمنّى لو كان بإمكاني التصرّف على سجيتي مثله.

كان رأسه بيضاوي الشكل. يمشي باختيال. ممتلئ الجسم على نحو جميل. صوته مختلف وعيناه سوداوتان لا خضراوتان. لم يأخذ من ملامح والده شيئاً على عكس أخته. كانت ابنتي دنيا تشبه والدها كثيراً وأقرب إليه في ملامحها، رغم أنّها أكثر نعومة ولطفاً.

يوم ولادتها، توجّهت إلى المشـفى صباحاً، وكنت أشـعر بآلام المخـاض المتقطعـة. في الغرفة التـي أدخلوني إليها، كان هناك امرأة تصرخ كثيراً. لم يكن زوجها معها. رافقتها والدتها وبقيت قربها تستمع إلى الصراخ. لا أدري إن كنت أسـتطيع أن أنسـى ملامح تلك المرأة لشـدّة ما بدت قاسـية. كانت تنظر إلى ابنتها وتسـتعجل الطبيب لنقلها من غرفة المخاض إلى غرفة الولادة وإنهاء عمله بسرعة.

كانـت حركاتهـا ميكانيكيـة، أشـبه بآلة تتحرك، وليس بأمّ تشـعر بالشـفقة أو التعاطف مع ألم ابنتها. سـألت نفسـي هل الصورة التي نرسمها للأمهات مثالية أكثر مما هي في الواقع؟ طلبت من الممرضة أن تعطيني مسكناً للوجع ورفضت أن يدخل أحد ليراني حتى أنتهي من الولادة. وحده سامي كان يدخل ويخرج ليطمئنّ علي.

عندمـا اقتـرب المخـاض، سـألته البقاء قربي. لم يبـدُ متوتراً أو قلقـاً، بـل كمـا يحب أن يبدو دائماً ممسـكاً بزمام الامور. كنت أشـدّ علـى يـده كلمّـا اشـتدّ الألـم. أذكر أنّـي كنت أحبّه حينهـا. ربما ليس

ذاك الحبّ الجارف الّذي يهزّ أعماق الإنسان من جذورها، ولكنّي كنت أشعر تجاهه بالمودّة الممزوجة بشيء من الشفقة. لم أكن قد نفرت منه كليّاً، حتّى أنّ تصرّفاته المتطرّفة والمبالغ بها كانت ما زالت تحت السيطرة. لم يشتد تعنيف سامي لي إلّا لمّا بدأت أعترض على ما لا يعجبني.

لم يسمح له الطبيب يومها أن يدخل معي إلى غرفة الولادة. سمعت صرخة دنيا الأولى ونظرت إليها. لم تولد مغمضة العينين. قلَبها الطبيب وأمسك بها رأساً على عقب. صرخت مذعورة فطمأنني أنّ الأمور تحصل هكذا عادة. انتظرني سامي وأفراد عائلتي في الخارج. أخذوا دنيا إلى غرفة أخرى. تحلّق الجميع حولي يهنئونني بالسلامة، ولم أكن أريد سوى أن أستسلم إلى نوم عميق من شدّة الإنهاك.

ولدت دنيا وازداد عدد الأشخاص المشتركين بيني وبين زوجي، لكنّ الصلة الّتي كان من المفترض أن تجعلني أدنو منه وأتلمّس حنانه كانت وهماً. كأنّ الأولاد ليسوا مجرد ثمرة علاقة بين رجل وامرأة، إنّما تجسيد متكامل لتلك العلاقة. إن كبرت الهوة، صاروها هم.

بقي قربي طوال الليل. نام على السرير المجاور. واستيقظت في منتصف الليل تقريباً. كنت جائعة جداً. تناولت قليلا من الشوكولا من حقيبتي وأتت الممرضة بدنيا كي أرضعها. أمسكت الصغيرة للمرة الأولى. كان بين يدي جسد صغير يتلمّس الحياة مني، ثغر يتحرك جائعاً وعينان لا تستطيعان الرؤية.

بقي سامي نائماً. لم أشأ أن أوقظه ولكنّي تمنّيت لو يفعل، لو

تصبح تلك الأشـياء التي نشـاهدها في الأفلام حقيقية: الرجل يقف قرب المرأة ويشاركها تلك التفاصيل الصغيرة. فلطالما كنت حالمة، سعيت إلى المثالية في علاقاتي، وإلى الكمال في كلّ ما أفعل. رتّبت ملابسـي مـرات عـدة في اليوم الواحـد. نفضت الغبار يومياً عن أثاث المنزل، وأمضيت سـاعات في تلميع الكريسـتال الذي كان يجب أن يكون مرتّباً دوماً. الصورة، ذاك الانعكاس الذي وصلته بالآخر، كان يجب أن يكون خالياً من الشوائب.

لم أحتمل فكرة أن أخيّب ظن الآخرين أو أن ينظروا إليّ ويفكّروا أنّي لسـت امرأة كاملة. لم أكن أعرف ماذا أحبّ أن أكون ولم يكن لي هدف في الحياة سوى أن يكون سامي والأولاد سعداء. أردت أن يكون من حولي راضين عنّي ولم أفصح دوماً عمّا يجول في خاطري خوفاً من ألّا تعجبهم أفكاري، كما لم تعجبهم أفكار والدي.

وافقت سامي الرأي حين كان ينتقد زملاءه في العمل، برغم أنّي لم أجد في كلامه شيئاً يمتّ إلى الواقع بصلة. والآن بتّ أعرف أنّي كنـت أهـرب إلـى أفكاره خوفاً من أن أكون، وأنّي عشـت في هويته، ليـس لأنّ لا هويـة لـي، بـل خوفـاً مـن إطلاقها. كان يجـب أن تبقى الصورة متماسـكة مهما تداخلت فيها الشـروخ، فلا يرى الناظر إليها، بيـن خطوطهـا، سـوى حديقة ومنـزل وألوان هادئة ومنسـجمة. بدت اللّوحة عادية من الخارج، كما لو أنّي عقدت صفقة غير معلنة معها، أنا الّتي كنت أدرك تماماً وجعها الداخلي، بأن نكتم أسرار بعضنا.

اجتمـع جميـع أفـراد عائلته حـول الطاولة لتنـاول وجبة الغداء. توحّـدت أصواتهـم مع طرطقـة المعالق والصحـون وامتدّت الأيادي

بنهم لالتقاط الخبز. كان سامي يأكل، فيما سكبت له أمّه المزيد. هكذا كانت دائماً، تفرط في دلاله. عاملته كطفل صغير وأصرّت أن تشعرني بأنه متفوّق عليّ، وبأنّي لا أجيد الاعتناء به. جرت رغبة التسلّط في عائلتهم كما تجري الدماء النتنة في عروق أشباه الآدميين. جميعهم رائعون إلى حدّ الدهشة. الأب والأم والأبناء والأحفاد، وأنا كالغريبة بينهم لا مكان لي من كلّ ذاك المجد.

عرفت تماماً كيف تتم الأمور في الصورة: ينتهي نهار الأحد الطويل والممّل. نركب السيارة ونعود إلى البيت. أضع الأولاد في الفراش وأجلس قرب سامي كي نشاهد فيلماً. نخلد إلى النوم. يحاول أن يجامعني. أخاف أن أرفض فنتشاجر. أذعن له وإلّا قد يضربني. وأنا لا أريد أن أوقظ الأولاد.

-12-

في بداية العقد الثالث من حياتي، قرّرت أن ألبس ثياباً مختلفة، فيها الكثير من الزينات الغريبة، وأصبت بهوس شراء الأحذية والعطور والملابس الداخلية. وصرت أعير اهتماماً كبيراً للفن، خاصّةً الأعمال الموسيقية الاستعراضية. وازداد اهتمامي بمعرفة تفاصيل عن الدين، حتّى أني صرت أقرأ كتباً عن البوذية والهندوسية، وأفكّر بالروح الّتي لم يحدثني عنها أحد من قبل.

لطالما شعرت بأنّ الله أمر غريب في حياتي، كأنّي حبل يشدّه طرفان، يدفعه الأوّل إلى الاعتراف به من دون معرفته، والثاني إلى إنكاره من دون محاولة معرفته أيضاً. المرّة الوحيدة التي شعرت

فيها بأنّي قريبة من الإيمان أو في طور البحث عنه كانت في إحدى محادثات الطفولة مع بنات جارتنا بعدما توفّيت والدتهنّ بمرض السرطان.

كانت حكاية زينب «أمّ البنات» معروفة في الحيّ، فهي المرأة التي جاءها زوجها بـ«ضرّة»، بعدما أنجبت له ثلاث فتيات، أملاً في أن يكمل رجولته بولدٍ يرثه. عاشت زينب ذليلة بسبب خلفتها. كانت تجمع بناتها حول الموقد في الشتاء وتخبرهنّ حكايا خرافية عن أميرات وحوريات يستحممن بماء الذهب، وهي تشوي لهنّ الكستناء والبطاطا، وتنشد أغاني شجية كلّما انهمرت زخات المطر على الزجاج.

كانت تبذل ما بوسعها لإرضاء زوجها. تحرص أن تقدّم له طعامه ساخناً، وتطلب رضاه باستمرار، حتّى حين كان يصرخ في وجهها. لكن لا طعامها الساخن ولا رقّتها شفعتا لها عنده. لم تستطع أن تكفّر عن إثمها أو أن تنفخ الروح في وليّ عهد وليس ثلاث «ولايا». بقيت مسكونة بهاجس أن يأتي لها بضرة «بتكسر عينها»، كما كانت تهددها والدته، حتّى فعل.

وفي مرّة من المرات، ثارت زينب على قدرها كأسير يريد كسر قيوده. لعنت جفاء زوجها وتركت طعامه يبرد. خلعت عباءتها ولطمت رأسها في الحيط تكراراً.

«بكفيني ذل، بكفيني ذل»، كانت تصرخ بجنون، مردّدة تلك العبارة بحرقة. «ألم تلجني أنت عندما حملت البنات في رحمي؟ ألم تدخل بذرتك في أحشائي؟ بيكفي ذل»، راحت تصرخ بأعلى صوتها.

لطمت رأسها وصارت تحكي كلاماً غير مفهوم. فتحت باب المنزل. شرّعت أبوابه، وركضت تنوي الرحيل. فكان نصيبها «علقة مرتبة». خلع حزامه الجلدي الأسود ولم يرحم أي بقعة من جسدها الذي تلوّى في كافة الاتجاهات. بطحها أرضاً وأطلق وحشيته على أقدامها، شعرها وظهرها. كان زوجها الحج مسعد متلهّفاً لإفراغ غلّه من الزمن. وأين ينفّس عن غضبه سوى في جسد «أمّ البنات»؟

ظلّت زينب بعدها ثلاثة أيام طريحة الفراش، تتأوه وتبكي. وعرفت أنّها متى استعادت وعيها وعافيتها، ستعيش ذلّا أكبر، ذلّ عبدٍ استنكر، فسجن مجدداً لكي يتعلّم كيف يتشرّب العبودية من دون اعتراض.

ثلاثة أيّام أمضتها في السرير لاسترداد شيءٍ من صحتها، وثلاثة أيام أخرى كان لا بد أن تمضيها تحت قدميه. تغسلهما بدموعها. تقبّل يديه وتركع أمام جبروته. وكان الحاج يتلذّذ بكلّ دقيقة عقاب. كان من الممكن أن تمضي ما تبقى من حياتها تتأسّف وتعتذر من دون أن يشعر أحد بحجم إرهاقها.

«أتأسف ولا أعرف لماذا. أحتمل وزر جرائم لم أرتكبها»، هكذا كانت تخبر أمّي، ثم تستطرد «بس ماشي الحال يا سعاد. كلو تأستر عهالبنات، حارقينلي قلبي من جوا».

بلسمت أمّي جراح جارتها المنهكة من القهر ببعض خيوط من ألفة، وحاولت التخفيف عنها، وإلهامها بالصبر والدعاء بالفرج. لكنّ الدعاء لم يسعفها، وماتت حزينة ومريضة. كانت الأختان تبكيان كثيراً لفقد الأم، والجميع يصرخ بهما أن يتوقفا عن النواح. ثمّ جاءت

شقيقتهما الأصغر سلمى وأخبرتهما أن لا داعي للبكاء فقد أكّدت لها صديقتها أنّ الله لن يضرب أمّها.

«لن يضربها. ما تعتلوا هم»، قالت الصغيرة.

لكنّ الفتيات لم يكنّ خائفات إن كانت «أم البنات» ستحظى بالعناية والتقدير، بعدما أضناها الشقاء طويلاً. كنّ بحاجة إلى أن يسمعن أكثر من عبارة «الماما بخير» وأنّها ستجد خلاصها لدى الله. قرّرن الصلاة يومياً لوالدتهن، لكي يستجيب الله ويعيدها إليهن. وكنّ يتحدّثن عن الله ببساطة وبراءة لم أعهدها من قبل، ويعلّقن الآمال على إمكانية استرداد الأمّ.

لم أستطع يوماً نسيان تلك الحادثة ولا منظر الفتيات أو الألم الذي لفّ ملامحهنّ، ورحت أفكّر في سرّي إن كان فعلاً يسمعنا ويستجيب.

كان الله الصمت والسكون الذي لا يجوز الكلام عليه ولا الإشارة إلى يومياته أو محاولة مصادقته. كان الفكرة التي لا يحق لي أن أجادل فيها، فوحدهم الكفّار يؤمنون بقدرتهم على التواصل معه. وحدهم «الكفار» قد يستيقظون صباحاً وينظرون حولهم لمخاطبته أو ليقولوا له صباح الخير أو حتى تصبح على خير. ومرّات عدّة، كنت أفكّر أنّي فتاة سيئة، وأنّي أستحق المصائب الّتي تحلّ بي، لأنّي كنت دوماً في حالة شك، وعلاقة ملتبسة مع الإيمان، يشوبها الكثير من الهلع والحواجز.

وكانت علاقتي مع زوجي ما أبعدني فعلاً عن التعبّد والصلاة، فقد اكتشفت زيفاً لا يحتمل في التعامل مع ما يفترض أن يكون جميلاً

وراقياً. فقد كان الدين، بحسب تصرّفاته، وسيلة للمنافسة أو لإلغاء الآخر، في استكبار وتعجرف، والمتاجرة في قيم يستنبطها حسب الحاجة. وشعرت أحياناً أني صرت أكثر تفهّماً لنقمة أبي على رجال الدين، خاصّة في ظلّ الحالة المزرية للمدينة، فإن استعملوا سلطتهم يوماً، وجّهوها إلى الهدم وليس إلى البناء. وكانوا قد أحكموا قبضتهم على الشباب كأنّهم يروّضونهم كي يرضوا بالحد الأدنى من العيش، فلا يحلموا بأي تغيير.

ليست فقط علاقتي برجال الدين ما كانت ملتبسة، بل علاقتي بكلّ ما حولي. وأكثر ما كان يضايقني ويثير النقمة في داخلي كان الزيف الّذي رأيته في كلّ مكان. وقد بدا لي أنّ جميع من حولي لا يعيشون فعلياً، إنّما يتظاهرون بالعيش، وأنّهم ولدوا في قوالب معدنية جاهزة، وفضّلوا البقاء فيها متخاذلين ومتقاعسين عن الخروج من تلك العلب. وكنت أسأل نفسي هل لهم مثلي منازل في الخيال وحيوات أخرى، أم أنّ رغباتهم ميتة. وهل جميعنا منساق إراديّاً تحت سطوة التقاليد والعيب والحلال والحرام، أم أنّ البعض مستفيد من نمط العيش المرتكز على الحياة-الموت لأنّه يعزّز الخمول ويوجد مبرّراً له؟ وهل الرضى والسكوت نعمة نعيش تحت ظلالها آمنين أم أنه نقمة تقتل كلّ ما فينا من شرارة وتشعرنا دوماً أنّنا لا نملك ما يكفي لمواجهة الحياة؟

وأكثر ما كان يؤلمني كانت العبارات المشابهة لـ«هيدي الحياة» و«هيدا القدر» و«شو طالع بالإيد؟». والآن، ما عدت أعرف إن كانت واقعيتهم فعلاً الخيار الأسلم، أم أنّها نتاج خيبات متتابعة، وضياع

أحلام ورغبات سابقة لم تأتِ لأصحابها سوى بالويلات.

في الكثير من شوارع المدينة، ومنازل أهلها، لم تكن أحلام الشباب تتعدّى الحصول على وظيفة يذهبون إليها صباحاً، ليعودوا إلى بيوتهم، ويأخذوا قيلولة بعد الظهر، ثمّ يمضون المساء في زيارة الأقارب والأصدقاء، أو يظلّون في منازلهم مسمّرين أمام شاشة التلفاز. وعندما كنت أبقى صاحية في فترة بعد الظهر، كنت أحسب نفسي في كوكب صغير جميع من فيه نيام. ولم تكن تنجح محاولاتي في الغرق في سبات عميق، فقد كنت أكره النوم حتى في فترات الليل، لأني أرى الحياة أثناءها تفرّ منّي، أنا من كانت بي رغبة جامحة بها.

-13-

كيف تحوّلت من كلّ تلك المثالية إلى امرأة خائنة وقذرة. لم أعد أذكر. كيف انفلت حبل حياتي السرّي من بين يديّ وكرّ كحبات سبحة تنفرط أرضاً. لم أعد أعرف أيضاً. كيف وجدت نفسي وأين فقدتها، كلّ ذلك لم يعد يعني شيئاً فعلياً، اذ لا قدرة لي على محوه. لا قدرة لي على الغياب، ولا مفرّ من الحياة.

اتصل الأمر بقاعدة ذهبية اكتسبتها شيئا فشيئا لأجد راحتي في الممنوع، في السفلي الذي هبطت إليه بكثير من اليأس والخذلان. في الظلام، رسمت نفسي بنزعتها الحساسة الّتي يراها الآخر إتقاناً في الخلاعة، وحافظت في الظاهر على الطبيعة الفوتوغرافية المستمدة من الآخر، لأنّي لم أشعر تجاه مجتمعي سوى بنوع من الهوس.

بعد أشهر طويلة وسنوات من الزواج التي اتخذت فيها حالة العدم

شكلاً آخر متّصلاً بواقع مؤلم بعيد عن كل ما نسجت في خيالي، كان لا بدّ من أن أخرج من الأسر اليومي الّذي كبّلني، وأتحوّل إلى شيء آخر. احتفظت برسوم كثيرة لتصاميم داخلية للمنازل كنت أنجزها على غفلة من الجميع، وأحفظها في علبة صغيرة مقفلة. ولكني لم أستطع أن أحصل على عمل في هذا المجال لأن سامي رفض أن أقوم بأي عمل حرّ، أي غير ما يسمّى وظيفة، وقد كان رافضا لفكرة الرسم والتصميم واعتبرهما مضيعة للوقت. كل ما استطعت الحصول عليه وظيفة صغيرة في شركة تأمين أنجز فيها أعمالاً إدراية وروتينية مقابل مبلغ زهيد.

لم أكن لأرفض بجميع الأحوال، فقد كنت بحاجة ماسة إلى التفاعل مع الحياة، ولو من أيّة زاوية صغيرة، لكي أقلب كياني على أي نحو. صرت أقصد مبنى العمل القريب من المنزل سيراً على الأقدام وأقوم بجولات طويلة تحت السماء الملبّدة، وأنا أشمّ رائحة الطرقات وأرى السيارات تمرّ عليها.

مررت يومياً قرب شجرة عملاقة مزروعة بين رصيفين، وكنت أراقب قطرات الماء تنزلق على أوراقها لتستقر على الغصن، فتغمرني سكينة وأمل بأني قد أمسك يوماً ما غصناً، وأسكن شجرة عملاقة، من دون جلبة الأحاسيس والأفكار، ومن دون العدم الذي رماني ليالي طويلة طريحة الفراش. حتى أني كنت أركض في الطرقات أحيانا فرحة، وأدرك كم كنت مسكونة بالخيبة ومنفية عن الحياة. الأمر الوحيد الّذي كنت أرغب به فعلاً، بكل اللّهفة التي يسعى فيها الآخرون إلى الأموال والثروات، كان أن أسير في الشوارع، بهوائها

الملـوث، وروائحهـا الكريهـة، وحفيف أنفاس أهلهـا وأصواتهم. في تلك الدقائق، تحوّلت إلى كائن ماديّ ينظر إلى الآخر ويحدّثه بشكل مباشر، وكنت أفرح لأني لست عدماً ولأني اعترفت لنفسي بوجودي.

وإذ كنت أضحك وحدي وأنا مارّة في الشوارع، كانت الجموع ترمقني بنظرات مفادها أنّي مخبولة، وما من سبب لكلّ تلك السعادة، ولكنني كنت أريد أن أوقف الغرباء والمارّة، وأنظر في أعينهم وأخبرهم أنّهـم راودونـي فـي أحلامـي مـرّات عـدة، وأنّـي رسـمت ديكورات لمنازلهـم، وأنّـي أردت دومـاً أن أنتمـي إليهم، ولكـنّ أبي منعني، ثم أمّي، وبعدهما زوجي.

وأقسـم أنّه كان بإمكاني أن أكمل الحديث وأخبرهم أن الأمور تحسّـنت وأنّـه بـات بإمكانـي الخـروج في مواعيد العمـل، وأنّه صار بإمكاني أن أنظر إلى واجهات المحال، وأشتري لنفسي ملابساً داخلية أو عطر، أو ثوب جديد.

وأحيانـاً، كنـت أتحدث مع المتسـولين وأطرح الأسئلة عليهم، مـن أيـن أتـوا، ولمـاذا انتهى الحال بهم على هذا الشـكل، والسـبب الوحيـد الـذي كان يدفعهم لتحمّل حماسـتي المفرطة كانت معرفتهم أنّهـم سـيحصلون على المال في نهايـة المطاف. وربّما في أعماقهم، كانوا يفكّرون كم هي فارغة هذه المخبولة. ولمّا كنت أنتبه إلى ضيق الوقت، كنت أهرول إلى العمل وقدماي تتزاحمان على السرعة. عند الباب، كنت أهدأ وأمشي وأتحرك في الغرفة، بقدمين متقاربتين جداً وابتسامة امرأة رصينة لأستعيد ملامح موروثة عن أسلاف لست على صلة وثيقة بهم.

أنجـزت عملـي بهـدوء، وأنا أتأمل كل عقود التأمين سـواء على الحياة، أو السيارة، أو المنزل، وأسأل نفسي هل نحتاج فعلا إلى كل صكوك الأمان؟ وإن كنّا نفعل، فهل ستكفي إن لم نكن نشعر بسكينة داخلية يكاد إدراكها مشقة أشبه بنوع من المستحيل.

عندمـا نظـرت إلـى الزبائـن، انتابتنـي رغبـة خبيثـة بالضحـك والسـخرية. بـدوا لـي كأنّهـم يتزاحمـون للحصـول علـى ضمانـات للاستمرارية، للعيش، لا للحصانة ضد الحوادث. هل من حصانة ضدّ الذكريات؟ ضدّ العدم؟ ضدّ الرفض؟ ضدّ الشـك؟ وهل يشـبعهم أن يعرفـوا أنّهـم إن توفوا في حادث ما، سـيتركون أثـرا ماديّاً لعائلاتهم. الإنسـان الذي يعرف قسـوة وبشـاعة الحياة في حاجة إلى ضمانات، والكثيـر منهـا، ليـس لـه ولكن لمن يحـبّ، لأطفال يرغـب بتجنيبهم البؤس والحضيض، وربما لزوجة لن تجد من يعيلها إن مات زوجها. الأمر المثير للسخرية كان رؤية البشر يتهافتون على عقد صفقة مع ما بعد الموت ويسهون عن العيش.

ربما كان جميعهم مثلي، مطوّقين بإحسـاس دائم بالخطر، وبأنّ وجودهم قد يشوّه من جانب الآخر في أيّة لحظة انكسار، فيسارعون إلى تحصينه ببوليصة تأمين. ولكن من يصلح الأرواح المكسورة ومن يستطع تأمين حصانة ضد الخيبة أو الحزن الذي يخلفه الموت أو ضد العدم الّذي يسكنني؟

لـو كان لنـا قـدرة ضئيلة على الحبّ، لمـا احتجنا إلى كلّ تلك الضمانـات. كنـا اكتفينـا بعاطفـة نبيلـة من الآخر عوضـاً عن الخوف المـزروع فينـا منذ أن نلفظ أنفاسـنا الأولـى. وربما يكون العكس هو

الطاغي: إنّنا نحتاج لحبّ الآخر كي نعزز هويّاتنا ونسلم من الشعور بالعدم، لذلك نحرق محطات كثيرة وندوس كل ما قد يعترض وجودنا أو مجرد محاولة تأكيده. قتل الروح مجرد محاولة بالية لرتق الجسد وتمجيـده. كذلـك هو قتل الجسـد، مجـرد محاولة بالية لإقناع الروح بمثاليتها. الهاوية التي وقعت فيها أمّي.

-14-

كنت أتمنّى لو أسـتطيع أن أبقى في أحضان ربيع عمراً بأكمله، وألّا ينتهـي لقاؤنـا، لـو أسـتطيع أن أحمل النشـوة في داخلي كذكرى منه، وأن أحفظ رائحته بين مسامي كي تعينني على الأيام الآتية. بدت رغباتي بعيدة المنال. بيني وبينها طريق شاقة لا أعرف نهايتها، ولكنّي عرفت أنّها رغباتي الخاصة.

صدقتها لأنّها أتت من داخلي، ذاك الصوت الّذي يملي عليّ أن أحبّ. ذاك الصوت الذي يغلّف قلبي فيصبح ربيع فيه، ويصبح تأمّل ذاك الرجل لساعات طويلة متعة خالصة. تصبح نشوتي في النظر إلى عينيه. وما أن أنسكب بين يديه، أحتّى شعر بروحي الفارّة تعود إليّ.

طلب مني ربيع أن أخلع ملابسي، وكنت أحبّ أن يتأملني عارية. كان يقول إنّ له رغبة في اكتشاف جسدي. وبرغم أنّه حفظ تفاصيله، كان يشـعرني بأنه يتأمّله للمرة الأولى. كان شـيئاً جميلاً يحدث لي، ممنوعـاً، قليـل الحيـاء وغريبـاً. كأنّي أنتقل إلى حديقـة خضراء ليس للأحجار فيها عيون. تسلّل الضوء إلى الغرفة بعناية وأصبح بإمكاني أن أرى الدوائر الخالية، المربعات في جدار الغرفة، والسلك الأبيض

الممتد خلف السرير. مجرد وقوفي عارية على ذاك النحو جعلني أكثر انتباهاً إلى التفاصيل. جعل حواسي أكثر قدرة على التقاط جسد ربيع من البعيد، كأنّ تلك المسافة بين جسدينا منحت لروحينا فرصة أن تمارسا الحبّ في أحلى أشكاله.

كان شعري الأسود الطويل يتدفق على كتفيّ. أخرجت نظرات ربيع إليّ امرأة وديعة ومجنونة، امرأة غاضبة وهادئة، تعشق الجمال والحياة. نظرت إليه وداهمتني رغبة عميقة بالاقتراب منه. كنت أريده في تلك اللحظة وعرفت أنّه هو أيضاً أرادني.

دفعني إلى الكنبة. أمطر قبلاته على كل أنحاء جسدي. وكما يحدث في الأحلام، كنت أقع من مكان مرتفع وبقيت محلّقة بين الأرض والسماء. لم أعرف كيف هبط جسدي إلى السرير مجدداً، ولا كيف لامست الواقع، ولكنّي لم أسمع أيّ ارتطام أو دويّ. وقعت بخفة روح مجنحة أهداها الكون سكونه.

وفي مخيّلتي، رأيت امرأة ممدّدة على بعد واسع، في أفق غامض، يكاد يكون في اتّساع البحر، رأسها بين ذراعيها ينظر إلى الجسد. وكان الموج عالياً إلى حدّ يجعلها تصرخ وتعانق الملح والماء، لتستحمّ من كلّ ما ليس هي وتبلغ العميق الغامض، والحقيقي. وكانت ترفع ساقيها لتحتضن وجهاً مجهولاً يرشح منه العرق، فتفتحهما وتضمّهما في نفس الطريقة، بقوة واعية ومؤلمة، حتى يصبح الوجه والجسد واحداً ويلتحما.

وكأيّ شيء رائع في الحياة، دقت ساعة الذهاب، وناداني الواقع. ارتديت ملابسي. وضعت نظارتي الشمسية وخرجت من المبنى. لم

أشعر بالخوف ولا بالخجل. كأنّ عشقي المحرّم هو عين الصواب، وكأني من دون هذا الهوى، أفقد رشدي ولا أجد للتوازن سبيلاً.

لا أدري من أين أتيت بكلّ تلك الشجاعة حين تعلّق الأمر بالخيانة. ربما هو هربي من التفكير في عواقب الأمور أو اليأس منها، اليأس الذي دفع ذاتي العميقة إلى القول «فليكن ما يكن». كنت أشبه بمجرم داهمه رجال الشرطة، فلمّا وصل الى البحر، ألقى نفسه في الماء، وغرق فأنقذ نفسه.

لم يخفني الموت فقد اختبرته كلّ دقيقة مع زوجي، لكنّي كنت توّاقة إلى الحياة، فاندفعت إلى أحضانها، دافنة خلفي كل النساء اللّواتي يعولن ويخدشن وجوههن ويشددن شعورهن. وكنت أرى نفسي على رأس موكب إن رأته الفتيات، أطلقن صرخات حادة وألقين بمناديلهن إلى الخلف حيث الخوف، ولحقن بي، إلى الهاوية الأمام. كنت أقود الموكب هاتفة دع النساء يصرخن، وليس اللّواتي يشبهن التفاحة فقط، بل المرأة الناضجة، المليئة، الحلوة كالعسل، المرأة التي اختزنها كلّ رجل في داخله وحرّم عليه المجتمع إطلاقها.

اختباري للحضيض وتعرّضي للذلّ والمهانة في زواجي جعلني أفكّر لماذا لا أقوم سوى بإرضاء غيري. جعلني أسأل ملياً ماذا أريد أنا؟ طافت في ذهني صور الأصنام المحيطة بي، من أهلي وصديقاتي، وعبرت وجوه كثيرة في رأسي لتحاصرني من كلّ الجهات. صوت أمّي وهي تقول أنّ المرأة يجب أن تغلّب مصلحتها على عاطفتها لتحفظ مكانتها الإجتماعية. صوت صديقتي التي تعرف أنّ زوجها يعاشر غيرها، ولكنّها تقول أنّه سيعود إليها في نهاية المطاف. صوت

كرامتها الّذي يرتطم بحطام الأشـياء، وهي تقول أنّها لا تبالي طالما أنّهـا تحصـل علـى ما تريد من مسـتلزمات مادّيّة، وهامش من الحرية يتيح لها أن تسـتقبل زوّارها، وتمضي سـاعات في واجبات اجتماعية لا تضيف على حياتها شـيئاً. وكنت أفكّر هل هنّ النسـاء من يهجرن شهواتهن، أم أنّهن بكلّ بساطة لا يبحثن عن الحبّ، بل عن السكينة والهدوء.

-15-

في السنة نفسها تقريباً، صار لي عشيق وصديقة. لم يكن لي أيّ مـن ذلـك مـن قبـل. وكان ربيع أحد زبائن شـركة التأمين الّتي أعمل فيها. حين رأيته للمرّة الأولى، كان يخفض رأسه وينظر نحوي، كما لو أنّه ينظر إلى مشهده الخاص. وكنت أسلّمه أوراقه في ارتباك واضح، كمـا لـو أنّ يـديّ تمتـدان للوصول إليـه. أخبرني أنّـي جميلة، فبادلته بردّ فظ وخشن، متظاهرة أنّي لم أسمعه. ولكنّي نظرت إليه في رقة، ليس ثمّة ما يعادلها سوى المنع الشكلي الّذي يحرّمها. وعندما لاحظ وجـود خاتـم الـزواج في إصبعي، سـألني إن كنـت متزوجة. قلت له نعم، وبقي يكلّمني، فيما أتت إجاباتي مختصرة. سألني أيضاً إن كنت سـعيدة، لـم أجـاوب وامتلأ المكان بسـكون مرعـب، رأيت فيه امرأة فـي مسـتنقع طين، وسـط اضطـراب المياه، كأنّها بعيـدة، صمّاء وغير متواصلـة. ثـم راحت جميع الأشـكال تتفكك أمامـي، وتصبح مائعة. كرّر سؤاله، فرأيت الأشياء تنكسر، كأنّي فجأة عدت مرئية.

طـوال الأعـوام الثلاثيـن الّتي عشـتها، لم يسـألني أحد إن كنت

سعيدة. والآن لم أعرف ماذا أقول. صرت أفكّر في كلّ النسوة اللّواتي لسن سعيدات، وإن كان لهنّ عشاق. وبدا لي أنّ لهنّ ملامح خاصّة، ووجوهاً متشابهة، وبأنّهن يحملن حقيبة يد كبيرة فيها جميع مستلزمات وأدوات الخيانة. وبقيت يومها أفكّر، هل في ملامحي ما يدلّ على تعاستي، ربما مشيتي أو كيفية جلوسي، أو حتّى طريقة تحريك يدي.

رحت أتخيّل امرأة تقف عند الرصيف، وتحدّق إلى الشارع الخارجي. تضع حقيبة يدٍ تحت إبطها، وتحمل كيس تسوّق. وبدت لي كأنّها سئمت الانتظار، أو ربما لم تكن في انتظار أحد أصلاً. وفكّرت بأمّي، وإن كانت يوماً قد تمنّت رجلاً غير أبي. كأنّي مع تقدّمي في العمر، صرت أراها كامرأة، وليس والدتي فحسب.

عند عودتي إلى المنزل، أغمضت عينيّ ومشيت في درب طويل. وجدت حولي عدة أشخاص، يحملون كؤوساً بأيديهم ويرتدون ملابس أنيقة. ووقف أمامي رجلان بملامح باهتة، فيما ظهر ربيع على حصانٍ أصيل، متشامخ الهيئة. وكنت ألوّح له بيدي من البعيد وأشير إليه أنّي هنا، إلى أن مرّ قربي من دون أن يردّ عليّ التحية. وتركني لأرتمي على الأرض.

وأدركت أنّي على خصام مع المرأة التي تظهر في أوهامي وتسبّب لي الألم، لأنّها تفيض رغبة وتنازعني على ذاتي، حتّى تسلبني إيّاها. ولكنّها كانت أجمل منّي بكثير. دافئة وعذبة. وكنت أراها تتقدّم نحوي ببطء، وتفتح ذراعيها لتدعوني إلى حضنها البعيد والناعم. وكان بها ضوء يجعل دموعها تملأ عينيها. وبدل أن يتوحّد

بها، كان جسدي المهجور والغيور يدفعها عنه ويبعدها، فتصرخ لكي تعود إليه ثانية. تصرخ متوسّلة، فأبدأ في دفنها، لأحوّلها إلى امرأة تحت أرضية، كي لا تقوم بأيّة حركة جديدة، وتغلق عينيها، وتبقى هناك وحيدة، من دون حراك.

طوال ما تبقى من الليل، ظللت أشعر بالاستياء، إلى أن رأيت طلوع الفجر من خلال كوّة في حجرة نومي. وكان النور يرخي بظلاله على نصف وجه زوجي، فبدا لي هو أيضاً رجلين. وكنت ليلتها، أشعر برغبة غير متناهية في أن أسبّب له الألم. وكنت أمسك نهديّ بشدة وأعصرهما، ثم أقوم لأمشي في الغرفة، أو لأدخّن سيجارة، أو لأبكي.

وكنت أعرف أن نوبات رعبي مزيج من الخوف والندم، والشعور بالذنب، لوجودي مع شخص يمارس عليّ سيطرة مطلقة، ويحرمني من السيادة، والكرامة والاعتزاز بالنفس، ومن العقل تقريباً. ولكنّ رغبتي في الهرب، برغم كل الجراح، كانت دليلاً أنّي لست مدمّرة كلّيّاً، وأني أحافظ في أعماقي على شيء من الكرامة. والحق أنّي لم أكن ضحية خداع، بل ضحية بإرادتي. أبديت لسنوات عدة انصياعاً مذعناً لشخص متسلّط. وبطريقة ما، بعد أن استعدت الوعي، بعث الأمر في داخلي الغضب واليأس.

ظللت واقفة في مكاني، في انتظار المرأة الّتي طردتها منّي في النهار لكي تعود. وكنت أرى أمامي ظلّين في مشهد صامت، يشد الظلّ الأوّل الثاني، ثم يتبادلان الأدوار. وكنت بعدها أرسم المدينة، وأقارنها برسوماتي عن المنازل والشوارع والطرقات. لا ألوان في

الواقع. كلّ شيء سواد وبياض. الألوان على ورق، كان يقول ظلّ المرأة الأولى. وكان ظلّ المرأة الثانية يطلب منها أن تغسل عينيها بالماء لترى الألوان. ولكن، كما لو أن الأولى خارج مجال السمع، كانت الثانية تردد سؤالاً واحداً «من يملك الأجوبة؟ من يملك الأجوبة؟».

وربما كان الشبه الذي يجمع بين هالة وإحدى نسائي المتخيلات ما دفعني إلى الاقتراب منها. كثيراً ما تأمّلتها من البعيد. قوامها الممتلئ، شعرها البني اللّون. عيناها الواسعتان، وحركتها التي لا تهدأ. بشرتها المشدودة ورقّتها في التعامل مع الآخرين. بساطتها واندفاعها وملامحها الصارخة. لم تملك هالة مقوّمات الجمال المعتادة، ولكنّ تفاصيلها الصغيرة عبّرت عن الحياة. كذلك فعلت نظرتها الثاقبة وابتسامتها التي تشعرك بأنّك تستطيع أن تتجاوز كلّ مصاعب الدنيا وقسوتها.

ترمّلت هالة حين قضى زوجها في حادث سير بعد حوالي عامين من ارتباطهما، وضعها القدر أمام معادلة صعبة: أب متسلّط وولد مريض، ولا معيل لهما سواها. رغم كثافة الشجن الذي صعق روحها، أصرّت أن تكمل حياتها. عندما توفي زوجها، شعرت بالخسارة والوهن. وأدركت مرّة أخرى، أنّ كل شيء إلى زوال.

عندما حكت عن زوجها زياد، أضاءت عيناها وأخبرتني كيف كان يعتني بها. كانت تقول إنّها لن تعرف رجلاً بمثل حنانه وعطاءاته. ثم تجهش في البكاء. تبكي وتسأل لماذا تركها وحدها. ألم يكن يعلم كم هي بحاجة إليه. بعدها، كانت تضحك ساخرة، ومتألّمة.

كانت هالة، النحلة التي تنتقل من زهرة إلى زهرة، تبدو حزينة. حزنها المستتر وراء مظهرها الصارخ لم يكن يخفى عنّي، أنا التي أبيت أن أعترف بحزني حتى لنفسي، وكنت أطمئن نفسي بأنّ الجحيم الّذي أعيش فيه نعيم يجب أن أحسد عليه.

لكنّ حزنها لم يمنعها من أن تنشد ألحاناً جميلة مع الناس. كانت نبيلة إلى حدّ كبير، متصالحة مع ذاتها ومتسامحة مع الآخر. الآخر بالنسبة لهالة لم يكن كياناً مطلقاً، بل محطة لا تستغرق فيها كثيراً، لذلك لا تنساق وراء ما يحيط بها، بل تتعامل مع كلّ شيء ببساطة كما لو أنّها تتوقع حصول أي شيء، وتستبق الخيبات. وبدت جاهزة دوماً لتلقي الحياة، ليس لأنّها ضعيفة، بل لأنّها أصبحت تدرك أنّ بعض الأشياء نتلقاها فقط، ولا نملك دوماً قدرة على تغييرها، وأنّ الوقت كفيل بتغيير أسوأ اللّحظات.

كانت تقول أنّ محاولة شن الحروب ضدّ القدر لا تثمر أكثر من صراعات بالية مع الذات. وقد أرادت أن تكون بمنأى عن معارك غير مجدية وتحتفظ بطاقاتها لما هو أهمّ. حاولت أن تخلق مساحة سعادة من العدم. وبرغم مرض السكري الذي حمله ابنها منذ الصغر، كان إيمانها بالله كبيراً.

ظهور معالم الإيمان عند هالة بدا مخالفاً للطبيعة بالنسبة لي، نوعاً من المعجزة، لأنّي كنت محكومة بأفكار مسبقة زوّدتني بصورة نمطية عن المؤمنين والمؤمنات، تلك التي احتكرها البعض باللباس، أو الطقوس اليومية الضيقة.

ربطتني بهالة صداقة قوية، فكلانا تشاركنا الحزن وحبّ الحياة.

وكنا نجلس معاً لساعات، نتحدّث عن أحوال الدنيا، ونضحك لأتفه الأسباب. آلمني جداً حال ابنها شادي، طفل العاشرة من العمر الّذي اضطرّ أن يصارع المرض. استغرقت في تأمّله وهو يلعب، في عناده ومثابرته وتصميمه أن يكون كسائر الأولاد رغم نحوله البارز، وامتناعه عن تناول كلّ السكاكر والحلوى ومشاركة الأطفال لذّتهم المقدسة.

وكان ابن هالة في حاجة مستمرة إلى مراقبة مستوى «الغلوكوز» في جسده، ومرغماً أن يأخذ عينة من الدم مرّات عدّة لفحص مستوى السكر. وأعترف أنّ الصغير بدا لي شجاعاً جداً عندما حقن نفسه بالأنسولين في غياب والدته، في محاولة مدهشة للسيطرة على المرض، جعل المصاعب تبدو هامشية، كأنّنا نحن الكبار نعطي الأمور دوماً، حجماً أكثر مما ينبغي.

-16-

مع مرور الأيام، عاود سامي ضربي. كان يعود غاضباً من عمله ويطلب منّي أن نقوم بفعل الحب. وإن تمنّعت، أمسكني من شعري وجذبني إلى الأرض. نعتني بالعاهرة، وتعمّد أن يكرّر عبارة عاهرة مرات عدة حتى أبكي. كلما ازداد أنيني، اشتدّ الضرب. تحوّلت بين يديه إلى شيء حقير لا أستطيع التغلب عليه. تحوّلت إلى امرأة منحطّة وسافلة تقبل الإهانات والشتائم من دون أن تتكلم. أصبح جسدي أزرق بأكمله. اتسعت مسامه لأتشرب الأسى حتى عنقي. لم أعد أطلب منه أن يتوقف، ورحت أفكر هل أستحق ما يحصل لي. وفي تلك اللحظات، انفصل جسدي عن روحي. أصابه خدر تام

وفقدت الإحساس به.

أذكر جيداً يوم ضربني للمرة الأولى. كنا قد عدنا للتوّ من زيارة لأحد أصدقائه. يومها، أغدق علي يوسف صديقه بالإطراء. وقال له من باب المزاح زوجتك رائعة الجمال وأنا أحسدك. ضحك سامي وقال له «ومرتك متل القمر يا رجل». بدا متضايقاً طوال السهرة فطلبت منه أن نرحل. في طريق العودة، سألته ما به. فقال أمام ابني طارق «الهيئة مبسوطة بحكي يوسف. شو عاجبك يا بنت الكلب». لم أعلم بم أجاوب وسكتّ. أي كلمة كانت ستشعل غضبه، وكنت كإسفنجة تحاول امتصاص مشاعر رجل غيور.

لم أكن أفكّر في الخيانة حينها. بل كنت أحتقر النساء اللّواتي قد يقدمن على فعل مشين كهذا. لو لم يكن يحبّني، لما شعر بالغيرة، فكّرت في نفسي. ثم راحت الأفكار تنساب في ضوضاء الذهن. وصلنا إلى المنزل. نعتني بأبشع الصفات. وانهال عليّ ضرباً. لا، لم يكن غضباً، فالغضب شعور عابر بالسخط، سرعان ما يتبخر من دون آثار. كان نوعاً من الألم أو هكذا كنت أحبّ أن أعتقد. وعندما كان يضربني، كنت أفكّر به وليس بي. وبدا لي كوحش ليس أكثر، وحش يغويه أن يأكل لحماً ويشرب دماً.

عندما كان سامي يتوقف عن ضربي، كان لون وجهه يتغيّر وترتجف المنطقة تحت عينيه، فلم أكن أرى سوى يديه تهتزان أمام وجهي. وكنت أهرب منه. أغلق باب الغرفة بإحكام. أبحث عن زاوية كي أختبئ فيها، ليس منه ولكن من نفسي. وكنت أنظر إلى السقف وأتوقّف عن الحياة. أجلس القرفصاء في الزاوية، مذعورة،

خائفة، مسحوقة كبعوضة أطبق عليها رجل بيده، وأشعر أنّي في قعر واد سحيق. وأرى الظلّ يناديني، أرى امرأة أخرى تراقبني، فلا أجرؤ على النظر إليها.

وكانت سنواتي الثلاثون تذهب وتجيء في خاطري، فتداهمني رغبة بالتوقف والاستماع إليها. ولكنّ طرقات عنيفة على الباب كانت تصل أذني وهو يأمرني أن أفتح له. وفيما جفّف الذعر أجفاني، كانت نبرة صوته تتغيّر فيستجدي ويتحوّل جبروته إلى مرارة وخيبة. وكلمّا قادتني قدماي الى الباب، كنت أدرك كم صرت أكرههما وأمقت هذا الجسد اللّعين الّذي لا يثور.

رحت أمسح عرق جبينه فيما شدّ جفنيه. وكعادته، اعتذر مني. توقّع أن أنسى كل ما فعل وأسامحه. لا بل أمرني أن أسامحه. شعرت بزفرات تنطلق من صدري وتهمد. وكان عليّ أن أبتلعها كما أبتلع نفسي. عاود الحديث عن يوسف. سألته «كيف تستطيع أن تفكر حتى بهذا السوء؟». قال إنّه يحبّني كثيراً وأنّه لا يحتمل فكرة خسارتي، واتّهمني أنّي لا أحسن التصرف، وبدأ بتعداد مساوئ ليست فيّ، إنّما فيه. ورحت أفكّر في نفسي أنّ أسوأ الجرائم ترتكب باسم الحبّ، أو الله أو ما ندّعي أنّهما.

كل ما تمنّيته ألّا يلمسني، ولكنّه أراد أن يشعر بأنّي ملكه. وكنت أنقاد إلى الفراش وفي خيالي صور لسلاسل تتدلّى من قدميّ. وكما لو أنّ أحدهم وضع أصفاداً على يديّ، استجبت لرغباته. لم يكن جسدي لي، بل له. كان زوجي الّذي لا يحق لي أن أقول له لا.

ولطالما نام سامي وبقيت صاحية لساعات أنظر إلى السقف

وأفكّر من يستطيع أن يمنع هذا الشيء البشع الذي يحصل في منزلي. هل سأبقى هكذا طوال حياتي؟ ماذا لو قلت لأبي أنّ زوجي يضربني. كانت أمّي تعرف تحذّرني دوماً ألّا أخبره، وأتجنّب الفضائح، فلا بد أن يتغيّر هذا الرجل. لم أكن أخونه في تلك الفترة. خيانتي له بدأت بعدما بلغت ابنتي دنيا عامها الرابع. كنت قد بدأت أصبح أكثر تحرّرا منه. حصولي على الوظيفة في شركة التأمين ألقى بين يديّ سلطة ما. صرت امرأتين، واحدة يضربها زوجها، وأخرى تعمل وتنتج. لم تعد الأولى قادرة أن تكون كما هي بأكملها، ولم تكن الثانية قادرة على بسط سلطتها. شعوره بأنّي قد أفلت من بين يديه دفعه ليعاملني بشيء من اللّطف. وفي صباح ربيعي، جلسنا معاً نرتشف قهوة الصباح. نظر إليّ وأنا أنفث الدخان وقال:

- تعرفين. يفترض أن تكون النساء أكثر أناقة في إطفاء السجائر. وأنت تطفئينها كحطاب ولا تكتفين بإطفائها، بل تمرّغين حواف المنفضة بالرماد. ثم من المفروض بالفتيات ألّا تنفث الدخان من الأنف.

- أنت تقول ذلك فقط لأنّك لا تحبني أن أدخّن.

- لا. أنت تدخّنين بطريقة غير لائقة.

- سأتدرّب على طريقتك.

- لماذا أصبحت وقحة؟

- لست وقحة. ولكني لا أجد مبرّراً لاعتراضك.

- أنت تشبهين والدك يوماً بعد يوم.

- هو أبي.

- وأنا زوجك.

- نعم أعرف.

- لذا يجب أن تطيعيني. لا تنسي ذلك ابداً.

نظرت إلى أعقاب السجائر المرمية في المنفضة، وأردت أن أخبره أنّي أطفئها بعنف، لأنّها تمثّله وهو جالس قربي، وتعبّر عن رغبتي في إطفائه من حياتي، والتطهّر في حواف الرماد من كل آثامه الشرعية والمأساوية.

تعلّمت القسوة من سامي وذويه، من تديّنهم الشكلي الذي لا رحمة فيه، ومحاولتهم لإظهار والدي بصورة كلب بنيّة كئيبة، كأنّه يجب أن يخجل من نفسه لأنه يعيش في الخطيئة. ولكنّ والدي، برغم خصاله وألمه الّذي أورثني إيّاه، مثّل بطريقة ما إصرار الفرد على موقفه، وعلى ما يمليه ضميره أمام رياح عكسية عاتية تعصف به من أقرب المقرّبين إليه.

مع الوقت، استبدل أبي غضبه بانطوائيته وسخريته اللّاذعة، وعندما حاولت أن أنظر إلى عينيه، علّني أفهم إن كان كافراً فعلاً كما يقال عنه، أم أنّه ذو روح قومية معترضة على استغلال الدين، كان نظره يتراجع أمام نظراتي ويختبئ عميقاً خلف جريدته.

ويخيّل إليّ الآن أن الاشمئزاز المتبادل والمؤدب والمحلّى الذي ساد بين والديّ، هو اشمئزاز بين تيارين متعاكسين، وأنّ ابتساماتهما الكئيبة، الّتي حاولا أن يطمئنانا بها بأن الحياة على ما يرام، فضحت أسراراً مشتركة كثيرة عن حزن أمّي المكبّلة بشبح التدين ونفوره من انهزامها لمعتقدات غريبة الشكل.

في الهواء الذي تنفسته، المشحون بالهلع والفزع من صورة الشيوعي الذي اختارته شريكاً لها، أصبحت شهوتها كمعسكرات الإبادة التي يغتالون فيها كل ما هو حيّ، كقطارات الموت، أو كالسيوف الّتي يشهرها الإنسان باسم العادات والأعراف. وفي زاوية رف بعيد وناءٍ، كنت أرى بأمّ عيني أين تختبئ كتب والدي، وكيف تضيع الأحلام بين صفوف المجلدات المكتظة، فيجد لنفسه مخبأً مظلماً وراء أوراق أخرى.

رأيت أشياء أخرى في الواقع الذي انسقت إليه كالماعز، أشياء جعلت ذويّ يبدوان أكثر تحبّباً. رأيت مكتباً امتلكه أهل سامي لتنظيم رحلات إلى الحج وبيع مستلزمات السفر، أو المسابح، وماء زمزم وصور مكّة المكرمة، يتحول إلى مركز تجاري للاحتيال وإقناع الشاري بجودة منتجات مزيفة. ورأيت أيضا كيف كانت والدته تنهال ضرباً على الصبيّ الصغير الّذي عمل لديهم لأنّه لم يوفّق في إقناع زبون بالشراء.

رأيت كيف استباح عالمهم العلوي عوالم أخرى أدنى مستوى، فاستغرقوا ساعات في انتقاد الآخر-المختلف في شكل وحشيّ. شاهدتهم وهم يتكالبون على ميراث جدّه ليختلف الإخوة فيما بينهم على الحصص، ويرمقون بعضهم البعض بنظرات حقد واستكبار وهم خارجون بعد صلاة الجمعة من مسجد المنصوريّ الكبير.

رأيتهم وسألت نفسي هل يمكن أن يكون إلههم على هذا القدر من السوء، ولكنّي كنت دوماً أطرد أيّة أفكار معارضة من ذهني، خوفاً من أن ينتهي بي الأمر في جحيم ما، كذاك الذي سيحترق فيه

والدي إن لم يرتدع عن عدم ممارسة الطقوس الدينية.

-17-

أدركت في داخلي أنّي أصبحت أكثر شـذوذا مع الأيام، وأذكر أنّي حين كنت أسـمع الجرس يقرع بطريقة سـامي المألوفة، الملحة والقويّـة، كنـت أرسـل زفرة من نفـاذ صبر لا يحتمل، لأنّي أعرف أنّه بمجرد دخول زوجي، سأغرق في جمود بليد ولن تستطيع أن تثيرني لا القبل ولا الملامسـات ولا تشـنّج مضاجعة يفترض به أن يحملني إلى ذروة الانتشاء النهائي.

عندما فتحت الباب الرئيسي ليدخل، تسرّبت إلى جسدي هبات من هواء خريفي منعش. وكنت أرفع رأسي باستمرار في انتظار انفعاله القادم، فلا تكفّ عيناي عن النظر إلى عقربي ساعتي، إذ انتابني شعور بأنّه قد يفقد أعصابه في أيّة لحظة. وعندما استلقيت في الفراش، دفنت وجهي في الملاءات وتمطّيت ما استطعت، فإذ برفاص السرير يطلق صريراً مسـموعاً، فأعرف أنّه أنهى اسـتعمال لوازم الحلاقة، وارتدى بيجامتـه، وأتـى للتمـدّد قربـي. كان ذلـك التقـارب مخيفاً فـي غالبية الأوقات، ولكنّي اكتشفت تدريجياً، أنّ كلّ تلك الحماقة اليومية بدت لي مضجرة إلى أقصى الحدود.

حتّى أنّي صرت أنفصل عن أولادي كلّما اشتدّ شوقي إلى ربيع. كلما اشتقته أكثر، كلّما ضاقت بي جدران المنزل. انتابني شعور بوحدة قاتلة، وعندما كان ولديّ يحدّثانني، لم أكن أسمعهما. كنت أفكّر ماذا لو رحلت الآن؟ ماذا لو فتحت هذا الباب الخشبي المسعور وركضت

من دون أن ألتفت إلى الوراء؟

هام خيالي في البعيد، وبقيت أنظر إلى الباب. وكنت أحلم بأن يأتي ربيع، ويكسر الباب بفأس ويضرب سامي ويأخذني معه، وبأن أمسك يده وأهرب إلى حيث لا أحد يعرفني ولا أعرف أحداً. كوخ صغير في بلدة نائية نمارس فيه الغرام مرات عدة في النهار. نرتكب فيه حماقات الجسد. نركض حيث لا أحد يكبحنا ونمارس الغرام مجدداً بين الأشجار.

وكنت أعود لأستدرك أن ربيع ليس هنا. وليس من عذاب في الدنيا أسوأ من الوحدة. منذ عرفته، لم أعد أفكّر بسواه. لم تعد تعنيني الأشياء التي كنت أعيرها كمّاً هائلاً من الأهمية قبله. أغمضت عينيّ وأطلقت العنان لخيالي. بات لسان ربيع يذوب في فمي وكما لو أنّ نهداي يصرخان. صار حجمهما أكبر. استلقى طيفه قربي في السرير وأصبح جسدي ساخناً. وما إن تخيّلته يلجني، أتاني صوت دنيا «ماما، ما تنامي، أنا كتير تعبانة».

قمت بسرعة لاحتضانها وأجهشت في البكاء. شعرت بالذنب، فمنذ لحظات قليلة، كنت أمّاً لا تريد أولادها وترغب بالتحرّر منهم. وما آلمني أنّي لم أكن فعلا كذلك، كنت أمّاً أنجبت أولاداً من الرجل غير المناسب الذي تحوّل إلى سبب كلّ تعاستي، وهشاشتي التي تنتهكني كلّ ليلة.

سألتني دنيا لماذا أبكي، فقلت لها أنّي متعبة قليلاً. وما لبث أخاها أن أتى. احتضنتهما وأنا أشدّ على جسديهما الصغيرين. أردت أن أقول «أنا أبكي يا أولادي لأني أريد مثلكم أن أشعر بالأمان ووالدكم

يضربني. يكسر في نفسي كلّ ما هو جميل ويشعرني بالإهانة طوال الوقت. أنا أبكي لأنّي أخاف عليكما وعلى نفسي. أريد تجنيبكما عذابي ولكنّي عاجزة. أنا أبكي خوفي وخيبتي ووحدتي. وأخشى ألّا أعود قادرة على أن أمنحكم حباً».

انساب حزني وهلعي من بين أصابعي ليتدلى من كلّ أطرافي. أردت أن أعود طفلة كولديّ، وأنسى هذا الألم الذي يعبر بين مسام جلدي، وأزيل عني هذا الجسد المضطرب الملطخ بالضرب والإثم.

احتضنتهما وأنا أسأل يدي التي ترتجف أهما من يحتضناني؟ شعرت بمدى ضعف هذا الكيان الذي هو أنا وبمدى حاجته لأن يستمد القوة ولو من سراب. وبقيت على هذه الحال حتى غفونا نحن الثلاثة على السرير نفسه.

-18-

حوّلتني الرغبة بالسيطرة على نفسي بكل تداعياتها إلى إنسانة باطنيّة، تماماً كأنّي أعقد ميثاق شرف مع ذاتي بأن أحفظ جميع أسرارها في صندوق دفين. وإذا بي حين أحاول الوصول إلى كنوزي، أجدها مستترة عنّي، ليظهر الآخر أمامي كشخصية كرتونية أو دمية أحرّكها في رأسي، أزيل عنه القناع لأجده عارٍ أمامي. فأسأل هل الآخر من أرى أم أنّي أسكب ذاتي فيه؟

الاستغراق في عالمي البديل كانت الطريقة التي تعصمني عن ارتكاب الخطايا فأظلّ آمنة. ولكنّي منذ تعرفت على ربيع، وشعرت بلذة الخطيئة، صرت أغوص فيها وأنسى ما عداها. لم يعد الخيال

يقيني خطر الواقع ولم تعد استيهاماتي تكفي رغباتي التي صار لها جسد وأقدام وعيون. فحين كان يحيط كتفي بباطن ذراعيه، كنت أشعر أنّه يحتويني إلى الأبد، وأن وجودي اضمحلّ حتى تلاشى في حضنه الدافئ. الشعور الذي أدمنته نبض حيّ يجعل الأحلام ممكنة. وكامرأة صحت من عالم بارد وجاف لتجد نفسها في تلك الحكايا الخيالية، بات العيش في الواقع الذي أنتمي إليه أكثر مشقة.

كان الهواء في الخارج بارداً ورائحته قوية. تنشقتها بكل مسامي وأنا أنفخ سيجارة في الفضاء. تحوّل الدخان إلى أشكال أربطها ببعضها البعض، وعرفت كم هو صعب أن أنفلت كهذا الضباب. لامس الصقيع جسدي الخامل المكبوت فإذا بي أستمتع بالبرد. كنت أخاف هذا التوجّس في داخلي، وبعد محاولة يائسة للقبض على انفعالاتي، انطلقت من جوفي رغبة محمومة. مزّقني الشغف الذي لم يجد له مربطاً وراحت تؤرقني أسراري المدفونة تحت التراب.

وفي غضون لحظات، استعدت حياتي برمّتها: كل ما أحمله ليس ملكي أو أنّي ببساطة لا أريده. ربما لا أعرف ما أريد، ولكنّي أعرف أنّي لا أريد أن أكون زوجة سامي. لم أختر الحقيبة الجلدية التي أحملها يومياً. كانت هدية من والدتي وتسريحة شعري إلى الخلف تشعرني بأنّ أنوثتي منقرضة أو عائدة إلى زمن غير عصري. القمصان بأزرار التي تملأ خزانتي اشتريتها لأنّها ترمز إلى المرأة المحترمة، وقد أرغب بألّا أكون كذلك. حتى العطر الّذي أستعمله، حصلت عليه كهدية من إحدى قريباتي. ولأنّ رائحتي لم تعد تعنيني، صرت أرشّ أيّ سائل على جسدي.

ثرثرة أختي التي لا تتوقف أشبه بالنعيق وعلبة الماكياج التي اشترتها لي لا تلائم بشرتي، لكنّي أضع منها كلّ يوم. غريبٌ كيف نكره التفاصيل حين لا نكون سعداء وكيف تأتينا قدرة على تخطّيها حين يملؤنا الفرح والسعادة. استرجعت حياتي وأنا أشعر أنّ الذاكرة تخونني. لطالما كنت متمسكة بالخيط القريب للعيش ولكنّي لم أحيا. عالمي مليء بالضحايا والجلادين، بالأحلام المدبرة التي تنأى عن روحي. صورة أبي وهو يدخنّ السيجار في زاوية الغرفة محصياً خيباته من الحياة، ورغبته في الانكفاء عن العالم، بينما كانت أمّي تحصي النقود التي قبضها كتعويض عند عودته من الكويت. صوت شجارهما الوحيد الّذي ما زال يتردد في أذني حتّى الآن، يملأني سخطاً، ويجعلني أرغب في تمزيق نفسي حين يعنّفني سامي أمام الأولاد.

تلك كانت طريقتي في الهروب من الواقع منذ الصغر: أن أتخيّل أشخاص آخرين وحياة أخرى حتّى أغفو. لا أدري متى بدأت استيهاماتي الجنسية، ولكنها بدت موجودة منذ الأزل. لا أعرف لماذا كنت أحبّ أن أكون دوماً في منأى عن السيطرة في خيالاتي. كنت أترك العنان لأشخاص خياليين كي يتحكّموا بمسار جسدي ويسيطروا عليه. علّها كانت رغبة دفينة في البحث عن الأمان، عن مكان يحتويني فأندسّ فيه بلا مقاومة، مستسلمة وراضية.

عندما كبرت قليلاً، صرت أتفنن في استيهاماتي وأطلقها في حصص الدراسة المملّة. رافقني هاجس ألّا أكون عذراء، واكتشفت فيما بعد أن لصديقاتي التوجّس نفسه. نحن لم نمارس الجنس يوماً،

ولا تجرّأنا على لمس ذاك الشيء الذي ينبض بين أفخاذنا، ولكنّنا كنا نخاف من ألاّ يكون كما يجب، مغلقاً بالشمع الأحمر. نخاف ألا تنساب دماؤنا يوم نتزوج، ونخاف من ذاك الدبق الذي يداهمنا من دون سابق انذار، تماماً كما لو أنّ شرفي بين فخذي، وبي خوف عليه أشد من أي خوف آخر. لا أدري كيف أحفظه حتى من مجرد تخيّلات، ولا أدري لم بي كل تلك الشّهوات.

لا أعلم الآن إن كنت خائفة بقدر ما كنت غير صبورة في داخلي على اكتشاف المحرمات. وأسفت أن أحداً لم يشرح لي يوماً شيئاً عن جسدي. ثقافة الذعر التي اعترت أوجه المحيطين بي كلما جئنا على ذكر لفظة قبلة كانت تشعرني بأني أقارب مناطق ممنوعة، بي خوف من ولوجها، ورغبة عارمة في كشف ملابساتها، وكل ذاك الضجيج الصامت المحيط بالجسد.

وبحلول الصيف، ومعه الرطوبة الدبقة، كنت أسلك طريقي إلى الحمام. وكمن يتسلّل الى كهف لا يقربه سوى قاصديه، أخلع ملابسي وأتسلّل بين قطرات الماء لمحاربة ذاك الجفاف الذي تكتسيه أيامنا وعبقها الحار.

رافقتني الشمس منذ الطفولة، إضافة إلى الاندفاع مشياً على الطرقات الوعرة. كنت أتسلق الصخور وألعب بالتراب كلما زرنا قريتنا. زرت عمتي سامية وأحببت أن أراقبها وهي تصعد للسطح من خلال سلم عال ارتكز على جدارنا الداخلي. كانت عمتي الفارغة القوام، وأميل الى النحافة، ذات وجه بيضاوي واضح الشحوب، اخترقته تجاعيد بارزة. وكان لها شفتان رقيقتان بلون البنفسج. وفيما

كان وجهها يعبّر عن رقّة وطيبة، كانت تثير في نفسي مزيجاً متناقضاً بين الرأفة والاشمئزاز. كانت أشبه بالصبا المتآكل والنضارة التي بلغت الحضيض. وحين كانت تتكلّم عن أيام العزّ، وتترحّم على جمالها وشعرها الأشقر المجدول، كنت أفكر في سرّي، لماذا تنتقد النسوة الغوى والجمال، ويتغاوين بمحاسنهنّ في جلساتهنّ. أهو نوع من الاستسلام لذاك الحيز الأنثوي الدفين الذي مهما دفنته قيم العفة، أخرجته حواء من الطبيعة؟

أهذا ما أفعله أنا؟ أنكر أنوثتي لأنّي تعلّمت منهن كيف يندحر النهد في مهده، وكيف تقاس المرأة بما تحجبه من نفسها. هل لشدة ما أضنتني الشمس، أجد في هذا الهواء على الشرفة معبراً لذاتي؟ أهي ضربات سامي المهينة ما يطلق أنين كرامتي فتصرخ عزتي بين شراييني وتقول لي ثوري وكوني ما تبغين.

-19-

كنت أدرّب نفسي على الخيانة، فتصبح أشبه بحرفة أو ديانة أعتنقها. تأمّلت وجهي في المرآة ونبشت شعري كي يبدو أكثر كثافة. قلبت رأسي إلى الأمام، ثم رفعته إلى الخلف بسرعة لتبدو تسريحته طبيعية. سمعت صوت التلفاز الذي يعرض فيلماً باللهجة المصرية وضحكت. كنت أضحك لأتفه الأسباب حين أكون على موعد مع ربيع. أصبح أكثر مرونة وخفة. بالرغم أنّه كان من المفترض بي أن أكون خائفة، وأن ترتجف يدي التي أمررها على وجنتي بحركة سلسة، وأنا أضع «البلاش»، وأن يبدو صوتي مذبوحاً وأن تكون

أوتاره مشدودة، ولكنّي كنت سعيدة.

تحوّلت إلى لصة ومنافقة تسرق من الزمن بضع لحظات سعادة. وكأني أثأر من زوجي، عاملته بلطف كلما اقترب موعد لقائي بعشيقي، ونبذته كلما اشتد شوقي إلى الرجل الذي أهواه. تماماً كأنّي أقول: هذه شهوتي التي مُنعت عنها، تتجلّى في الإثم وتنقذني من الرتابة والملل. هذا الضجر الذي انسكب فوق عنقي يزيله ربيع بلسانه. هذه أيامكم المملّة، أنا أخونها. هذا الكذب على الذات الذي أورثتموني إيّاه، أنا أخونه. هذا الشرف الذي طلبتم أن أصونه، أنا أخونه.

رسمت أسطورة، ووضعتها نصب عيني. ونظرت من خلالها إلى المرأة التي أنا هي في منزلي: محطّمة، معنّفة، محدودة ومكهربة. المرأة الأشبه بلوحة معلّقة على الجدار، كلما نفضت الغبار عنها تكدّس عليها وازداد. المرأة التي أشبه بها أمي ومحاولتها لمعالجة التصدّع الذي لامس حياتها، ونخرها من الصميم، وهي في حالة إنكار.

أذكر الليالي التي كان يغيب فيها والدي لساعات طويلة في العمل، قبل أن يزداد سفره إلى الخارج. كانت والدتي تنفرد بنفسها جانباً، وتبدأ في تدريب لسانها على إخراج الكلمات الرقيقة، فتخرج كلّ الأحرف كسيحة لا تبيّن أي معنى. تظلّ تقرأ حتّى الصباح كي تستطيع أن تضاهي ذاك اليساري المتطرف ثقافة وعلماً. وإذا بها في محاولات مستميتة لنطق اسم ارنستو تشي جيفارا، تعجز. وعلى غفلة منّا، تدفن رأسها في وسادتها، وتطلق نشيجاً محموماً ومؤرقاً.

كانت تقوم من سريرها، وتندفع إلى الخارج في انتظار عودة

والـدي الـذي نـادراً مـا أعلمها بموعد رجوعه إلـى المنزل. وغالباً ما كان يتأخر، فتغفو على الكنبة في غرفة الجلوس. في الصباح، تنهمك في الأعمال المنزلية علّها تنسـى ليالي الوحدة والعطش. كنت أراها في سجن يضمّ جوانح النساء وانكساراتهن، حين لا يمنّ عليهن أحد بالمديح. أراقب أثوابها الباردة المعلّقة في الخزانة، وأسأل نفسي، هل يحبّها أبي؟ وهل تحبّه هي؟ وهل صمودها وعنفوانها المتأرجح بين صمتها ومحاولاتها الخفية لمجاراته في المعرفة هو الأصدق، أم أنّها تدفن بين حوافي جسدها مرارة ليس بعدها مرارة.

وبمـا أنّ والـدي، الحـاد الطباع في تعامله مع والدتي، كان كثير الرقة معي، لم أملك بيني وبين نفسـي إلّا لومها. وكنت أفكّر لا بدّ وأنّها مصدر غيابه المتواصل عن البيت. لم أكن أعرف أنها في هوة سحيقة لا يمكن لأحد بلوغها. مظهرها القاسي أخفى وراءه التشبث بالعائلة والحياة التي فرضت عليها إنكار الشق الأنثويّ الحسّي لديها.

مـع مـرور الوقـت، لم تعد أمي تنتظر عودة أبي من العمل. ولم تعد تدرّب نفسـها على حفظ تعريف الامبيريالية وايديولوجية الثورة. صارت تحبّ الخروج وزيارة الجارات، واكتفت بالعمل داخل البيت، والانشغال بالتنظيف، والطهو، كأنها تلّبست دونيتها تجاهه، أو صارت تحتقـره سـراً، فالرجـل مهما بلغت درجة علمـه وثقافته، لا يحلو في أعين المرأة إن لم يرمز إلى الحماية والدفء.

كانـت تشـتم لينيـن وسـتالين، وتحمّلهما وزر تعاسـتها. وعندما تـزوّج ابـن إحـدى جاراتنـا من فتاة روسـية، وجدت الفرصة سـانحة لوصمها بكل النعوت التحقيرية على مسـامع الزائرات، «ما اجانا من

الروس غير العقد، شو خلصو البنات ببلادنا؟». استرسلت أمّي في شتم المنظمة الشيوعية والاتحاد السوفياتي، خاصة ذاك المدعو «تشي جيفارا»، «الي ما حدا خرّبلا بيتا غيرو».

استمرت في تأتأة الكلمات الغريبة، وصدقت الجارات كلامها عن انفلات الفتيات خارج وطننا، «إنو هيدي يلي أخدا عزام أحسن من بنت إم حسن، والله صبية ما بتتاقل بالدهب». استمرّت أمي في صبّ غضبها على اليساريين وهي تقول «ما ناقصنا إلّا شراميط روسيا».

كانت تلك المرة الأولى الّتي أشهد فيها هذا الانفلات العصبي العلني لها. بقيت يومها حبيسة غرفتها، ولم تعمل شيئاً سوى الاستلقاء في السرير والتحديق إلى كل تلك الكتب المكدّسة في رفوف مكتبة أبي، ولعن الظروف التي دفعتها إلى الخروج من المدرسة. كانت تريد أن تشعر أنّها امرأة، وأن يشتري لها زوجها فستاناً «على الموضة»، كما فعل زوج «أم فريد» صديقتها. ولكنّ الأب المتغطرس المنغمس في قراءاته، شحّ عليها بالحبّ ولفظها خارج دائرة الشهوة، لا بل نفاها عنها وتركها معلّقة بين ثلاثة أطفال ورغبات لا تبصر النور.

كنت أهمّ في الخروج حين تناهى إلى مسمعي صوت التلفاز. شعرت بأنّي أخلّف زوجي بين الأزقة الملتوية. وكنت أتمنى حين أعود، ألّا يكون موجوداً، أن يتعرّف على امرأة أخرى ويهجرني، أن يكتشف أني لست له، وينبذني، فأتخلّص منه.

كان يمضغ لقمته ويتفرج على الفيلم المعروض على التلفاز. قبّلت وجنتيه بخبث، كمن يدفع ثمناً مسبقاً للجريمة الموعودة،

وودّعتـه، ظنّـاً منـه أنّـي ذاهبة لملاقـاة هالة ومرافقتهـا لإجراء فحص السكري لولدها، فقال لي «يا ريت كل يوم بتضهري مع هالة، تتبوسيني هيك منك لوحدك». ضحكت وتسلّلت إلى الخارج مبتهجة، فقد كنت على بعد خطوات من حياتي السريّة ومن شقة عشيقي.

كنت أعرف أنّه لم يعد ممكناً على الإطلاق أن أعود تلك الفتاة الحالمة، الّتي تخفي ذاتها، كما تختفي الرسائل الممنوعة من صناديق البريـد. وكان علـيّ الاعتـراف بأمر آخر لذاتي، أنّي أحبّ الرجل، أي الكيـان المذكـر. كان نصفـي الشـرس الذي ينقصنـي للاكتمال. وفي استيهاماتي، بحثت عن حسـه الجمالي المرهف، عمّا هو اكزوتيكي ونادر ومبتور من شخصه.

ففي بداية علاقتي مع زوجي، سعيت بغباء لإزالة كل ذاك العنفوان غير المبرر عنه، وتحويله من ذاك الجسد السوداوي والمضطرب إلى رجل لطيف. ولما كان ينتهي الأمر به دوماً إلى الاعتذار والبكاء بعد الضـرب، كنـت أصيـر في حالة جمـود، فتتلعثم أفـكاري، كأنّها قطع صغيرة ومكتظة داخل الأقفاص، وأضطرّ إلى الصفح عنه. فهل كنت أسـامحه لأني أمّ، والوالدة مرادف للمثالية، وأنا يجب أن أبقى على الـدوام فـي العالم العلوي القيّـم، والمترفّع عن الغضب والاعتراض. فأبقى مثالية أمام كلّ من حولي، ومسحوقة أمام نفسي.

عندمـا ضربنـي، كنـت تلـك الـذات العاجـزة عـن المواجهـة والمنسحبة وراء الخوف وسلطة موهومة لرجل عصبيّ المزاج، يحفر لنفسه في باطن جسدي أوكاراً وممرات ليطفئ شهواته، وأنفاسه، وما كبت منها. وكنت أتقبّل الضربة الّتي سيوجهها إليّ سامي، كأنّ دمي

سيراق هنا، وكأنّي أستحق العقاب، ويجب أن أكون صلبة بما يكفي لتحمّل الألم الذي سيلحقه بي.

وفي لحظات الانعزال مع الذات، كنت كالخارجة للتو من فترة تجوال بائسة ضدّ العدو، فلا يبقى مني سوى الغبار، أنا الّتي لعنني الله بالرغبة وحبّ الحياة. وبعدما كان الخيال يقيني من كل شيء، صرت أقرب إلى صندوق ملابس عتيق به أشلاء أثواب. فكيف تسامحني سحر على كل الهوان الّذي ألحقته بها، أنا من وعدتها في أحلامي بأن أريها الجمال والحق.

كان يريد إلغائي وتمريغ وجهي بالخوف، تماماً كما أراد أهل الحيّ القضاء على أبي، وتماماً كما أراد الشيخ بلال السيطرة على ذهن أمّي، وكما أراد خطباء مسجد المنصوري الكبير إلغاء كل من تجرّأ على التشكيك في كمالهم.

في طريقة ما، نجح في إقصائي عن ذاتي. عرفت من محاولتي لرسم ديكورات منزلية كم صرت بائسة، فانتهى بي الأمر إلى رسم غطاء طاولة ينزلق إلى الاسفل، إلى الحضيض. كما لم يعد ممكناً بالنسبة إليّ أن أستخدم ألواناً شفّافة أو سماوية، بل انتهيت إلى ظلال خشبية داكنة، لأشعر بعد إنهاء التلوين، بأنّي أفرغت القساوة حتّى اكتفيت، كامراة تقيّأت كلّ ما في معدتها من شرّ.

برغم ذلك، تضافرت عاداتي العتيقة بذاتي، فتشبّثت بالخيالات والأوهام الغريبة. ولم أكن أستطيع أن أنكر أنّ علاقي بربيع صقلت شخصيّتي في شكل غير متوقع. فقد كان الجنس بيننا أشبه بفن التخليّ عن السيطرة، بإزالة غمامة الخوف الّذي صدّع روحي، ويجدر

بي الاعتراف بأنّ إبعادي عن المقدّس، ودنوّي من الدنس الوثني كان السبيل الوحيد لإيجاد مسافة مشتركة بين الإثنين.

بعدما التقيت بربيع، صرت أشتري كلّ تلك الأشياء المزخرفة والملابس الداخلية المثيرة الّتي لم يكن يعنيني اقتناؤها قبل أن أعرفه. كان رجلاً حسياً بامتياز، يهوى التفاصيل. وكان ما إن يمرّر أصابعه على خاصرتي، حتّى أتحوّل إلى امرأة أخرى، ليست من هذا الكون، امرأته هو وحده، تماماً كأنّ رائحة جسدي تتغيّر لتخرج الرعشة من أطراف شعري.

كان يلجني ويلهث، حتى يبدو لي أنّ جسده في الهواء، فأترك نفسي له وأغرس أظافري في ظهره. كنت أرغب بأن يلجني أكثر وأكثر، حتى أحفظه في داخلي. وعندما كان ينسكب ذاك السائل اللزج على نهدي و بطني، كان يغمرني بحنان ونتوقف كلانا عن الكلام. وفي صوت الصمت، كنت أكاد أسمع كلّ أيّامي الّتي فاتت من دونه تبكي، وتعانق ذاك الجسد الذي أصبح جزءاً مني. لا لم يكن مجرد جزء مني. كان ربيع كلّي. كان كينونتي المطلقة الّتي أتنفّس فيها رحيق الوجود.

وفي المرات القليلة التي كنت أغفو فيها قربه، كنّا دوماً في وضعية التصاق مباشر، بعدما نصل كلانا إلى الذروة. وكنت أنتظره أحياناً كي يستغرق في النوم على جنبه، فألصق صدري بصدره ويصبح عضوي بموازاة بطنه، ويتناهى إلى سمعي نفسه المحموم الذي يكاد لا يتوقف، كأنّه مستمر في ولوجي من دون أن نعي ذلك.

-20-

نزيـف فـي الذاكرة يشـبه الرقص في رأسـي. أذكـر يوم ضبطني والـدي جالسـة علـى حافـة البركـة مع شـقيق صديقتي سوسـن. جنّ جنونـه. تحـوّل إلـى كائـن عصبيّ مفتـرس، ومنعني من زيـارة القرية لأشـهر عدة. كانت جريمة أن أكلّم الرجل، فكونه من الجنس الآخر عكس لوالدي استحالة انفراده بي.

لـو كانـت كل الأشـياء طبيعية بالنسـبة لأهلي، لمـا أعطيتها هذا الحجم المتضخم في نفسـي. ولكنّهم وأقربائي اسـتغرقوا في تفاصيل ليسـت علـى قـدر مـن الأهمية. فكيف تحـوّل اللّيبرالي اليسـاري في غضـون لحظـات إلـى وحش شـرقي خائـف على ابنته مـن الخطيئة؟ وأيّـة ثقافـة تلـك الّتي تجعله يعاملني كأني طفلـة عاجزة عن الاعتناء بنفسها؟ وهل كان نبذه لأمي هو نبذ للشهوات وتحريمها على نفسه يعكس تحريمها عليّ كذلك؟

ربمـا بعدمـا رأيـت فداحـة الواقع، صـرت أكثر تفهمـاً لوالدي، لتظلّلـه فـي الرفـض والعزلة. فهمـت خوفه عليّ لأنّي أدركت أنّه كان يعـرف أنّنـا ممنوعـون عن الأحلام والحياة، فاختار الموت الحيّ لأنّ الموت الآخر قادم عاجلاً أم آجلاً.

كان يعـرف أنّ الأسـوار تنهـار، وأنّ المخطّطـات تفشـل، وأنّ الأحزان تفترس الكيان، وأنّ الشرّ ينتصر، ويموت الأصدقاء، ويحمل الآباء دماء أبنائهم إن أطلقوهم إلى الخارج، وأنّ خيانة الذات تتحوّل إلـى نمـط للعيـش، وأنّ الصـور تكـذب، وأنّ النصر ليس قـدراً، وأنّه

ممنوع عن مدينته المظلمة الّتي أدمنت الكآبة.

وربما كان جزء من إيمانه بإلحاده موروثاً عن قيم تنص أنّ من لا يعرف الإله الذي اختاره أهل المدينة، لا يعرف إلهاً آخر، ولا يكون سوى رسول الشيطان في المدينة. وجد والدي نفسه رهينة الخوف من الخوف، وأسير الخيبة، وحكم مسبقاً على ظلام مستقبلنا. لم يخبرني يوماً أنّ الأخطاء هي مجرد جزء من الحياة، بل أشعرني مراراً أنّ الزمن يتوقّف عند أوّل خيبة، لندور في محورها خاشعين.

تجنّبت أمي الحديث معي أيضاً. كان بيني وبينها هوة، واختلف احتكاكي معها عن علاقتها بإخوتي. فقد كنت مدلّلة والدي ومحبوبته التي يغار عليها ويخاف من أن يمسّها أي سوء، وتصرفت معي كأنّي «حصته». وبما أنّها أقسمت أن تقطع مشاعرها الأنثوية نحوه من الوريد حتّى الوريد، شحّت عليّ بأمومتها وبادلتني بالحذر والجفاء. أدركت هذا البعد عنها حين بلغت أنوثتي، وداهمتني الدورة الشهرية للمرّة الأولى. دخلت إلى الحمام ولمحت بقعاً حمراء اللون على سروالي الداخلي. ظناً مني بأنّ الأمر طبيعي. للوهلة الأولى، غيّرت ملابسي الداخليّة بكلّ بساطة.

دخلت للمرة الثانية، وإذا ببقع جديدة تظهر على المناديل الورقية. كان اللّون الأحمر شديد التوهج. ارتجفت ساقاي وبدا كأنّ النار تهبّ من عضوي. صرخت لأمّي أن تأتي. داهم الدمع عيني، وتصادم مع ابتسامة خفيفة ارتسمت على ثغرها. ناولتني فوطة وأرتني كيف يجب أن ألصقها بـ«كيلوتي». وقالت «والله كبرتي يا سحر، صرتي صبية». أخبرتني أن هذه الحال ستستمر لبضعة أيّام، وأنّ كلّ الفتيات حين

يكبرن، يتعرضن لهذا النزيف مرّة شهرياً، فلا داعي للقلق ولا للخوف.

لم أنم ليلتها. شيء غامض أدرك جسدي. لم يكن وجعاً. لم يكن ألماً. كان شيئاً لا أفهمه يحوّلني إلى أنثى. ملأني إحساس غريب، وأصبحت إنسانة ملتبسة، كلّ ما تعرفه أنّ دماً يسيل بين فخذيها، وتتشربه فوطة علّمتها أمّها كيفية تثبيتها في الطريقة المناسبة.

لم يرض والدي بأن نزور القرية مرّة أخرى إلّا بعدما وعدته ألّا أخرج بغير إذنه، وألّا أتكلم مع سوسن حتى لو صادفتها في الطريق. ركبنا في السيارة. راقبت الطريق الممتدّ من الساحل حتى قريتي الواقعة على أحد المرتفعات. توقّف أبي واشترى لي ولإخوتي الشوكولا و«البيبسي». دفع ثمن الحاجيات وانطلقت عجلات السيارة من جديد. لم أهدأ طوال الطريق، وكنت أفكّر بشقيق سوسن، وكيف يمكن أن ألقاه من دون أن يعرف أبي. حاولت طرد الفكرة من رأسي، ولكن كلّما تجنّبت التفكير به، اجتاحتني الرغبة إلى لقياه.

كعادتي، ذهبت لزيارة عمّتي سامية، وحين لمحت شقيق سوسن من بعيد. هرولت في الاتجاه المعاكس. انزلق جسدي على حافة الطريق، وانساب بلا توقف. نظرت إليه يراقبني مندهشاً وخائباً. حاول أن يومئ لي بأن أتوقف وأكلّمه. ولكنّ خوفي كان أقوى منّي. تملّكني الرعب من ألا أطيع أبي، فيتوقف عن حبّي. بعيداً ركضت عن الشاب الذي رغبت بالتودّد إليه. تلعثمت رغبتي على الطريق، وتصبّب العرق منها فهرولت كأنّها تسابق الريح. كان يخال إليّ أنّي في اقتتال مع الهواء، وأنّي كنت أتضارب في كلّ الاتجاهات. استمرّيت بالجري والبكاء. ركضت بالسرعة التي كان قلبي يدقّ بها، وفي حماوة الشغف

الذي أردت أن أستسلم له. الهرب هو الوجه الآخر للرغبة. ركضت بعيداً عما أردت بسبب الخوف، لا بل نفيت ما أريد من حياتي، ورحت أبحث عمّا يجب أن أريد. تلبّسني أبي، وأمطرت في نفسي مصائب أمّي، وشهوة عمّتي سامية المدفونة، فكيف احتملت هذا الكم الهائل من الأشخاص في داخلي؟

عند وصولي إلى منزل عمّتي سامية، كانت دموعي تتسابق على وجنتي وجسدي يتصبب عرقاً. عرّى الخوف قلبي كما لو أنّني على وشك الموت، دفنت نفسي بين ذراعيها وطلبت منها احتضاني بشدة. ظلّلت عيناي غمامة. ارتبكت نظراتي. ارتجفت من ألم اعتصرني. هدّأت عمّتي من روعي وسألتني ما بي. قلت لها أنّ ثمة ما يحصل في جسدي، ولا أستطيع مصارحة أحد به. رويت ما حدث في الحمام وما قالته أمّي. ثم أخبرتها عن لقائي بشقيق سوسن قرب البركة. وصارحتها بأنّني خائفة أنّ أحداً لن يتزوجني لأنّي لم أعد فتاة صالحة، وبأن يكون مجرد حديثي مع الشاب ما تسبب في سيلان دمي. ضحكت عمتي. ملأت قهقهتها الفضاء فازداد سخطي.

أجلستني وجاءت لي بشراب التوت الذي كنت أحبّ. راحت تحكي لي عن والدتها التي كانت تنتابها نوبات نسيان، فلا تعود قادرة حتّى أن تنادي أولادها بأسمائهم. أخبرتني كم كانت تشعر بالوحدة وسط عائلتها، وأنّها عندما كانت صغيرة، كانت تظن أنّ أمّها تتناسى وتتعمّد عدم الاهتمام بها، وأنّها لم تدرك أن والدتها مريضة فعلاً إلّا بعدما كبرت وصارت تفهم ما هو الالزهايمر. قالت إنها كانت تتألّم كلّما اشتد مرض أمّها وكلّما بات لها القدرة على فهمه أكثر.

«يظنّون أنّ الأطفال لا يفهمون شيئاً وهم مخطئون، فإنّ الأولاد، وإن تغاضوا عن كلّ التوتر المحيط بهم، فهم يدركونه في أعماقهم.» قالت عمتي.

طمأنتني أنّي سأفهم تصرفات ذويّ أكثر عندما أكبر، وأجد لها تفسيراً. وطلبت مني أن ألقي كلّ هذا الذعر جانباً، فالأمر لا يستحقّ العناء. شرحت لي أشياء عن عالم النساء وطبيعتهن الفيزيولوجية المختلفة عن الرجال. أخبرتني أنّ الفتيات الصغيرات يكبرن، وما يسيل من دمائي دليل إلى أنّي أنمو بطريقة عادية، ولا داعي للخوف. رغم محاولات عمتي لتبسيط الأمور وزرع الطمأنينة في نفسي، استمرّ شعوري بأنّي أتمزّق في الداخل. كنت أسيرة القلق الذي لا يتوقف عن نهش نفسي، أسيرة الهرب وأسيرة ما أهرب منه.

عندما تزوّجت سامي هربت منهم، من شعوري بأنّي يجب أن أجد انتماء آخر لا يشبههم، تماماً كمن يستعدّ للهجرة بعدما سئم وطنه. كنت حقيبة سفر بجسد عابر بين الأماكن يبحث عن هوية مختلفة لهؤلاء النساء اللّواتي أعرفهن. واستغراقي في عالم سامي المحدود في بداية علاقتنا ما كان سوى نوع من الاعتراف بأنّي أنتميّ إليه. ضاق عالمهم في داخلي وانتقلت إلى عالمه. ولكني في هذا المكان الذي حسبته نعيماً، كان هناك رجل آخر يضطهدني. أطياف عائلته وشعوري بأنهم يلتفّون حولي كلّما ضربني يسيطر عليّ. هربت من سامي إلى ربيع. فهل أهرب من ربيع يوماً؟ وما هذه الحاجة إلى التخلّص من نفسي؟ هل كانت فعلاً رغبة في التملّص من الذات أم رحلة البحث عنها؟

خلف الحواجز المعدنية، نرد يدور بين الآلهة. وكما لو أنّنا نسقط من بين أصابعهم، نجد أنفسنا في الحياة. ولد ربيع في بيت أرضي صغير جداً، لا تتجاوز مساحته الأربعين متراً مربعاً. يكاد سقفه يلامس رؤوس ساكنيه. وكان سرير نوم والديه عبارة عن كنبة تفتح مساء كي تملأ الغرفة. وفي الصباح الباكر، كانا يطويانها، بينما يوضّب، هو وإخوته، الفراش المرمي على الأرض، ويخفون في الزاوية الشراشف والمخدّات، حتى لا يبقوا أثراً للنوم في المكان.

قبيل شيخوخة والده المبكرة، كان مضطراً أن يعمل بعد الدراسة، وتبدّدت أحلامه بأن يكون طياراً يجول من بلد إلى آخر. اكتشف أنّ أحلامه ولدت كسيحة كالتربة الفقيرة والهزيلة الّتي أوجدته. ورافقته ملامح والده، بائع الخضار البسيط، في جميع الأزقّة التي عبر فيها أثناء التجوال لإيصال البضائع إلى الباعة والتجار.

كان عتّالاً يحمل في النهار الواحد آلاف الأغراض لأشخاص لا يعرفهم، ولم يحمل أحد يوماً شيئاً له. وكانت معدة ربيع حساسة جداً.غالباً ما لفحه البرد وتسلّل إلى جسده الضئيل، وانتظره وجه أمّه وكأس الشاي الأسود كي يدفئ مفاصله. لم يلعب ربيع كباقي الأولاد في باحات واسعة. وبقيت الأحذية الممزّقة والثقوب في ملابسه ترافقه حتى اشتد ساعده.

بقي أصدقاؤه في المدرسة يسخرون من حقيبته الرثّة، ويشيرون إليه بأصابعهم على أنّه «عتال». ولكنّ الصبي الصغير الذي كان يستمد

قوتـه مـن العـدم، تفوّق عليهم، ليس فقط في الدراسـة، بل بات يبيع لأصدقائه السكاكر والشوكولا بثمن أبخس مما كانوا يشترون به. شيئاً فشيئاً، تحوّل ربيع إلى محط إعجاب من أصدقائه.

وكلّما كبر قليلاً، تغيّر نوع تجارته. في سـنوات المراهقة، صار ربيع يؤمن لزملائه الأفلام الإباحية أو حتّى سـجائر «المالبورو». لم يكن يبيع السجائر بالعلبة، بل منفردة، لكي يضمن ربحاً أكثر. التجارة بالأفـراد أكثـر ربحـاً. الولد الّذي تحوّل إلى «إنسـان كسّـيب» لم يعد يعنيه العلم، وتحوّلت المدرسـة بالنسـبة إليه إلى مركز تجاري يؤمّن له مدخولاً إضافياً لعمله كـ«عتال» بعد الظهر.

ولكن المادّة التي انسابت بين أصابعه لم تنجح في إرضاء الولد مبتور الطفولة. أراد أن يحبّه أصدقاءه كما هو، بجراحه وعزته، لا أن يحبّوا فيه «تاجراً» صغيراً يلبّي احتياجاتهم. أراد أن يركض معهم في الملعب، بدل أن يكون دائماً المشاهد الذي يتفرج من بعيد. أراد أن يعطيه أحدهم شيئاً، بدل أن ينتظروا منه أشياء.

الشعور بالوحدة والعزلة وانعدام الحبّ في حياته جعله متعطشاً للعطف. لم يبلغ القسوة يوماً رغم منظره المتصلّب، ونظرته الجاحدة كانـت تخفـي وراءها عينيّ طفل مذعور ومرتبك. عرف ربيع الخوف فـي أسـوأ أحوالـه. الخوف الذي يتلبّس الإنسـان مـن دون أن يدرك، الخوف من العودة إلى الحضيض، هو الّذي ما زالت ملامح الإرهاق تسكن جيوبه، وآثار بقع الوجع ظاهرة على قدميه وجبينه.

كان دائم القلق. في عينيه بريق العذاب، ذاك الضوء الذي يشع ويمتـد صوبـك مـن دون أن تسـتطيع القبض عليه. فغضبه وعتبه على

الدنيا كان باطنياً. وقلّما تكلّم عن حزنه. أذكر يوم أخبرني عن وفاة والدته. كان يقول لي أنّه كان يدخل منزلهم القديم، ولا يجد حزنها الذي يملؤ البيت. «حتى الزعل منشتقلو يا سحر»، جملته التي لطالما فكرت بها. أنشتاق حقّاً إلى الحزن؟ أنعتاد الألم إلى درجة عدم الانسلاخ عنه؟

«لم تعد والدتي تدندن ألحاناً حفظتها. حتى رائحة المنزل يا سحر تغيّرت بعد وفاتها. للموت رائحة. لم يعد للأكل الطعم نفسه. ولم يعد أحد ينظر إليّ كما كانت تفعل»، كان ربيع يردّد دائماً.

لم يعد يذكر من أبيه سوى عينيه المرهقتين والطيّبتين، هو الذي توفي في العام نفسه. لم يحتمل أحدهما العيش من دون بؤس الآخر. ووجد ربيع نفسه أباً لطفلين لم يضاجع أيّة امرأة لإنجابهما. كانا فقط هناك. تعثّر بمراهقته وشبابه وطفولته، وداهمته الحياة قبل أن يشتدّ ساعده. تحوّل إلى رجل صلب وقوي، رجل اعتاد أن ينفّذ جميع مهامه، بسرعة وإتقان.

لذلك اختار هنادي كزوجة له. كانت فتاة بسيطة وهادئة الطباع، قادرة على إعانته في يومياته الصعبة، وهو في طور بناء نفسه. وشيئاً فشيئاً، صار التراب ينقلب ذهباً بين أصابع الصغير الذي انفلت منه عمره.

جمع ربيع النقود وفتح محلاً صار يبيع فيه كل شيء من شرائط فيديو وأقراص مدمجة وملابس داخلية وأحذية رياضيّة. كان يشتري كلّ ما توفر له بثمن بخس، ثم يبيعه، ويرضى بالربح القليل. وشيئاً فشيئاً، كبرت تجارته. وصار يسافر إلى الخارج ليأتي ببضائع مستوردة.

ولطالما تساءلت في داخلي، إن كان الجهد وحده مصدر أموال ربيع، أو أنّه اضطر إلى أن يتخلّى عمّا نسميه مبادئ في طريقه إلى الربح السريع، كي ينتمي. أصبح جني الأرباح بالنسبة إليه شهوة لا يستطيع إطفاءها، لأن النقود زودته بقيمته الاجتماعية الّتي كانت أقرب إلى العدم، ووصلت إلى حدّ التحقير المرتبط بحيوات الفقراء وخيباتهم.

غالباً ما مشى مطرق الرأس، عيناه مثبّتتان في الأرض، في انتظار خلاص وشيك من الإهانة والقهر، كعاشق بلا حبيبة، وأحلام تمكّنت في تمنّعها أن تظلّ هاربة وسريّة. أراد استبدال ستراته الرياضية ذات المربعات الكبيرة، وأحذيته القديمة الطراز، بأخرى لامعة ومروّسة مهما كان الثمن. بدا مستعداً لقتل إنسانيته كي تقبل به إنسانية المجتمع، تلك التي لا رحمة فيها ولا شفقة ولا مكان إلّا للسلطة والمال، كما علّمته التجربة.

أخذه الحال، حتى نسي أنّ له طفولة مبتورة تتربّص له في زوايا حياته. لم ينس أن أحداً لم يحبّه حين كان عتالاً فقيراً في أمسّ الحاجة إلى الحبّ، ولم يستطع أن يفهم إذا ما كان هؤلاء الأصدقاء الذين يتجمّعون حوله ليفعلوا الأمر نفسه لو كان ما زال على حاله. الشكّ والوجع المدفون بين ثنايا الذكرة راح يلاحقه. لم يخرج سامي من قوّته رجلاً خالي الندوب. خرج واقفاً منتصباً ومنتصراً على ألمه. ولكن خلف كل ذاك الجاه والانتصار اختبأ انكسار، انكسار الولد الذي صار رجلاً قبل الأوان.

ولأنّنا غالباً ما ننجذب لمن يشاركنا في الألم، شعرت بالمسؤولية

تجاهه، بأني سأغيّر حزنه وأثبت وجود تعاطف من نوع آخر في هذه الحياة، تعاطف غير مشروط بما نحقّق أو لا نحقّق، بما نمتلك وما لا نمتلك، بقيمة أسمى تغوص بين ثنايا أحزانه. وربما تحوّل شعوري إلى نوع من الهوس بأن عليّ إنقاذه من براثن الرأسمالية، لأثبت بطريقة ما أن الفكر الاشتراكي الذي آمن به والدي كان حقيقة. أليس ذاك ما نفعله عندما نعجز عن إنقاذ ذواتنا، نعكس رغبتنا على مرآةٍ تدعى الآخر ونحبّه بذاك القدر، أملاً بأن نمحو ما ترسّخ في أذهاننا من قسوة. وماذا عن ازدواجية الرفض والقبول لنهج والدي؟ هل تحوّل ذاك الأب إلى جزءٍ مني رغم إنكاري لأهميته في حياتي وهل كنت رافضة في العمق لنهج سامي ومحيطه؟

كنت أنا أيضا أخوض صراعاً بين عالم سامي وعالم أبي، وأحاول إيجاد ضفة أمان بين الاثنين، ضفة تشبهني أو حتى رجلاً يشبهني. هل هي شهوة ما ربطني بعشيقي أم حبّ، شهوة لإشباع شبق رفضت الإعتراف به سوى في المخيلة، ولمّا صار واقعاً، صرت أسيرته، العاجزة عن الارتواء من غيره.

وماذا كنت أنا بالنسبة إليه؟ طوق نجاة. حلم يخفّف وطأة الحقيقة. امرأة تجمع ما يريد ولكنه غير قادر على جعلها تتخطى حدود منطقة الأمان بالنسبة إليه، حدود مؤسّسته الزوجية وأرباحه السريعة. امرأة تتلقاه ولكن لا تستطيع أن تأخذه هو، أو تبادر إلى قطع المسافة الواقعية للعلاقة، لأنّها تخاف أن تقضي عليها. عندما نتبع الحب، نرى جماله وبريقه وننسى الظلال التي تظهر فيما بعد. تتحوّل عدم قدرتنا على احتواء الآخر في كينونته المطلقة إلى مأساة ندور في

فلكها كما يدور سجين في زنزانة ضيقة ولكن مفتوحة الباب، لأن أيّ أفق آخر مجهول، والمجهول مفتوح دوماً على احتمالات جديدة ومتغيّرة، نريد رفع مسؤولية تحمّل تبعاتها عن ذواتنا.

وكان ربيع في سباق دائم مع الزمن. داهمه شعور بأنّ عليه إنجاز جميع المهام بسرعة. باتت حياته ميكانيكية وأشبه بآلة تدور بلا توقّف. لم يستمتع بأي شيء لديه. كان يسعد جميع من حوله، زوجته هنادي البسيطة التي صارت تريد أن تتحوّل إلى سيدة مجتمع، وتطبّع ملامحها بمعالم زوجة رجل مهم. أخواه اللّذان تعاملا معه كورقة لوتو تدرّ عليهما أموالاً لا تنتهي. أصدقاؤه الذين يلجؤون إليه في وقت الشدة.

فقد ربيع الإحساس الحيّ بالأشياء. واعتاد أن يضاجع زوجته بسرعة، الزوجة التي لا تفهم الكثير عن أمور الجسد. ضاعت لذّته. وحين كان يحاول أن يمارس مع هنادي ما شاهده في الأفلام الإباحية التي تاجر بها في طفولته، من مداعبات وضعيات جنسيّة، كانت تفر منه وتطلب منه أن يكتفي بالممارسة العادية.

هنادي لم تر عضواً ذكرياً في حياتها غير عضو زوجها. لا بل أكثر، حين رأته للمرة الاولى، كادت أن تتقيأ. خافت وصارت تبكي. نجح ربيع في إقناعها بأن تدعه يلجها، ولكنه فشل في أن يثيرها. الشهوة في رأسها حرام، حتى في علاقتها مع زوجها. هنادي، ابنة الحيّ الفقير والعائلة المتواضعة والمتديّنة، والأب الصارم والأم المحافظة لم تفهم ماذا يعني أن يكون لها شهوة.

كان لها زوج يجب أن تنجب منه أولاداً وتعتني به، أي أن

تحضّر له الطعام، وتكوي ملابسه وتحافظ على لمعان أرضية المنزل. لم تهتم لأموره هو، واجباتها كانت إنجاز الشؤون المنزلية. لم يكن في ذهنها صورة رجل وامرأة، أو أنثى وذكر، بل زواج وواجبات وطعام وشراب ومصاريف.

وكلّما تحسّن وضع زوجها المادي، تفتّحت عيناها على الحياة. صارت تشتري الملابس التي تفوح منها رائحة القماش النظيف، بعدما كان جسدها يحتك بقميص الصوف الذي لبسته أعواماً طويلة، وتوارثته هي وإخوتها ليستقر على جلدها ويطعّمه بالبؤس. اختلفت روحها مع اختلاف الملابس. لم تعد تلك الفتاة القذرة الّتي انتهك الفقر ملامحها وحفر بأصابعه على وجنتيها. تحوّلت إلى امرأة. صارت تريد أن تشبه النساء اللواتي تشاهدهنّ في التلفزيون، ليس لكي تبدو مغرية او جميلة فحسب، بل لتشعر بأنها نظيفة وبأنّ لها قيمة، بأنّه يحقّ لها أن تأتي بـ«سيريلانكية» تخدمها.

صارت تقلّم أظافرها، وتذهب إلى صالون التجميل للتخلّص من الشعر الزائد في جسدها. أغرمت هنادي بنفسها وأحبّت المغطس الذي ملأته بالماء الساخن، وفقاعات الصابون، وأمضت فيه ساعات طويلة. أحبت الذهاب إلى السينما أيضاً. وفي كلّ مرة، كانت تخرج من الصالة وهي تبكي، حتى لو لم يكن الفيلم الذي شاهدته عاطفياً. وعندما كانت تسألها صديقاتها لماذا تبكي، كانت تقول أنّ مشهداً ما أثر فيها. ولكنّها كانت تكذب. كانت تبكي لأنّها كلما دخلت السينما، تذكرت البؤس الذي حرمها من أن تدخل ذاك المكان «الأنيق»، كما كانت تصفه مخيلتها. كانت تبكي لأنّها لم تأكل «الفوشار» وهي

طفلة، ولم تشاهد التلفزيون إلا نادراً، لأنها لم تملك يوماً دمية أو باربي تسرّح شعرها وتغيّر لها الفساتين. كانت تبكي وتفكّر، هل يعوّضنا حصول الأشياء متأخراً، وفي غير أوانها عن عدم حصولها بالمطلق؟

كانت هنادي تستعيد خيوط حياتها المتشابكة في الذاكرة المعتّقة. وتخاف أيضاً من أن تفقد الرفاهية التي اعتادتها. كان يجب للأشياء الجميلة أن تستمر. ولكنّ الأفلام التي شاهدتها كانت تنتهي. تناولت شراب الليمون، وأيقنت وهي تتلذّذ بالعصير كم صارت تحبّ اللّذة.

صارت تقضم المتعة ولحظات الفرح، وتلعب مع أولادها، وتشتري دفاتر التلوين لها ولهم. وبرغم أناقتها، بقيت طفلة صغيرة، ومراهقة في جسد امرأة. وبقي ربيع بالنسبة إليها صورة الحياة الزوجية. لم تكن تبحث عن الحبّ، كانت تسعى وراء الفرح، ولم يرتبط الفرح بالنسبة لها برجل. كانت سعادتها في أن تحوّل بيتها إلى منزل للدمى. والدمى لا تمارس شهوتها. بقيت شهوة هنادي مدفونة لا تبصر النور، وبقي ربيع يبحث عن امرأة.

تعرّف على شاليه «مدام نهلا» في شاطئ اسمه «الأزرق»، وصار يقصدها مرتين تقريباً في الأسبوع. دخل إلى هناك بحثاً عن إناث يشبهن بطلات الأفلام الإباحية، ولا يتمنّعن حين يطلب منهن ملامسة عضوه، أو ممارسة الجنس الفموي. رغبة حارقة بالاستمتاع بالجنس في عالمه السفلي، في رؤية سائل يخرج من عضوه على أجساد العاهرات. هنّ ملوثات مثله بالفقر القديم، والبحث عن الثراء. صار يحب المتعة السريعة والأجساد الرخيصة. هي مثله لا قيمة لها. ورغم

قرفه واشمئزازه منها، أدمنها لأنّها كانت تعكس ذاك الجزء الداكن فيه، الجزء المؤلم والمظلم الذي لا يعرفه الكثيرون من أصدقائه المنبهرين بثرائه الجديد.

وجدت فيه «مدام نهلا» زبوناً «لقطة» يغدق عليها بالأموال. وصارت تحجز له أحلى الفتيات. لم تعرف يوماً إن كان يحبّ الشقراوات أو السمراوات. وعندما كانت تسأله، كان يقول لها أن لا فرق. لم يكن ربيع يبحث عن التفاصيل، ولا يطيل التحديق في المرأة التي يضاجعها. قليل الكلام وكثير الأوامر. كان يهمّه أن يقذف بذاك السائل خارج جسده وليس أكثر. لم يبحث عن العواطف، وكان مقتنعاً بأن النسوة اللّواتي يضاجعهن لسن كزوجته الطفلة البريئة. يستحيل أن تكون زوجته عاهرة، فهي لا تعنيها الشهوة وتخاف إن رأت عضوه الذكري.

زوجته نسخة منقحة عن والدته. النساء اللّواتي يجامعهن في شاليه «مدام نهلا» وقحات ويحاولن إغواءه ليدفع أكثر. يلبسن ملابس فاضحة ويضعن أحمر الشفاه الفاقع، وتفوح منهن رائحة العطور المقلّدة. زوجته تضع عطوراً فرنسية. زوجته بريئة وهن عاهرات. وإذا ما شعر بالشفقة تجاه أي منهن يوماً، طرد ذاك الشعور على الفور، فهو يعرف أنّهن كنّ مثله، ملفوظات خارج الحياة. لذلك، احتقرهنّ ومارس عنجهيته عليهنّ. كأنّه ينتقم لفقره في ذواتهنّ، ويسرق المتعة وينتشي حين يرى ذاك السائل اللزج يلطخ أجسادهنّ.

وقفت دنيا في زاوية الغرفة وهي تستمع إلى أبيها يعنفنّي. أمسك طارق بيدها وحبس دمعة تمنّعت في أحداقه. أمسك سامي بشعري وجذبه لإلى الخلف. صار وجهي إلى الأعلى وانحنى جسدي إلى الوراء في وضعية مناسبة لتلقي الإهانة.

صرخت في وجهه «حرام عليك قدام الولاد. لك ريّحنا منك بقا. حل عني». ما إن أنهيت جملتي، حتى بدأ في لطمي وضربي وتعنيفي. وقع جسدي على الأرض، حتّى لم أعد أسمع سوى بكاء الأطفال وضجيجه في روحي. توقف سامي، ودخل ولداي إلى غرفة الجلوس مذعورين. أضاء جهاز التلفاز وطلب منهما الجلوس. لم يتجرآ على الحراك. وبقيت أنا على الأرض، هناك حيث أنتمي في انتظار المزيد من الضرب. لم أعد أتألّم جسدياً، وانتهت رغبتي في أن أثور. أردت أن أموت، وكنت أتمنى لو يقتلني وينهي عذاباتي. كلما لامست القعر، تضاءلت قيمتي وزالت إنسانيتي. تحوّلت إلى شيء يلطمه سامي، ويدوسه بقدميه. وراحت الأفكار تتضارب في رأسي: هل أنا نكرة إلى هذا الحد؟ لماذا خلقني الله؟ ماذا أفعل؟ لمن ألجأ؟ هل أنا مذنبة؟ ولكنّه لا يعرف أنّي أخونه. ثم إنّه كان يضربني قبل أن أخونه بكثير.

حاولت جاهدة الوقوف ولم أستطع. شيء ما جذبني إلى الأرض. لم يكن مجرد عجز جسدي. لم أشعر بيديّ، ولا قدميّ، ولا عينيّ، ولا حتى أنفي. لم يعد لي أصابع تتحرك، وعجزت عن التنفس. صرخت من أعماق أحشائي، ناعيةً كلّ ما سمعت من تديّن أهل الحي وثقافة والدي، الخسائر والأرباح، الأحلام التي لم أنجزها،

وذابت القشرة الرقيقة التي كنت أغلّف ذاتي بها. بلا حراك، على أرض العلوي، حيث لا شيء سوى السفالة والمرارة، كنت أفكّر كيف خلق الله الإنسان؟ وهل الإنسان حيوان مفترس على هذا الشكل؟ لا حيوانات مفترسة في الكتب التي لجأ لها أبي ولا في منزلنا الخاوي الذي حاول أن يمنع الآخر من دخوله.

لم أجرؤ على النظر في عيون ولديّ، وانتابني ندم شديد لأنّي جئت بهما إلى هذه الحياة. اقترب منّي سامي ومدّ لي يده كي أقف. نظرت إلى حدقتيه، وكانتا متّسعتين. تحوّل وجهه إلى كرة ثلجية تهمّ بالاندفاع صوبي، فلا أستطيع الهرب من بردها. امتدّت يدي صوبه من تلقاء نفسها. جميع الإشارات في داخلي كانت تومئ بألّا أمشي معه، ولكنّ جميع أعضائي تصرّفت كأنّها ملكه. أجلسني على حافة السرير، وبدأ بالاعتذار عن فعلته. استرسل في اختلاق الأعذار الّتي لم أكن أستمع إليها. كنت غائبة عن الوعي، أشبه بحيوانات السيرك المدرّبة والمروّضة. وبدل أن يأمروني بالقفز أو الركض، كان زوجي يأمرني بأن أفتح له ما بين فخذيّ، وأدعه يلجني. انتهكني سامي وشعرت بالاختناق وهو يمرّر أصابعه فوق نهدي. منذ أقل من ساعة، كان هذا الرجل يضربني، وها هو الآن يضاجعني. وفي كلا الحالتين، لم أعد أشعر سوى بالقرف والاشمئزاز.

خلت أنّي أصبحت في إحدى القرى المهجورة والمبتورة حيث النساء منحنيات القامة. وكأنّي أمشي في سرداب مظلم لا مخرج منه، دارت نفسي في متاهات لا أدركها. أنهى سامي مضاجعتي. ودخلت لكي أطمئن على الأولاد. ركضا إلى حضني، فربّت على

رأسيهما، وحاولت أن أبرر أنّ أباهما «كان معصب». طلبت منهما نسيان ما جرى الليلة ووعدتهما بأن كلّ شيء سيكون على ما يرام. دخل سامي ووقف على مسافة منهما. راقباه بذعر. حاولت أن أجتاز الحادثة الشنيعة، وإرسالهما إلى الفراش. تظاهرت بأنّي غفوت في فراش دنيا. وانتظرته كي ينام.

أتت صورة ربيع إلى مخيّلتي، وكأني أراه يغمر زوجته أو يلاعب أولاده، رسمت صورة للعائلة المثالية في رأسي لأزجهم فيها، هو وزوجته وأولاده. وكنت أرى نفسي هناك في تلك القرى حيث الرجال يضربن النساء، وحيث المرأة طير بلا جناحين. طردت الفكرة من رأسي لتعود للظهور من جديد. غفوت وصحوت على وقعها كأنّ رائحة الصور عالقة على جلدي ولحمي، وكأنّ أشلاء تلك القرى الوهمية ملتصقة بدمي. منفيّة أنا في منزلي. منفيّة أنا في وطنيّ الأصغر والأكبر. فما هي تلك العدالة التي أخبروني عنها؟ أهي عدالة تدمع؟ عدالة تبكي؟

بعدما فقدت اتصالي مع ذاتي، أي مع الخيال الّذي بدأ رفيقا في الطفولة، ليتّسع مع الوقت ويأخذ أشكالاً إيروسية حادّة، لم أعد أعرف من أنا. وصرت إن نظرت إلى الأمام، أعود بطريقة غير إرادية إلى الوراء، كأنّ المرء يعلق في اللّحظة القاتمة وتخور كل قواه، لأنه لا يؤمن بوجودها، لأنّ سامي أقنعني بجدوى ضربي، وربيع بقدري كعشيقة، فلا يعود الذلّ يثير في أعماقنا أحياناً حتى النقمة، بل إحساس بأنّنا الفائض، وبأنّنا لا نستحقّ الوجود. فهل أنا امرأة متحرّرة تعشق ربيع أو امرأة يستعبدها سامي؟ وهل حرّيتي أن أتسلل إلى شقة أو

شاليه بحري لأعبّر عن نفسي، عن حبّي، عن وجودي المشلول من الخوف، لساعات ليس أكثر.

في تلك اللحظة، انتابني شعورٌ بالشفقة على تلك الأنا، وراح الإحساس ينمو متعاظماً في داخلي. كنت قد طفت في الجدران، وأنا غارقة في تلك الأفكار. وكانت تلك الصلة مع ذاتي، والّتي أدركت جيّدا كم أصبحت مستحيلة، تحاول التمسّك بآخر اعتقاد أنّها ممكنة. وكانت المرأة الأخرى تقترب منّي بهدوء. عارية، مضيئة وجميلة. وأخذت تنزع عنّي ملابسي، وتتلمّس وجهي، وتبعد خصلات شعري عن وجهي. ثمّ قبّلتني بحنان على جبيني. أمسكت بيدي، ومرّرتها على جسدي، وأخبرتني أنّي أبدو جميلة. فقلت لها ليتني أنت. وقفت أمامي بشكل مباشر. طوّقتني بذراعيها، واتّخذت وضعية التصاق مباشر بي. دخلت تحت جلدي، حتى صار شعرنا واحد، دمنا واحد، وروحنا واحدة.

ذهبت في اليوم التالي إلى شقة ربيع. كانت آثار الضرب ظاهرة على جسدي، متوارية خلف القماش. كان هناك ينظر إليّ، وكنت خائفة. ارتجفت أصابعي واهتزّت أنفاسي، ونظرت إليه كهاربة لم تعد تدري أين تخبّئ نفسها. احتضنني بشدة، وبكيت على صدره كطفلة صغيرة. لم أبك فحسب. كنت أشهق، وبين الزفرة والأخرى، كانت تنطلق ألف صرخة من أعماقي.

تناول كأساً من الماء وقرّبه من شفتي. شربت وانتظرني حتّى أهدأ قليلاً. لم أقل شيئاً. بقيت صامتة، مذهولة. أشعرتني دموعي بالريبة. أبعد خصلات شعر تدلّت على جبيني، وأمسك بوجهي حتى

صار بين يديه، وراح يضغط عليه معبّراً عن غضبه. طلبت منه أن يتوقّف فرفض. سألته لماذا يشدّ على وجنتي بهذه القسوة، فقال إنّه يتألّم لرؤيتي هكذا، ويشعر بالعجز تجاهي.

كانت أصابعه تداهم وجنتيّ. راح يفرك ملامحي بيديه ويمرّر أصابعه على جبيني وعيني، ويتحسس أسفل جفني. قبّلت باطن يده وتسربلت أدمعي بين أنامله. رميت نفسي بين أحضانه كي أستقي شيئاً من حنانه. صرت أتلاشى شيئاً فشيئاً. أقسمت لنفسي أن أنام معه بنفس الشدة التي ضربني بها زوجي. أسندت رأسي إلى كتفه الأيسر، وسألته إن كان يحبّني. أجابني «طبعاً أحبك وهل تشكّين بذلك؟». سألته ماذا يعني أن نحبّ، ولماذا لا نستطيع أن نكون سوياً أنا وهو. قال لي «أنت متزوجة يا سحر. أتنسين ذلك؟». أردت أن أقول له وأنت متزوّج أيضاً ولكني لم أقل شيئاً. وانتبهت للمرة الأولى بأنّي لا أقول ما يخطر في بالي حتى لربيع، خوفا من ألّا يتفهمه. أغمضت عيني وآثرت ألّا أفكر بشيء غير تلك اللذة التي سأحصدها وأنتقم بها سراً من سامي وإهاناته ومن جفاء أمي. تلك اللّذة التي كانت كتصريح بأنّنا نحن النساء لنا شهوات أيضاً.

خلعت عني ملامح المرأة الكئيبة وارتديت جرأتي الّتي تعلّمتها من الجنس. أمسكت بيده ورحت أمرر أصابعي على ظهر كفّه. أزلت رباط شعري وتركته ينساب على كتفي. أراد ربيع أن يتكلّم. أومأت إليه أن يبقى صامتاً. بقي يراقب يدي. اقترب مني، وبلّلت شفتاه عنقي ثم انتقل لسانه إلى أسفل أذني. أغمضت عينيّ، وصرت أطلق تأوهات خفيفة. كلما سمع صوتي، قبّلني أكثر. انتقل إلى نهديّ، وراح يمرغ

رأسه فيهما كطفل صغير. غرست أظافري في ظهره، واحتضنته بقوة ورحت أقبّل أسفل بطنه، حتى صار عضوه في فمي. امتدت يده إلى عضوي أيضاً. كنت مبلّلة جداً. مدّدني على ظهري. تشابكنا الأيدي وولجني. كان في داخلي وكنت أتّحد به، تماماً كما حصل عندما توحّدت المرأة الظلّ بي. أردته أن يلتقط ذاك الهوى الفائض مني ويفهم أنّي أحتاجه بشدة.

وعندما بلغ رعشته، طلبت منه أن يبقى في داخلي. كانت عيناي تلتقطان تفاصيل الغرفة. الخزانة الخشبية في الزاوية، الطاولة البيضاوية الشكل قرب الكنبة. كان عليها بضع مجلات، وغطاء بنقشة قديمة تشبه الكنبة الكلاسيكية الّتي اختارها. لم يكن من لوحة في الجدار. كانت تلك المرّة الأولى التي ألاحظ فيها أنّ شقة ربيع خاوية إلّا من الأساسيات. وانتبهت إلى الألوان الترابية التي ملأت المكان.

قام ليحضر لي القهوة. جلست عارية أتأمل النافذة والستار الذي يغطيها. طويت رجلي اليسرى إلى الأعلى قليلاً، وأسندت ذقني إلى ركبتي، وفكرت كيف ستكون حياتي بعد خمس سنوات مثلاً. لم أكن أشعر بالأمان، فكان من الطبيعيّ جداً أن تعبر في ذهني تساؤلات كهذه. فكّرت ماذا لو حدث تغيير في وجودي. جلت في أيامي المتشابهة، والمظلمة، والبقع الزرقاء التي تنتهك جسدي. فكّرت في خيانتي لسامي ورغبتي بالتحرّر منه. داهمني ربيع من الخلف وقبّل رأسي. التفت إليه وابتعدت كي يجلس قربي. أحاط خاصرتي بيده وجذبني باتجاهه. نظرت إليه وقلت له «أترى تلك النافذة المغلقة والستارة التي يغطيها؟ سوف أفتحهما يوماً ما كي أدع نفسي تخرج

إلى الحياة». أمسك بشعري الطويل وقال «وتتركين هذا الشعر يتدلى حتى ظهرك؟». ضحكت وقبلت وجنتيه. كنت أقلّ توتراً بكثير من ساعة دخولي، وكنت مدركة أني سأخرج من شقته أكثر ثقة بنفسي.

كان ربيع المصدر الوحيد الذي أستمدّ منه شيئاً من القوّة، وكانت شقّته المكان الذي تتجلّى فيه نفسي. بعدما عرفته، صرت أنظر إلى المرآة وأتصالح مع جسدي. أتعلّم أن أحبّ ظلّي وروحي. بعد لقاءاتي معه، أصبح أكثر قدرة على تزويد ولديّ بالحب والعطف اللّذين يحتاجان إليهما. ازدادت قدرتي على احتمال الحياة حين عبر في خيالي وفقدت صبري كلّما تباعدت فترات لقاءاتنا.

خرجت من شقّته مفعمة بالمتعة ومزهوّة بالشعور بالامتلاء، ولكنّ الخوف من أن ينتهي ذلك الشعور كان يعكّر صفو مزاجي. وكان يخطر لي أن أحضر معي علبة لتخزين الهوى من شقة ربيع، كي أستعين بها عندما يغيب عنّي، وكنت أتمنّى لو أنّ الحبّ يصير سائلاً نملأ به القوارير ونرشه كالعطر اليوميّ على أجسادنا، أو نتجرّعه كالدواء لكي لا تستحوذ علينا الأمراض، والعقد النفسية، والحرمان العاطفي.

أرجعت شعري إلى الخلف، وتأكّدت أنّ ملابسي مرتبة ثم ركبت السيارة. رفعت صوت المذياع وفتحت النافذة لأتيح للهواء اقتحامي. شعرت بأنّي جميلة، أكثر شباباً وشفافية. باتت أنفاسي خفيفة ومتباعدة بعدما كان الضيق يضغط على حنجرتي. رفعت رأسي إلى الأعلى لأتأكّد إن كانت هناك أي آثار قبل على عنقي، فلم أجد أيّاً منها.

كنت سعيدة لأنّ والدة سامي ستدخل المستشفى لإجراء

فحوصات طبية. وكان مضطراً للبقاء معها. كان لديّ ما يكفي من الوقت لإشباع نزواتي والاستمتاع بالقليل من الحريّة. تذرّعت له بالأولاد كي لا أضطر إلى زيارتها، ورحت أحثّه على الاعتناء بها وعدم مفارقتها طوال النهار.

مررت بالفرن القريب لأشتري الحلوى للأولاد، واتصلت بهالة لكي توافيني إلى المنزل. دخلت بيتي واستمعت لموسيقى هادئة. جلست مع دنيا وطارق ورحت أرسم معهما على دفاتر التلوين. كنت أشعر براحة مطلقة لغياب سامي. زال توتري وكان الفرح يظهر حتى في خيالي، فأخاله ينظر إلي ويبتسم بمكر وبنيّة غير معلنة بأن يحفظ سرّي.

كان سامي دائم الالتصاق بي، وشديد الغيرة، رافضاً أن يترك لي أي معبر أكون فيه ذاتي. بدا لي كمدينتي التي تنغلق يوماً بعد يوم على أبوابها العتيقة وتطرد من ثنايا ذاكرتها الآخر، كي لا يعرف سكّانها أنّ في خارجها عالم مختلف، لأنّهم إن شاهدوه، قد يتوقّفون عن الطوفان حول المنصوري الكبير، ويصبحون أكثر تحرّراً او حتّى شيوعيين، تماماً كأبي.

وبدت لي طرابلس، يوماً بعد يوم، أشدّ تعلّقاً بهويتها الإسلامية، لتنهض في ربوعها الحركات المتشدّدة دينياً، وتغوص في أمواج الحلال والحرام، وتدافع عن الكيان المستجدّ عبر نبذ الآخر أو أسره. كنت كالمدينة تماماً، امرأة فيها الكثير من الكنوز المدفونة، والتي تكدّس الغبار على تربتها وأبنيتها وآثارها، وانتهكت الأوساخ أعلامها، كما أصاب جسدي القبح من جراء آثار الضرب.

كلانـا انشـغل بالوجـع والدمـار كي لا نـدرك أنّ كوّة من الضوء تتراءى خلف اللّحى وفسـاد الطامعين، والطبقة السياسـيّة الرأسـماليّة التي تستّرت على الحركات الأصولية، وحكمت بالفقر على البائسين من السكان.

ولمـا كنـت أنظـر إلى الجزء المهجور من أيّ تطور في المدينة، والـذي كان أقـرب إلـى جهـة عائلة والدتي، كنت أتخيّـل أنّ المباني الكبيرة تقنع الطرقات والأماكن بالضيق والسـكوت عن ذاك الضمور والإجحاف بحقّها، لأنّ غسـيلها الوسـخ لا ينشـر في الخارج، تماماً كمـا لا يجـوز أن أنشـر فضيحـة تعنيـف زوجي لي، لأنّـي قد أتحوّل ساعتها إلى داعرة تثير غضب السلطة الذكورية. والأرجح أنّ أحداً لم يكن ليساندني أو يتحمّل مسؤولية الدفاع عنّي، تماماً كأبناء المدينة إن حكوا عن أحلامهم الممنوعة، سيساقون الى دائرة الكفّار والخارجين عن زمرة رجال السياسة والدين، ولن يجدوا زعماء يسدّون جوعهم حين يشتدّ صفير المعدة الجماعية الخالية.

وبدت لي مسألة وجودي، والضيق العابر والهاجس الذي لطالما رافقنـي بيـن كيانـي وعدمـه، على علاقة بالمدينـة وغيابها عن خريطة الوطـن، أي عـدم الاعتـراف بفاعليّتهـا وقدرتهـا علـى أن تكون أكثر مـن مجرد صورة شـكلية بمضمـون ضئيل. وكان ذاك التعلق المريب بالتديّن الشكلي الظاهري والبعيد عن أي جوهر مسألة منهكة لا أجد لها إجابة محددة.

فهـل كان ذاك المـكان الـذي ولـدت فيـه فعلاً موجـوداً مقارنة بالعاصمـة، أو بمـدن أخـرى أكثـر تطـوراً، ولمـاذا رأيـت دومـاً وجه

المـوت فـي تلك الجماعـات الخارجة من المنصوري الكبير، ورأيت الشـتات حين مشـى المصلون كلٌّ في اتجاه؟ وهل كنت أحبّهم حين كانوا ذاك الممنوع عنّي، الذي أراقبه من نافذة منزل جدي، ثم كرهتهم لما صرت جزءاً منهم، من نسيجهم، أي من عائلة سامي وكيانه؟

هل كان يجب أن أشبه الآخر لكي أنتمي، أن أشبه أمي، زوجي، مدينتي، أبي، كتبه؟ هل كان يجب أن أكون جزءاً من صانعي القماش، المشـايخ، الأحزاب السياسـية، نسـاء القرية؟ هل كان يجب أن أكون جزءاً من كلّ، فلا أتوصل أن أكون يوماً الكيان الداخلي الذي هو أنا؟ وهل هي ضرورة قصوى أن نشـعر بذاك القبول من الآخر، ليسـتحقّ الأمر الثمن الباهظ الذي ندفعه؟ هل يجب أن نثبت أنّ خيارات الآخر غير صائبة، فنلجأ بذلك إلى زرع وهم اسمه الحقيقة أو العرف؟ وبأيّ حقّ نزعم أنّ المعرفة ثابتة إن كنّا لم نشاهد كل ما على هذه الأرض بعـد؟ وهـل هـو الخـوف من المجهـول والآخر المختلـف ما يجعل كلّ هـؤلاء الشـخوص يهرولـون للقيـام بالدعاية لديانتهم، وسـلعهم، وعقائدهم، وشـعوبهم، وجنسـهم، ومسـحوقهم لغسـيل الأواني؟ كل ما حولنا عرضة للتحول، ولكنّنا نعلق في ما ندّعي أنّه الحق المطلق خوفـاً مـن التغييـر، من المفاجآت فـي الحياة فنجهض ما نريد وما لا نريد في آن.

لا أعـرف إن كانـت خيانتـي تنـمّ عن العـدم أو الحبّ الحقيقي الكبيـر، وصـورة مثاليـة العلاقـة التـي غصـت بها. شـيء وحيد كنت أدركـه، أنّ قـوى خفيّـة بدأت بالحراك في داخلي، قوى خفية تدفعني نحو الكيان، بكل ما قد تحمله الطريق من مشـقة وأسـئلة وهواجس

وأوهام وأحلام وآلام وآمال.

لأكثر من عشر سنوات، كان سامي الجلاد الّذي جذبني إلى منطقته، فجرّدني من هويّة وهميّة لم أشعر مرّة بوجودها. أذكر كيف كان يزافقني حتى لشراء الملابس، ويبدي آراءه، ويحرجني عمداً أمام الباعة. كنت ألتزم بالصمت وأبتلع إهاناته أمام الغرباء وأمام أصدقائه، لأني عرفت أني إن تكلّمت أو أثرت غضبه، لن يمتنع عن ضربي أو تعنيفي علناً.

ولما صرت أعترض داخل المنزل، كان ينقلب من رجل يزعم أنّه يحبني إلى وحش ينتهكني. كنت دميته، كما كان يكرر، تلك الباربي التي يكسر يدها، ثم يلصقها من جديد. تلك الدمية التي يضعها في واجهة ويتلذّذ بالنظر إليها مكتوفة اليدين. الدمى تتلقى عبث الاطفال وسخطهم. يلهون بها متى شاؤوا ويلقونها جانباً متى أرادوا. كان يخربش على دفتر عمري، فيخترقني قلم الرصاص الشاحب ويلتهم بريقي ويضحك من انكساراتي.

الغريب أنّه بعد الضرب، كان يغرق في نهر من الدموع، كأنّه يتحوّل إلى طفل صغير مدلّل في غضون لحظات، ولد يسيل لعابه وتجحظ عيناه أمام واجهات المحال، وتخاله يريد أن يلتهم الدنيا بما فيها. كان يدفن رأسه في صدري ويجذبني من يديّ كي أحيطه بهما، ويقول لي أنت أمي التي لا أقوى على العيش من دون حنانها. كنت أنتقل من صورة دميته إلى أمّه، وأصبح فجأة عاهرة في نظره. والآن أشعر أنّي كنت أتأمّل انفعالاته وأصبح مثلها، وأنتقل إلى لعب الأدوار التي اختارها، فأمثّلها وأتقنها وإن على مضض. لا، لم أكن

أمثلّها فحسب. كنت أصيرها وتتلبّسني، فأشفق عليه أحيانا حقاً بحنان الأم، أو أصير دميته التي تستجيب لكلّ رغباته. هل قمت بخيانته لأثبت له أنّ بإمكاني أيضاً أن أكون عاهرة كما كان يتّهمني؟ صحوت من أفكاري المزعجة التي صارت تلاحقني في أروقة المنزل، كأنّها تنبعث من الأبواب الخشبية أو طلاء الحائط العاجي اللون، وسمعت طرقاً خفيفاً على الباب. دخلت هالة وصرخت بنبرة عالية:

– Hell! You are shining

غمزتني في إشارة منها أنّها تعرف جيداً أنّي قمت بفعل الحبّ مع ربيع. فتحت ذراعيها لي وعانقتها. أغدقت عليّ بالمديح، مثنية على جمالي. «الحبّ يصنع المعجزات، أليس كذلك؟»، سألتني وهي تجيب نفسها. ثم راحت تروي حبّها الأسطوري هي والمرحوم زياد. عاودت النظر إليّ لتقول «الحبّ يحملنا إلى أماكن تتدفق فيها ذواتنا. يلغي أنانيّتنا البهيمية. نتوقف عن أن نكون نحن ونصبح جزءاً من الآخر. يحوّلنا من ثور هائج الى حمل وديع. يطلق العنان لبدائيّتنا فنلامس فيه وجه الخالق. تتجدّد خلايانا ونحاول أقصى جهدنا كي نصبح أحلى وأفضل في أعين من نحبّ».

توقّفت عن الكلام، وتدحرجت دموعها من مقلتيها. مررت لسانها فوق شفتيها في محاولة لابتلاع السائل المالح الذي غزا وجهها. اقتربت منها بحنان واحتضنتها. كنت أعرف كم هي بحاجة إلى الحبّ وكيف نبضت كلّها به. ناولتها منديلاً ورقيّاً فمسحت عينيها قائلة «ناقصك إنت نكد». ثم عادت إلى لكنة التهكم:

Still baby, life is good.

بعدها، انفجرت ضاحكة كما لو أنّ وجنتيها تنتشيان بآخر قطرات دمع تجففها. عرفت أنّها تحمي حزنها بقدرتها على التهكّم والانفصال عن واقعها لتلعب دور المتفرّج عليه، وتشاهده من مسافة نائية، ساخرة من الأقدار، ومصمّمة على تسخيف الجراح كي لا تجعلها تنال منها.

كانت هالة في صراع مع ألمها، وأرادت التغلّب عليه بشدة، بعنادها المعهود وثباتها أمام مختلف التحدّيات. كان عليها أن تحارب بأسنانها وأظافرها ضدّ سوء الحظ كي لا تسحق في ميدان الحياة كما علّمتها التجارب. آلاف المصاعب والمكابد والتضحيات تكدّست تدريجياً فوق جسدها لتكسوها بقشرة من القسوة والبرودة.

كان عليها أن تعتني بنفسها كطفلة، وأن تكبت شعورها الأليم أنّها ألفت جحيماً بعيداً عن الصواب، وأنّ جزءاً من شفافيتها بقي حبيس الظل لأنّها كانت رجلاً وامرأة في جسد واحد.

وكان هاجسها الوحيد ألّا يفاجئها الفقد، تماماً كما حدث في علاقتها بأحمد، بعدما نقض ميثاقهما الغرامي، فداست على ذاتها مخلّفة وراءها بيئة الهوام والزهور. هربت هالة من جراح استبقتها لأنّها عرفت مدى رداءة الواقع، وقدرة البشر على التخليّ عمّا يحبون من أجل ما يتناسب مع مجتمعاتهم أو للتنصّل من المسؤولية، لأنّ الحبّ في حيواتنا مرتبط بذاتنا وليس بالآخر فعلياً. وقد كانت تعتقد أن لا أحد يكترث فعلاً لموضوع الحبّ، أي المحبوب، على قدر ما تطغى تلك الذات، لذلك تقوم العلاقات دوماً على حساب أحد الأطراف، فننسى دوماً أن العشق كائن حيّ يحتاج إلى الرعاية كمولود

صغير لكي يكتمل، وليس غاية بحدّ ذاته، إنّما هو البحر الذي نغرف منه ليتجدّد كلا الطرفين، وإلّا سقطت الخرافة التي ندّعي أنها ارتباط وندفن خيبتنا وراءها.

بعد وفاة زوجها، كانت ترفض فكرة إقامة أيّة علاقة جديدة، إلى أن وجدت نفسها تستغرق في المأساة، وباتت تشعر أنّ الحزن يمتصها ويجرّدها من قوّتها، ويعيقها عن الاهتمام بطفلها الذي لا ملجأ له غيرها. كانت بحاجة إلى وجود رجل في حياتها لكي تتدفّق أنوثتها من جديد وبالتالي تتدفّق أمومتها، وتتوقّف عن أن تكون مجرد عبء. ولكنّها صارت تقارن كلّ من يقترب منها بزوجها المرحوم.

الفرق بينه وبين غيره أحدث في روحها شرخاً عميقاً، حتى أنّها كانت تختلق الأعذار وتنكّل بالرجال من غير ذنب أو تخلق فيهم عيوباً كي لا تستغرق في حبّهم. فهذا يأكل كثيراً، وآخر يأكل قليلاً، وذاك كثير الحركة أو قليل الحركة، وناهيك عن تفاصيل غير مقنعة. لكنّها كانت تحبّ أن تشعر بجاذبيّتها، أن تغوي رجالاً كثر، كأنّها تبحث عن أن تكون مرغوبة، أكثر من موضع الرغبة نفسها. صارت تقيم علاقات عابرة وسرعان ما تنهيها. وكانت تقسم لي بأنّهم السبب، وبأنّ أحداً لم ينجح في القبض على روحها أو جعلها تستمر معه.

«لا أحد يستحق حبّي سوى ابني»، كانت تؤكّد لي. وأنا مدركة تماماً أنّ حبّها الكبير لزوجها الميّت هو ما يمنعها من الانغماس في أيّة علاقة جديدة، كما لو أنّ أيّ رجل يريد اختراقها، يجب أن يمرّ في معبر ضيق اسمه زياد ويغوص في دهاليزه كي يتعلّم كيفية التفوّق عليه.

«ودخيلك، بكرا الحبّ بيجي لوحدو، هيدا اذا كان موجود»، عادت لتستدرك. ثم طلبت مني أن أخبرها عن ربيع. صارحتها بمخاوفي من فقدانه التي باتت تظهر من حيث لا أدري. أريتها آثار الكدمات التي تسبّب لي بها سامي فاسترسلت في شتمه ونظرت إليّ بشفقة. عرفت أنّها تسأل نفسها ما الذي يجعل امرأة تحتمل كل هذا السوء، فقد كانت مقتنعة بضرورة أن أتصرف إزاء ضرب زوجي لي وإهاناته. وقد مدّني وجود هالة في حياتي بالقوّة، فقد رأيت عبرها نموذجاً مختلفاً عن النسوة اللواتي عشت معهن، وجعلني أرغب بأن أتسلّم زمام الأمور ولو لمرّة واحدة، وأبادر للقيام بخياراتي وفقاً لما أريد، وليس إرضاءً لأحد.

حدّقت إلى هالة، وسألتها إن كان ألمي سينتهي يوماً. نظرت إليّ مطوّلا، ثم طلبت منّي أن ألتفت إلى ابنها. أشارت إلى الصغير وقالت لي «هذا الطفل تنشق هواء المرض منذ لامست رئتاه الهواء. ينظر يومياً إلى أصدقائه يلتهمون الخبز والشوكولا، وهو مضطر أن يحقن نفسه بالأنسولين بين الحصص الدراسيّة. أنظري إلى ضحكته. ليس فقط الحرمان والإعاقة الجسدية، بل خطف الموت والده. ليس من رجل في حياته، ليس من أب يعلّمه القيادة ويلعب معه بمسدسات مائية، أو يصنع له طائرة من ورق. يتكوّر في سريره ليلاً، وما زال حتى الآن يناديني كي أنام قربه. وفي ساعات الليل الطويلة، أشعر به يتقلّب ويتعرّق، ثم يلتحفني كي أحميه. بعد وفاة أبيه، كنت بلا عمل، وأنت مدركة مدى اتكاليّة والدي وبطالته المزمنة. لم أكن أملك ثمن أدويته، ولقد تنصل منّي الجميع في لحظات وهني. مرّت ليالٍ طويلة

وأنا في عجزٍ تام. ولكنّي أفضل حالاً الآن برغم كلّ الآلام التي اختبرتها، وما زلت آمل بمستقبل أفضل لابني. قد لا ينتهي ألمك، وقد تتعرّضين إلى ظروف أسوأ من التي تمرين بها. هذا هو الواقع المؤسف والبائس الذي نحيا فيه. ولكن يا صديقتي، إن كنت عاجزة عن تغيير العالم، تغيّري أنت. تعلّمي أن تحبّي نفسك، وتخلّصي من الشعور بالذنب تجاه ذلك الوحش الذي تعيشين معه. أنت مسكونة بالخوف يا صغيرة. ألا ترين جسدك النحيل كيف يرتجف حين يكلّمك؟ أنت لا تخونينه هو يا سحر. أنت تخونين البؤس الذي تشعرين به. تتلصّصين على الحياة من كوّة ضيّقة وتطلقين ذاتك مع ربيع. تحلمين بالتغيير، بالحبّ. ألا تفعلين كلّ هذا كي تشعري بالحبّ ولو من أضيق أبوابه؟».

أصغيت إلى هالة، وتفرّجت عليها كيف ترتشف القهوة بلذّة. كانت تمرر لسانها فوق الفنجان، تطبق شفتيها على حافته وتزمّهما، ثم تبتسم. تخيّلت مدى الصعوبات التي عانتها في حياتها والتي أكسبتها نضجاً ينضح من جسدها الذي يصرخ تجارب بعدد الرجال الذين ضاجعتهم.

تجربة هالة مع الحزن بدأت منذ الصغر. منذ توفيّت والدتها وبقيت هي وإخوانها الثلاثة، مع أب عديم المسؤولية. نادراً ما كان يعمل، وكثيراً ما قضى أولاده حاجاتهم من مساعدات الأقارب الذين أشفقوا عليهم. رافق الفقر هالة قبل أن تفهم حتى معناه. الشيء الوحيد الذي أسعفها وإخوانها أنّ أباها امتلك شقة صغيرة في منطقة أبي سمراء. بذلك، كان هناك مأوى يحضنهم.

وكانت هالة أشبه بمستنقع ذاكرة جماعية تخفي فيها الأحداث المؤلمة والويلات التي عاشتها، كتعرّضها للضرب المبرح من قبل أخيها الذي تحوّل في مراهقته إلى الحركات الإسلاميّة. حدث ذلك في خريف من مطلع الثمانينيات، تماماً بعد وفاة والدته. دخل منزلهم جماعة سمّت نفسها جماعة التبليغ، وكانت هالة لم تبلغ عامها التاسع بعد.

في المنزل الذي ألقى عليه موت الأم ظلّه، دخلت مجموعة من الرجال، جعلوا من أسلوبهم الرقيق والحسن جواز مرور لتطويع الأخ الأكبر. تعاقبت الأيام وتوالت زيارة «الإخوة» إلى منزلهم، فيما كان الوالد غائباً حسيّا ومعنويّاً عن الوجود، فقد كان يمضي ساعات طويلة صامتاً ينظر من النافذة، مستمعاً إلى شريط قديم يكرّر أغنية لأم كلثوم، نافخاً في الهواء دخان سجائر «السيدرز» البخسة الثمن التي كان يدخّن علبتين منها يومياً، أو متسكّعاً في مقهى قريب مع أمثاله من العاطلين عن العمل.

وكانت تلك الجماعات الدينية تتبلور أكثر في الأحياء الشعبية، بعدما برزت أولى تحرّكاتها على الأرض في لبنان عام 1975، متخّذة من ذكرى المولد النبوي تاريخاً لبدء انطلاقتها في العمل الميداني بتظاهرة حاشدة جابت شوارع طرابلس وحملت عبارات إسلامية - جهادية.

خرجت حينها التظاهرة مسلّحة، وانطلقت من منطقة أبي سمراء تقودها القوى الإسلامية تحت راية «جند الله»، لتشكّل متنفساً للاحتقان الداخلي الإسلامي. في بداية ظهورها، مثّلت الجماعات

الحالة الطائفية للردّ على القوى اليمينية المتطرّفة، كحزب الكتائب، والأحرار، وحراس الأرز وسواهم، مستشرسين للدفاع عن القضية الفلسطينية، متحالفين أحياناً مع الأحزاب والقوى اليسارية، حتى دخول قوات الردع السوري إلى طرابلس.

وبحسب ما كان يتردّد في الأزقة، كان تواطؤ جانب بعض من المجموعات المهيمنة التي سهّلت دخول القوات السورية إلى المدينة، ما دفع حركة جند الله إلى الانسحاب من العمل إلى جانب تلك القوى، وإعلان حلّ التنظيم لعدم وجود الدافع الجوهريّ الشرعيّ الإسلاميّ لمواصلة الجهاد في سبيل الله.

وفي الفترة الممتدة بين الثمانينيات والتسعينيات، انحسر العمل العلنيّ للجماعات الإسلامية لحساب النظام الأمني السوري، الذي دبغت آثاره شوارع المدينة برمّتها مما مارس من ذلّ واضطهاد وتخويف.

استدرجت جماعة التبليغ شيئاً فشيئاً ابراهيم شقيق هالة، حيث كان الأب ضعيفا جداً، وغير قادر على السيطرة على ولده. وكانت الأخت الصغرى، المحكومة بشعور الأمومة المبكرة، تتفرج على التغيير الذي طرأ على أخيها بعدما كان منشغلاً في دراسته وسعيه شبه الدائم للتفوّق في صفه. هرمت هالة وهي طفلة تتفرّج على أب سارح يعاني الحسرات من غير عزاء، وأخ باحث عن صورة ذكورية صلبة وشديدة كالرجال الّذين زاروهم.

لطالما وقفت وراء الباب تراقبهم، وهم يفيضون بالدعة ويترحّمون على والدتها، مثيرين نقمة أخيها على والدهم الفاشل والبائس، والذي

ازداد بؤسه مضاضة وإيلاماً يوماً بعد يوم، كما لو أنّ الشقاء يتمطّى أمام المرء في خطوات دائمة السير متشابهة، تجري بالإنسان على غير ما يريد، وكلّما غاص بها، ازداد كرباً وهمّاً.

وبدا ابراهيم لأخته التي أحبّته كثيراً أقرب إلى المخدَّر يوماً بعد يوم، وحاولت مراراً التقرّب منه لسبر أعماقه ففشلت. حكم عليها الخوف والأسى أن تختبر كيف يجد الإنسان نفسه وسط مستنقع من الوجع، لأنّ التواصل بينه وبين الآخر شبه منقطع. وكانت تتفرج على أبيها وشقيقها، الأوّل متشرّباً الحسرة، والثاني متغذيّاً على الحقد حتّى تغيّرت ملامحه.

صار ابراهيم يعود إلى المنزل في منتصف الليل، ويخرج في الفجر، ويبيت في الخارج مرّات عدّة، وكانت تسمع من الجارات أنّه يتدرّب على القتال واستعمال السلاح. أبت أن تصدّق، لكنّ الأخ الأكبر صار يختفي لأيّام عدة. حاولت مرّة أن تقنع والدها بالبحث عنه، وإثر خروجهما، كان عليهما اجتياز حاجز لإحدى قوات الردع السوري. ضربوا والدها على مرأى منها من دون أيّ مبرر، وراح أحد الضباط يلطمه بكعب الكلاشنكوف على بطنه حتّى تهاوى. قام الوالد الذليل وعاد وابنته إلى المنزل، وشتم ابراهيم والوطن والحرب والردع والدولة. لازم بعدها كرسيه، الملقى قرب النافذة، لأسبوع كامل حتى عودة ولده. اكتفى بالنظر إليه بألم، ثم بصق في الآرض حتى ثار ابراهيم كثور هائج، وهجم ليضرب أباه. بكت هالة وصرخت وحاولت أن تشدّ طرف الجلباب الأبيض الذي ظهر فيه ابراهيم، فما كان منه إلّا أن ضربها هي الأخرى.

رحل بعدها ابراهيم، لم يروه ولا عرفوا عنه شيئاً. وكانت هالة تبحث عنه في أرجاء المنزل، فلا تجده. وقد بلغ منها اليأس مبلغه، لتجلس في غرفتها وتهز رأسها وتنظر بعينيها الملأى بالدمع إلى ما حولها، كأنّها تريد أن ترى ذلك الأثر الذي خلفه ابراهيم مكانه، تلك البقعة الدافئة المحببة التي جلس فيها ساعات طويلة معها قبل أن يقنعه الدعاة بهجر الحياة، وهجر أخته.

وكانت تخرج من خزانتها منديلاً محلاوياً كبيراً لابراهيم وتأخذه لمسح دموعها وتقبّله مرات عدة، ثم تضعه على قلبها الحزين. ومن محاجرها الجميلة، تحت حواجبها الدقيقة، كان يتساقط الدمع مرة أخرى. ولو أنّها نظرت إلى وجهها في تلك الأثناء، لأصابها الذهول لما أظهره الألم عليه من الشحوب، وما غادر خدها الأسيل من تورّد هشّ وبديع.

لم تعرف يوماً كيف اختفى ابراهيم وماذا حلّ به. سمعت أنّه أصبح من المجاهدين في سبيل الله، الّذين ينتظرون الفرصة المناسبة للانقضاض على الموت والشهادة. وبعد سنوات عدة على اختفائه، أخبرها أهل الحيّ أنّه ذهب إلى العراق للجهاد. فعلى حدّ قول المقرّبين منه، الرغبة في الموت في سبيل الله، في الموت بطلاً وليس فاشلاً كوالده، كادت أن تمزّق أوردته. بعد مرور كلّ تلك الفترة، بلغت هالة حدّ الحقد على شقيقها، ذاك الحقد المجبول بالعاطفة المكبوتة والحزن لأنّه تخلّى عنها ورحل من دون أن يسأل عن مصيرها.

وكانت ذاكرة هالة أشبه بالذاكرة الجماعية، التي تعاني الصدمات

ويشلّها الاضطراب اذا ما تعرّضت لعدوان ما من الخارج من دون سابق إنذار، كأنّ اكتشاف الواقع المؤلم نفى لديها وجود واقع آخر مبهج ومفعم بالأمل. كانت في حالة صدمة، تدفن في أعماق ذاكرتها الأحداث المدمّرة التي لا تستطيع تجاوزها، فتستبدل كلّ شيء بالهزل والاستهزاء.

كانت ذاكرة هالة كذاكرة المدينة، لها حوافز نيّرة وأخرى قاتمة، وحوافز تختفي وقتيّاً عن التاريخ لأنّ أحداً لا يريد استرجاعها. كلّما كان الحدث مؤلماً، دفنه المجتمع أو المرء عميقاً، حتّى يستطيع أن يطوّع شيئاً فشيئاً الفظائع التي مرّ بها. وقد تطلب الأمر فترة طويلة من الينوع قبل أن يصبح الإفصاح عن الآلام ممكناً لهالة، وقبل أن تتحوّل الويلات الّتي أصابتها إلى موضع تحليل، تماماً كما كان حالي.

وبعدما هدأت أحداث المدينة، وتوقّعت أن يعود ابراهيم، لم يفعل. توجّب عليها الكفاح الدائم، سداد نفقات تعليمها، والاعتناء بإخوتها، واحتمال ألم أبيها، وحماية نفسها من كلّ عديمي الرحمة في الخارج. لم يكترث أحد إن تمزّق رداؤها أو نامت جائعة، وربما حتّى إن ماتت في سريرها، وحيدة.

لما صارت في عامها الخامس عشر، بدأ نهداها يتكوّران وظهرت مؤخّرتها المرتفعة والمغرية. انكب عليها الرجال من كلّ صوب، حتى أنّ أحد الأساتذة في ثانوية الإصلاح التي كانت تدرس فيها بدأ يتقرّب منها. طلب منها مرة أن تبقى بعد أن ينتهي دوامها، ليساعدها في إنجاز فروضها ويشرح لها دروس الفيزياء التي كانت تواجه صعوبة في فهمها، فوافقت. ذهبت يومها إلى المنزل وهي تفكر

كم أنّ الاستاذ ياسر شهم وطيّب القلب. حضّرت طعاماً لإخوتها لليوم التالي، قليل من البطاطا مع الكمون والبصل. كانت البطاطا غذاءهم الأساسي. وكانت هالة تتفنّن في إعداد وصفات مختلفة، فمرة تحمّرها في الفرن، ومرة أخرى تغليها بالماء، وتدعكها بالحامض وزيت الزيتون، وإن كانت الأحوال مزهرة، أو أرسل لهم أحد الاقرباء الزيت النباتي، كانت تقلي البطاطا وتتلذّذ بأكل القطع الذهبية اللون بشهيّة كبيرة.

بقيت في الصف بعدما انطلق رنين جرس الانصراف وغادر جميع التلاميذ. فتحت كتاب الفيزياء وجهّزت مسودة وقلم حبر أزرق. دخل الأستاذ ياسر وقال لها مرحّباً «يا هلا، يا هلا». ضحكت هالة وأشارت بخجل إلى الصفحة المفتوحة من الكتاب، وأخبرته أنّها تجد صعوبة في المعادلات الحسابية المتداخلة في الفيزياء. ولكنّ الأستاذ ياسر بدا أكثر انشغالاً في التحضّر لقضم تفاحة نيوتن، وقرّب فمه من ثغر هالة وقبّلها بقوة. وقع القلم من يد هالة وهبّت واقفة.

أطبقت دفتي الكتاب وصفعته على خدّه الأيسر، فما كان منه إلّا أن ردّ لها الصفعة، ورمى بكتابها أرضاً، وحاول حشرها في الزاوية. في كلّ مرة روت فيها هالة القصة، كانت تضحك بطريقة هستيرية وهي تصف كيف رفسته على عضوه بعدما حاصرها قرب اللوح الأخضر. روت أنّ عينيه جحظتا وصرخ بها «يا شرموطة، يا بنت الكلاب، عاملة حالك شريفة وناتعة هيك طيز وصدر». بصقت هالة على وجهه وعادت إلى بيتها خائبة تفكر كم أن الأستاذ ياسر رجل معدوم الأخلاق وسافل.

كانت دموعها تتدحرج على حبّات البطاطا بالكمون، فتوقّف عن الأكل لتنفخ بأنفها في المحارم الورقية وتمسح عينيها في طريقة مزرية وبائسة. فتحت كتاب الفيزياء في المنزل، وبقيت تقرأ نفس الفقرة لأكثر من ساعتين، وهي تشعر أنّها تواجه أحجية لن تتمكن من فكّها أبداً. صار وجه الأستاذ ياسر يظهر لها في الكتاب، وكانت تشعر كما لو أنّ يديه ستمتدّان من بين الأحرف والمعادلات الفيزيائية ليلتقطا نهديها ومؤخّرتها الكبيرة، فتسترسل في بكاء محموم، وتسأل نفسها كيف ستدخل المدرسة بعد تلك الحادثة.

رسبت هالة في مادة الفيزياء. أعطاها الأستاذ ياسر علامة واحدة من أصل عشرين. صمّمت أن تشكوه إلى المدير وتخبره عمّا تعرضت إليه. قالت له أنّها تستحق أكثر من تلك العلامة، وأنّ الأستاذ حاول التحرّش بها، ولكنّها أبت الاستجابة إلى رغباته. فما كان من المدير إلّا أن نهرها، مشيداً بمسيرة الأستاذ ياسر التعليمية وسلوكه الأخلاقي الذي لا غبار عليه.

كان يصرخ في وجهها وهو يتأمّل تفاصيل جسدها، فشعرت كم يشبه أستاذ الفيزياء وكيف أنّ التعلّم في تلك الثانوية سيكون شاقاً ومرهقاً. تركت هالة المدرسة ودخلت إلى معهد لتعلّم المحاسبة، ولكنّها سئمت أيضا. ذكّرتها الأوراق بوجه أستاذها ومدير الثانوية، فاستحال عليها تحمّل الكرّاسات والأقلام. هجرت العلم إلى غير عودة، هي التي كانت تتوق إلى المعرفة، واكتفت بشهادة «البريفيه» التي حصلت عليها بدرجة جيد جداً.

وجدت عملا في محل «لامارا» في شارع عزمي في وسط

المدينة، المنطقة الأقرب إلى الحداثة، لبيع الألبسة الداخلية النسائية والعطور. وصارت تأخذ دروساً في اللغة الانجليزية في معهد قريب من مكان عملها في فترات بعد الظهر. أحبّت اللغة الإنجليزية، تماماً كما أحبّت قمصان النوم الساتان والملابس الداخلية المطرزة بقماش الدانتيل، والألوان الصارخة «للكيلوتات» و«السترينغات» التي تليق بمؤخرتها الكبيرة. كذلك، أحبّت هالة سندويشات «الهوت دوغ» التي تباع في كشك على ناصية الشارع.

أغرمت وهي في عامها السابع عشر بشاب يدعى أحمد. كان يدرس الإنجليزية هو الآخر، وصارت تواعده بشكل يوميّ، فقد كانت تملك هامشاً واسعاً من الحريّة مع أب شبه غائب، وشقيقين منصرفين لشؤونهما. كانت تخبره عن شؤونها الحياتية وتصف له زبائن المحل، وتتعمّد أن تصف له كيف يأتي الأزواج لاختيار الملابس الداخلية سوياً. حاولت أن توصل له رسالة مفادها بأنّها ترغب في أن تتزوّجه، وتسافر معه إلى بلد أجنبيّ لكي تتكلّم الإنجليزية، وتتناول معه «الهوت الدوغ» أو «البوظة». أخبرته عن الأستاذ ياسر، وعن ملاحقات الرجال الّتي لا تنتهي. وكانت حريصة دوماً على أن تشدّد على أهمية شرفها وحفاظها على عذريتها.

ظنّت أنّه لن يقدم على تقبيلها بعدما أبدت له امتعاضاً من الطامعين بمؤخرتها الكبيرة. ولكنّه فعل في صالة السينما، وهما يشاهدان فيلم «زورو» من بطولة كاترين زيتا جونز وانطونيو بنديراس. حتّى أنّه تمادى ومدّ يده من تحت قميصها الذي تعمّدت أن تترك اثنين من أزراره مفتوحين، وأخذ يلامس حلمتي نهديها ويشد عليهما

بأصابعه. وجدت نفسها مستسلمة كلياً لقبلاته. كانت شفاهها تذوب وتنغمس في فمه، فتحرّك لسانها في حركة دائرية ومتناسقة مع حركة لسانه، لتشعر بلذّة تفوق لذة السندويشات التي كانت تلتهمها بنهم. وعندما تمادى، وامتدت يده إلى سروالها الداخلي، انطلقت منها صرخة داخل قاعة السينما المغلقة، فأبعدها بسرعة.

لم تكن تريده أن يقترب من المنطقة المقدّسة، فحاول أن يجعلها تلمس عضوه. فعلت على مضض. لم تكن تشعر بالراحة ولكنها سرعان ما اعتادت أن تداعبه، وتعلّمت أن تجعله يبلغ رعشته بفمها. كانا يمارسان نزقهما في غرفة تبديل الملابس في المحل الذي تعمل فيه عند غياب صاحبه. لم تكن تسمح له أبداً أن يلمس ما بين فخذيها، فقد كانت مصممة أن تبقى عذراء. ولكنها لم تمانع بأن تقبّل جسده كاملاً، وتساعده حتى يطلق ذاك السائل من عضوه. وكانت تقوم بكلّ ذلك بحبّ ورضى. تحلم بأنهما سيتزوجان يوماً ما ويهرب بها إلى بلاد يتكلّم سكانها الإنجليزية، وتتناول ما يحلو لها من شطائر الهمبرغر والهوت دوغ.

فجأة، توقف عن الاتصال بها. صعقت عندما بلغها أنّه خطب فتاة أخرى محجبة ومتديّنة. صارت تهاتفه يومياً، وهو لا يجيب إلى أن أتاها صوت فتاة أخرى تطلب منها ألّا تعاود الاتصال بهذا الرقم لأنّه لخطيبها، وهي تكره أن تتّصل به الفتيات. صرخت بها هالة عبر الهاتف «يا قحبة إنت وهو»، فما كان من خطيبة أحمد إلّا أن أنهت المكالمة، وتركت هالة تندب مع سماعة الهاتف والخط المقطوع، ليرتد إليها صوتها وغضبها الناري.

توقف أحمد عن حضور دروس اللّغة الإنجليزية، واختفى تماما من حياتها. عرفت فيما بعد أنّه سافر مع تلك الفتاة المحجبة إلى قطر للعمل في شركة إعلانات. تحسّرت على مستقبلها المبهم، وكرهت اللّغة الإنجليزية والمحل الذي تعمل فيه، ويذكّرها بالشاب الذي كانت تبلغه رعشته باسم الحبّ، فهجرها لسواها.

صارت تمشي مكسورة الخاطر ومطأطأة الرأس في الزقاق الضيّق المؤدي إلى منزلها، وعزمت على إيجاد عمل مختلف. أقسمت بألّا تفسح الفرصة لأيّ رجل بأن يجرحها وصمّمت أن تدوس على قلبها وتلقيه للقطط والكلاب وتتركهم يقتاتون من تلك العواطف البالية.

كانت كلما رأت حيوانات مجتمعة، تراءى لها أن قلبها في وسطهم، وأنّهم يتسابقون لنهشه، فنظرت متحسرة إلى حبّها الكبير، وهو يتحوّل إلى فتات لأولئك الثدييات. وللحظات، كانت تهمّ في التقاطه، وكان يخطر لها أن تلقي بنفسها بينهم وتبعدهم عنها وتنهال عليهم بالضرب، وتصرخ أعيدوا لي قلبي. أعيدوا لي أمّي وابراهيم وأحمد. ولكنّها كانت تستدرك مجدداً الكم الهائل من العذابات الذي تسبّب لها به ذاك الآخر، والعضو الذي ينبض، كما كان يحلو لها أن تسميه في لحظات غضبها، فتستعيد رباطة جأشها، وترمق تلك الحيوانات بنظرة متعالية وتمضي في حال سبيلها.

تخلّت هالة عن حلمها بأن تعيش في بلد أجنبي، وتدرّس اللّغة الإنجليزية، أو أن تصبح مضيفة طيران تنتقل كنحلة من بلد إلى آخر. كانت أشبه بفراشة قطعوا لها جناحيها، وحكموا عليها بأن تبقى عالقة بين براثن الفقر البشع الذي لطالما انتهك رغباتها، وراكم

خيباتها الواحدة تلو الأخرى.

تكدّست أحلامها ولم يبقَ منها سوى الوهم والخيال، والرغبة في تخطي الواقع المؤلم الذي لم ينصفها حبّها للحياة في الانتصار عليه. هجرها أحمد، وتركها مع كرامتها المبتورة التي كافحت للحفاظ عليها. وما لبث أن ظهر شبح زياد أمامها. لم يكن زياد يتقن اللغة الإنجليزية ولا يحسن فن تذوّق «الهوت دوغ». ولكنّه كان شديد الطيبة والرقة. لم يكن ميسور الحال، ولكنه كان يملك شقة متواضعة في شارع المئتين، وورشة «ميكانيك» لإصلاح السيارات والتجارة بها أحياناً.

كان الفقر يلتهم ملامحها، وكادت معدتها أن تنفجر وتهترئ من تناول «البطاطا». ضاق بها الوجود وسئمت النظر إلى أبيها الذي لم يقدم لها شيئاً سوى بطالته وسخطه على المجتمع الشحيح الذي سلبه زوجته. كانت كرامته أكبر من أن يتذلل للحصول على عمل، وبقيت البورجوازية حلمه المسلوب الذي خانه لحظة تخلّى عن تذكرة السفر إلى أوروبا والحصول على جنسية أجنبية، ولو كلّفه الأمر الزواج من إحدى الفتيات هناك.

أقام والد هالة علاقة جسدية مع والدتها قبل الزواج، فاضطرّ أن يرتبط بها في سنّ مبتكرة، لأنّها حملت منه. ما زال يذكر تلك النظرة على وجه امرأته لحظة أخبرته عن حملها. شعر أنها غدرت به، ولولا خوفه من الفضيحة والحرام، لكان طلب منها إجهاض الطفل من دون تردّد. ولكنّه لم يستطع ذلك. كان سيخسر دعوات أمّه بالتوفيق. هذا وقد راحت الكوابيس تلاحقه في نومه. صورة الطائرة والطفل المعلّق

على جناحها جعلته يبقى في وطنه. كرّت سبحة الأطفال بعدها، ثم تركته الزوجة وحيداً مع أربعة أطفال وحلم مبتور. أقسم ألّا يتزوج بعدها، ليس وفاءً لزوجته المرحومة، سخطاً على الموت وحقداً على الوطن والمدينة التي تغتال الأحلام.

لم يكن الموت أو الفقد دخيلاً على حياة هالة. لقد عرفته قبل وفاة زوجها، فهي تنشقته في طفولتها، كما تتنشق الآن هواء وحدتها وخساراتها المتتالية. تزوّجت من زياد، وأقنعت نفسها أن الحبّ يأتي بعد الزواج، وأن ذاك الرجل، حتى لو لم يكن يتقن اللّغة الأجنبية، سيريحها من الطامعين بجسدها الغضّ.

أحبّته بعمق بعد ارتباطها به. شعرت بعذوبة أن يتولى أحد أمرها ويكون مسؤولاً عن شؤونها الصغيرة. كانت تزور والدها بفخر وهي تتأبّط ذراع زياد، وتتعمّد الاستغراق في الحديث عن مدى طيبة زوجها، كأنّها تنتقم من القسوة الّتي غلّف بها أباها حياتها.

كانت تلك طريقتها بأن تقول له أنّه لم يجد الاعتناء بها ولم يكترث لأمورها يوماً. وكانت تحلم دوماً بأن تلتقي بأحمد وترمقه بنظرة استكبار، وتصفعه كي تشفى من الأذى الذي سبّبه لها، أو تخبر شقيقها ابراهيم بأنّ رجلاً أفضل منه قرر الاعتناء بها.

كانت تأمل ألّا يكون أحمد سعيداً، وتصلّي لربّها أن تكون زوجته دمثة الأخلاق وبشعة وكئيبة. لحظة هجرها، بقيت تفكّر كيف قابل عطاءاتها بتلك الطريقة. لم تكن لديه الجرأة كي يقول لها أنّه لا يريدها. بقي الشعور بالرفض ينتهكها ليلة تلو الأخرى. كانت تشعر بوخز في جميع أنحاء جسدها وتستيقظ خائفة في منتصف الليل،

لتستغرق في بكاء مرّ. وكانت تطوّق وسادة السرير وتدفن وجهها فيها، حتى تغفو من شدة الألم، وتستيقظ فترى بقع «الكحل» الأسود الممزوج بالدموع على شراشفها البيض.

وحده زواجها من زياد الذي أنقذها من براثن اليأس المغروسة في ظهرها كسكّين يقطع شرايينها. كان زوجها يأخذها الى السينما ويشتري لها الكثير من الهدايا والعطور ويأخذها الى الكورنيش للمشي كلّ مساء. أغرقها بالحبّ والاهتمام، حتى أنّه كان يساعدها في الأعمال المنزلية، وبقي يشجعها لإكمال دروس الإنجليزية بعد أن حملت بابنها. علّمها قيادة السيارات، ووعدها بأن يأخذها في رحلة إلى أوروبا بعد أن يكبر الصغير قليلاً. ولكن زياد لم يستطع البقاء على عهده. سرقه منها الموت الأحمق مرةً أخرى، وتركها وحيدة مع ابنها ومرضه وشعورها بالعجز عن إكمال دربها في الحياة.

ولكي تستمرّ هالة في الدرب الشاقّ الذي وجدت نفسها فيه، كان عليها أن تفصل ذاتها عن واقعها، وتُحوّل المأساة إلى مصدر سخرية. شبّهت الحياة بمهزلة كبيرة لا نستطيع التحكم بها، لذا جلّ ما يمكن أن نفعله هو البحث عن القليل من الفرح، لكي نخدّر أنفسنا من الفظاعة التي آل إليها هذا العالم. قرّرت أن تحيا بأقلّ ما يمكن. لا، لم يكن قراراً، كان قدرها أن تحيا وتعتني بنفسها وبابنها.

بعد أن أصبحت أرملة، تقاطر الرجال إليها من كلّ صوب، ولكنّها كانت قد أقسمت ألّا تقع في ذاك الفخ الذي يدعى الحبّ مرّة أخرى. كانت تشعر بأنّ جميع الذين يقتربون منها يرسمون مخطّطات مسبقة لمضاجعتها. وكانت قد حفظت الأسطوانة المعهودة

التي يردّدونها «إنّهم لا يريدون مطارحتها الغرام». مجرّد قولهم ذلك كان يعني لها رغبة غير معلنة في استدراجها إلى السرير.

«لماذا لا يقولون لي إنهم يشتهون وصالي؟ ستكون الأمور أكثر وضوحاً. ولكنهم يصرّون على التظاهر بأنّهم مهتمّون بإنجليزيتي وشخصيتي المناضلة والدؤوبة»، كانت تقول وهي تسخر من مدى تفاهة البشر.

كانت تشبّه الرجال بأعضاء تقف في طابور طويل في انتظار الحصول على مضاجعة مجانيّة، ولكنّها كانت تنام معهم ثم تهجرهم هي. «إنّني أخونهم قبل أن يخونوني، وأهجرهم قبل أن يتخلّوا عنّي»، كانت تردد وهي تنفخ سيجارتها في الهواء وتلاحق الضباب المنبثق منها بعينيها، كأنّها تحدّق إلى روحها تتبخّر بعد كلّ عدد جديد من العشّاق المضافين إلى لائحتها.

أكملت هالة دروس الإنجليزية بعد وفاة زياد، والتحقت بعملها في شركة التأمين. استطاعت أن تؤمّن مردوداً ماديّاً متواضعاً يقيها التذلّل لأقرباء زوجها كي يعينوها في مصاريف علاج ابنها. راحت تقرأ الكثير من الروايات والكتب باللغة الإنجليزية وكوّنت ثقافة واسعة أضافتها إلى خبرتها في الحياة التي كانت تصفها أنّها من «لحم ودم». أدخلتها القصص التي قرأتها إلى عوالم مختلفة، حضارات كان من الممكن أن تزورها لو أنّها تمسّكت بحلمها بأن تكون مضيفة طيران. كنت أشعر أحياناً أنّها تحاول اختبار الحياة من خلال علاقاتها المتعدّدة، كأنّ جراحها والندب التي تحملها أوسمة شرف تعلّقها على مؤخّرتها الكبيرة بفخر، برغم الكم الهائل من الألم.

اختبرت هالة أقصى حدود بهيمية الإنسان. وأحياناً كثيرة، فعلت ذلك بإرادتها كاختبار للحياة، أو رغبة في اختراق ذاك المجهول الممنوع الذي بدوت أقرب إليه في استيهاماتي. الرجال الذين عرفتهم في خيالي تجرّأت هي على معاشرتهم في الواقع. جسّدت إرادة الحياة والثمن الذي تكلّفه الرغبة. ولكنّها كانت مثابرة وقويّة. وكنت أراقبها وهي تجمع المال لتلهث وراء أنقاض حلم، وتؤسس معهداً صغيراً في منزلها لتدريس اللّغة الإنجليزية.

-23-

«ماذا يعني خيانة يا ماما؟»، سألتني دنيا وأنا منهمكة في تنظيف الصحون والأكواب. رفعت حاجبيّ ونظرت إلى وجهها المفعم بالبراءة والسلام. سألتها من علّمك هذه العبارة فقالت إنّها سمعتها في التلفاز. أزاح جوابها ثقل شعوري الجاثم على صدري، ومن فرط ارتباكي، صرخت بها ألّا تردّد هذه الكلمة أبداً. أصرّت ابنتي أن أفسّر لها العبارة، فإذا بيدي تمتدّ إلى وجهها بصفعة قويّة. تخدّرت أصابعي على وجنة ابنتي، وشعرت للحظات بأنّي أكرهها وأكره نفسي. مجرّد سؤالها عن معنى الخيانة أشعرني أنّ ثوبي انزلق عن جسدي وأنّي بت عارية في المطبخ، وأنّ أباها سيأتي بعد قليل ليضاجعني على مرأى منها.

ركضت دنيا إلى غرفتها وهي تشهق وتتصارع مع دموعها. سحبت كرسياً وجلست عليها. لم أعد قادرة على الوقوف. رحت أفكّر كم أصبحت قاسية، تماماً كالقابلات القانونيات والنساء اللّواتي

يغسلن الموتى ويتحضّرن لدفنهم. تحوّلت الأطباق التي غسلتها إلى جثث متكدسة بعضها فوق بعض، وانزلقت يدي على غفلة مني إلى أحدها فكسرته. تكسّر الزجاج وبقيت دنيا تبكي. بحركة تلقائية، كما لو أنّي امرأة أخرى، قاسية وبليدة، رحت ألملم شظايا الطبق المكسور.

لم أنتبه أنّي أصبحت بائسة إلى هذه الدرجة إلّا عندما دخلت قطعة من ذاك الزجاج في يدي ورأيت الدم على الأرض. قطرة وراء قطرة، وقفت أتفرّج على النقاط الحمر التي سالت من كفّي، وأنا مندهشة لمدى تناسقها. تذكرت مشهداً من فيلم شاهدته قبل يومين. كانت البطلة قد داست بسيارتها ولداً يركب دراجة، ولم تتوقف للاطمئنان عليه حتّى. لو كنت مكانها، لتركت شعباً بأكمله ينسحق تحت إطار السيارة، كما لو أنّي تحوّلت إلى ماري انطوانيت، وصرت متعاطفة مع كلّ الطغاة والحاقدين.

زال ذاك الجزء الطيّب منّي، ذاك الجزء الذي كان يجعلني أشعّ وأضحك كالأطفال. ولم يعد يسع قلبي كلّ ذاك الألم. غطيت وجهي بكفي. كان الدم يخالط الدمع الذي انزلق من عينيّ، وكنت أرغب بأن أمحو نفسي كلياً. استجمعت قواي ودخلت إلى غرفة ابنتي، وقلت لها «أحيانا يا دنيا، نخاف من أن نجهر بمشاعرنا الدفينة لأشخاص قريبين منا كي لا نتسبّب لهم بالأذى، أو لأنفسنا أيضاً، فنضطرّ أن نتظاهر بما لسنا عليه كي نثير إعجابهم. والخيانة هي ألّا نقول الحقيقة ونكذب على محيطنا فلا نجهر بما نشعر خوفاً من ردّ فعل الآخر».

- ولماذا لا نقول الحقيقة يا ماما؟

- لأنها مكلّفة.

- أنا لا أريد أن أخون أبداً.

- لن تفعلي يا دنيا. قولي دوماً ما تشعرين به.

ضحكت دنيا. ضممتها إلى صدري وقبّلتها. كان ولداي الشيء الوحيد الحقيقي في حياتي. هما الحبّ، كلّ الحبّ الذي يرفع عني الظلم والكراهية ويعينني على احتمال الكمّ الهائل من الانفعالات في داخلي. أمّا وقد شعرت أنّني أتحوّل إلى نسخة من أمّي في تعاملي مع الصغيرة، حاولت بكافّة الطرق التكفير عن ذنبي وجعلها تشعر بأنّي موجودة لمساندتها والاستماع إليها. عادت بي الذاكرة إلى منزلي والجوّ الكئيب الذي كان يسوده. سفر أبي الى الكويت بعد انهيار أحلامه عن الثورة، ذاك الرومنسي العقيم الذي يخيط الأحلام، ويحبك المأساة، ويهوى لعب دور البطولة. أمضى ساعات طويلة يخبر عن ذكرياته الثورية، وكيف شارك في الحرب ضدّ اسرائيل. كان يغمض عينيه ويحكي عن رفيقه يوسف الذي حمل دمه على كفّيه عندما اخترقته رصاصات العدو. استرسل أبي في أحلامه عن النهضة والثورة، فيما أمّي غارقة في حزن عميق. حاولت للحظات الدخول إلى عالم زوجها وترحّمت على زمن كانت فيه القضيّة حقيقيّة، بعيداً عن الأجواء الحاليّة التي انقلبت إلى لعبة تبادل مصالح.

«ما رايحة إلّا عهالشعب المعترّ»، كانت تردد، فيرمقها بنظرات ازدراء كأنّه يطلب منها أن تبقى بعيدة عن المسائل الوطنية، وتنصرف إلى شؤون المطبخ والروائح التي تثير أعصابه عند دخوله إلى المنزل، ليجده عابقاً بها.

لم يكن والدي شديد الحنان، خاصة مع والدتي، وكان يتعمّد

أن يترك لها الجوارب المتّسخة في الردهة فنستيقظ على صراخها وصوتها المندّد بذاك البورجوازي الحقير. «لك مين مفكر حالو، ابن الشرموطة»، كانت تصرخ بجنون.

استغلّت فرصة غيابه عن المنزل لكي تلفظ جميع تلك العبارات النابية وتندّد بسلالته من أجداده حتّى أحفاده القادمين. ولكن، في أعماق نفسها، كانت تعشقه، تتمنّى أن يقترب منها ويوقظ شهواتها المكبوتة. كانت تحلم بأن يكون اسمها أنّا كوريسكيفا أو أولغا، وبأن تكون رشيقة كالروسيّات اللواتي ملأن كاباريهات بيروت وانصببن إلى قلب العاصمة من كلّ صوب في محاولات منهنّ لسلب فتيات الوطن رجالهنّ.

ولكنّ أمّي كانت موقنة أنّ والدي يخفي ديكاً خلف ليبراليته. ديك تعرفه جيداً، يقف في أعلى القن ويومئ لدجاجاته بأن يقتربن منه. كانت تشبّهه بديك لا يهوى سوى الصياح. وكانت تتساءل ما تراه يفعل بعضوه وكيف يفرغ طاقته الجنسية، هو الذي انقطع عن وصالها منذ زمن.

كادت ملامح أصابعه التي لامست جسدها يوماً أشبه بخيالات تنتفض في سريرها ليلاً، فتمرّ ليال طويلة وهي لا تنام. أمّي التي أنكرت أنوثتها وتخلّت عن أحلام الفراش تجتاحها حاجتها إلى جسد رجل حين تلقي العتمة بظلالها على هذا الكون. أصبحت أشبه ببئر عميقة تتفجر فيها الرغبة. جميع مساحيق التجميل التي لم يلاحظها على بشرتها، أحمر الشفاه الذي كانت تتعمّد أن يكون لونه فاقعاً وبارزاً، العطور الّتي كانت ترشها على جسدها وملابسها، البخور،

شعرها الّذي لوّنته أحمر وأصفر وأسود. كل ذلك لم يكن يعنيه. والآن وقد باتت الأنوثة بالنسبة إليها حلماً بعيد المنال، أكاد أقسم أنّها نادمة لأنّها لم تقم بخيانته وتستجب لنزوات رجال كثر حاولوا التقرّب منها، وأثنوا مراراً على جمالها الفريد.

-24-

في طفولتي، كنت أحبّ أن أجلس في حضن أبي، فيحتويني ويحيطني بذارعيه. وكان يفاجئني أحياناً بمقدار هائل من الحنان، تتكسّر فيه جميع صور الخشونة واليباس التي كانت والدتي تحكم عليه بها. ولكنّي كنت أسأم وأتسلل من بين قدميه هاربة وضاحكة.

أحلى الذكريات الّتي أحفظها هي صورته وهو يحملني ويصحبني كي يشتري لي السكاكر. كيف وجدت تلك الهوّة بيني وبينه الآن؟ لماذا انفصلت عنه ولم أعد ابنته هو فقط؟ كيف فقدت أبي كصورة الرجل الرئيسي في حياتي واستبدلتها بسامي؟

عندما سافر إلى الكويت لكي يعمل، شعرت بالانسلاخ عن المكان الذي لم أكن أنتمي إليه، ولكنّي كنت ألقى انتمائي الذكوريّ لدى والدي، وإن كان انتماءً غائباً عن وعيي الوجوديّ، ومزروعاً في كياني الداخلي الخاص الذي رفضت الاعتراف به لذاتي.

أذكر أنّي كنت أمضي ساعات كثيرة في المدرسة أبكي شوقاً إلى والدي، فتضطرّ المدرّسة أن تتصل بأمّي كي تأتي وتصطحبني إلى المنزل. كانت والدتي تأتي، غاضبة كعادتها، ودائمة العبوس، تسحبني من يدي وتزجّني في سيّارة الأجرة وتأمرني بأن أتوقف عن البكاء.

وكانت تسحب علبة السجائر من حقيبتها وتنفخ الدخان في الهواء متوتّرة وغاضبة. هل كانت أمّي تشتاقه وتتوق أن تبكي مثلي؟ هل كانت أنوثة أمي هي التي تبكي؟ ولكنها فضّلت أن تكبحها وتقضي عليها، فهي امرأة حكيمة وتعرف أنّ وجوده في الكويت هو ما يتيح لنا أن نحظى بحياة كريمة، خصوصاً أن غيابه كان كوجوده، لا بل يكاد يكون أخفّ ألماً. فهي عرفت أنّه بعيد، ذاك الغائب الحاضر.

بقيت أمّي أسيرة ذاكرة جريحة ترسّخت فيها صورة انطفاء شهوة زوجها تجاهها، شهوة اختفت من عينيه كنار كاذبة، ولم تعد تؤجّج حياته بالسعادة ولو لوهلة، بل خلّفتها قاحلة، وجافة، ومحصّنة ضدّ أيّ نوع من الحماسة أو الحبّ.

ذهبت يومها مع أمّي إلى منزل أختها، وتركتني حتّى تجفّ دموعي من تلقاء نفسي. كانت منفصلة عنّي. أمضت ساعات جالسة في المطبخ مع خالتي، بينما الأخيرة تتفنّن في الطهو وتتباهى «بنَفَسِها في الطبيخ»، وبقيت محتجزة بين شوقي لأبي وشعوري بالإهمال من والدتي.

رحت أتأمّل الفاكهة الموزّعة بعناية في قدر كبير وعناقيد العنب المتدليّة من أطرافه. أتململ في مكاني، وأتعمّد أن أثير انتباه والدتي، فأفشل كعادتي. أتت خالتي بطبق طعام ساخن تناولته من دون أيّة لذة. ثم عدت للبكاء ثانية. اعترت أمّي موجة من الغضب. أربكها بكائي، وأقسمت ألّا تصحبني معها مرّة أخرى. جرّتني من يدي في اتجاه الباب غير آبهة إن كنت قد أنهيت طعامي أو لا. احتفظت برباطة جأشها أمام السائق ورمقتني بنظرات قاسية فهمت منها أنّ حسابي

سيكون عسيراً حين نصل إلى المنزل. جلست في غرفتي وحيدة، أتأمل صورة والدي، وأتمنّى لو ذهبت معه إلى الكويت، ولكنّي كنت أعرف كم هو بعيد. حرّكت أصابعي حول إطار الصورة بشكل دائري، وتلمّست وجه والدي مسترجعة عودته من بلاد الاغتراب.

إثر رجوعه للزيارة بعد سفره الأوّل، كانت ملامحي قد تغيّرت كثيراً. تكوّر نهداي وخسرت القليل من الوزن وازددت طولاً. خاف والدي من ملامح ابنته الجديدة. الطفلة ما عادت طفلة. لم يعد يحملني ولم أعد أنزلق بين قدميه. صار ينظر إليّ بطريقة غريبة كأنّي توقفت عن أن أكون ابنته، وصرت شابة يرتبك أمامها ولا يعرف كيف يتصرف. لم يعد يدخل إلى غرفتي من دون أن يطرق على الباب. صرت أخجل منه بدوري، وأشعر برغبة في إخفاء أنوثتي عنه لأعود طفلة صغيرة يداعبها بين أحضانه وتنزلق تحت الكنبة.

كم تبدو الأيام بعيدة، وأنا أفكر بوالدي الّذي ظننت أني سأبقى ابنته إلى الأبد، وأنّه سيبقى ذاك الذئب الذي يستشرس دفاعاً عن مدلّلته. والآن، وأنا في العقد الثالث من عمري، صرت أفكّر كم من أيامي ضاعت بلا هويّة خاصّة بي. لم أتعدّ يوماً كوني ابنة والدي أو زوجة سامي. فإذا بي حين أحاول أن أكون شيئاً متميزاً ورائعاً كما كنت أحلم في أساطيري وأوهامي، أنتهي عشيقة. مضى شغفي وإيماني بكل تلك الأحلام التي كان أبي يرثيها، فألتقطها أنا من شكواه من دون أن يعرف، وأزرعها أطيافاً تلاحقني. أنا الطفلة التي كانت تأكل الحقول بقدميها الصغيرتين وتسترق النظر إلى الشمس وإبداع الخلق، مستغرقة في الإمعان في كلّ ذرة هواء تتنشّقها، مصغية

بهدوء إلى روح الطبيعة، أصبحت لاشيء. حتّى أنّي تخطّيت كوني عدماً، لأكون تابعاً لسامي. دمية. كيف فقدت الصلة مع روحي الحرّة والمتمرّدة، تلك التي كانت أشبه باندفاق متوغّل من عمق الحياة، أنا التي كنت مصمّمة أن أرسم منازل جديدة للمدينة كلّها، ينتهي بي الأمر أن أعمل كسمسار في شركة تأمين لأنّ لا خبرة عندي في أيّ مجال آخر.

كم كنت أضحك عندما أقدّم طلباً للعمل في اختصاصي، فلا أحصل على جواب سوى أن شهادتي لا معنى لها بعد عشرة أعوام من الانقطاع عن الدراسة وعدم معرفتي بسوق العمل. كنت أهمّ بالقول أحياناً أنّي أملك شهادة في حسن سلوك النساء المعنفات، وكيفية امتصاص الذلّ والتبعيّة. سنوات عدّة كان عليّ خلالها إنكار ذاتي كشرط لقبولي، وها هي نفسي اليوم تتأجج في داخلي من دون أن تهدأ. يتذكّر جلدي الضرب المبرح وخنوعي ظنّاً مني بأنّي سأخلّص زوجي من توتّره وغضبه السريع.

تداعيت للسقوط على الأريكة بينما تسرّبت في الصمت نغمات راديو موسيقية وثّابة، وصرت أرتجف كما لو أن عضلاتي تصاب بانتفاضة غير إرادية، وكأني أعلو وأهبط من دون أن أكون موجودة.

وأحياناً، كنت أشرع في تعرية نفسي ويصيبني شعور مؤرق وملحّ في التواصل مع ربيع، لأستدرك كم هو بعيد. فيراودني إحساس بأن كلّ تلك التخيّلات الجنسيّة لم تعد قادرة على إشباع رغبتي بأن أكون معه، فأنفجر في البكاء. بعدها، كنت أشعل سيجارة تلو أخرى وأجول في أرجاء المنزل ذهاباً وإياباً في طريقة هستيريّة، كسجين يلوّح

بجسده في زنزانة ضيقة، تكاد لا تسعه. ولولا ولديّ، لما استطعت أن أكبح نفسي، وأن أتغلّب على ذاك الغمّ الّذي أثقل صدري سوى عبر ملامسة بشرة دنيا الناعمة، أو مراقبة ذهن طارق الصغير الذي لا مكان فيه لكلّ تلك الاسئلة. وعندما أتمكّن من ضبط نفسي، كنت أتلعثم أمامهما ببعض عبارات الهزل وأداعبهما بحنان، على أمل أن يقولا بأنّهما يحبّانني. عندها فقط، كنت أسترجع قيمة ذاتي بعيداً عن الندوب التي أصابتني، وطفت على روحي كما تطفو البقع الحمراء على أجساد مرضى الجدري.

وكنت أسترجع كم سخر منّي سامي حين كنت أقول له أنّني لم أعد أطيق الحياة معه، وأنّه إن استمر بضربي، سنحصد كلانا عواقب وخيمة. ولكنّه كان مقتنعاً بأنّه المحقّ دوماً. وكنت أثناءها، أشبه بامرأة مكبّلة بعناية للعبة غنيّة من الأدوات السادومازوشية، الّتي تستقبل عقابها كونها تملك مخيّلة غير مشروطة، ممنوعة عن الحيّ والمدينة.

في إحدى المرّات، أجبرني سامي على ترك الغسيل على المنشر لثلاثة أيام كي يشبع القماش من الشمس. أذكر كيف كان يفرك أصابعي بيديه، ويشدّ عليهما ممازحاً ويسأل «ألم تشعري بالألم بعد؟». في بداية زواجنا، كان يراقبني وأنا أشاهد التلفاز وإن مرّ مشهد يتبادل فيه الأبطال القبل، يقترب مني ويرتمي عليّ كما لو أنّه يرتمي على عدوه. كان ينظر إليّ بطريقة ملتبسة، ثم يشدّ أكثر وأكثر، كما لو أنّه مقتنع بأنّ عناقاً واحداً لن يكفي، وأنّ مضاجعة واحدة لن تشبعه.

قبل أن أتزوّجه، كنت أظنّ أنّ شعوره بأنّه لا يتملّكني هو ما يرهقه، فيدفعه إلى التصرف بتلك الشراسة. ولكن الآن وأنا أذكر كيف

كان يمزق ملابسي، ويدفعني إلى الأريكة ويحشرني دائما في الزاوية بين مسندين، أعرف أنّه كان مأخوذا بتلك الفكرة، أن يأخذني بأكملي، باستقلالي الذاتي وسريّتي.

هكـذا تصـرّف كبـار رجـال المدينة بموجب السـلطات الموكلة إليهـم، سـواء الدينيّـة أو السياسـيّة أو الاجتماعيّـة، مع مـن صنّفوهم أدنـى مسـتوى، أي عالـم هالـة وربيـع السـفلي. نمـت مـكان محالها التجارية القديمة البسطات، وانتشرت الفوضى وفقدت المعالم الأثرية رونقها لصالح محال من الباطون البشـع. عُرف الطغاة واحد في كلّ الأماكن، أزواجاً، حكّاماً أو سـجّانين: إحاطة الضحايا بالبشـاعة حتى تتلبسـهم، فتنعدم قدرتهم على التحديق بذواتهم، ويحدقون بالزعماء وهندامهم الرقيق مطأطئي الرؤوس، خاضعين لما أخبروهم أنّه سـنّة الحياة. وبدت لي الأروقة التي لم يسـكنها البؤس كاملاً كأنّها تنتظر مصيرها. الحزن، الجهل والذلّ الجماعي كانت تحيط بوسط المدينة المكتظّ بمواقف التاكسـيات والعمّال والشـحّاذين وماسحي الأحذية، كامـرأة مثيـرة ألبسـوها ثيابـاً بالية أو برقعاً كي تختفي لأنّ المسـموح الوحيد هنا كان الكبت.

مـع أنّنـا كنّـا نقطـن في الجهة الأكثر حداثة مـن طرابلس، بدونا دوماً كنسخة مستوردة من الحرمان، تلك الطبقة التي وصلت الى مبانٍ جديدة وشـقق واسـعة زيّنتها مفروشـات ضخمة ذات طراز عصريّ، ومـع طنافـس وسـجّاد يكسـو الأرض مـا أمكن من نسـيج، ولوحات فوتوغرافيـة، ولكـن لـم تخلع تقلّصها الداخلـي المغلق بألوان رمادية وبيضاء، ومرايا تعكس التواطؤ مع العدم بصورة خفية مذنبة، ومصادرة

الحرية لحساب تطوّر قد يظلّ جامداً ما حيينا.

وكما راودني شعور مزدوج تجاه زوجي، الأوّل مرتبط بالعطف والذنب والانكسار، والثاني بالحقد والحزن والرغبة في الفرار، كذلك كان موقفي من المدينة، كشقّة مرهونة أنتظر الحصول على سعر جيد لتصفية الديون المترتّبة عليها وتأمين مبلغ يوفّر لي نفقاتي الضرورية لوقت لا بأس به، فأضمن عندها أن يكون الرحيل خافتاً، إن تصرّفت بحذر.

أدركت متأخرة أنّه عندما كان يتجسّس عليّ، لم يكن يشعر بالغيرة، بل بالرغبة بالاستئثار بي. كان ينظر إليّ بعينيه الطفوليتين إذا واجهته بأنّه دقّق في أغراضي وملابسي أو بحث بين أشيائي، فيصبح صوته محايداً تماماً، على مسافة متساوية من الكذب والحقيقة، ويزعم ألّا فرق بين أشيائي وأغراضه، ويعود ليخترق كلّ ما أمكنه منّي. أحبّ سامي الاستحواذ على كلّ شيء. علّمته والدته أنّه علينا إلغاء الآخر دائماً كي نحفظ مكاننا. لطالما طلبت منه أن يمنحني تلك المسافة الضئيلة التي قد تمكنّني من اشتهاء وصاله. لم يمنحني فرصة لاشتياقه ولا لاشتهائه. لفرط ما أحبّني، كرهته. والآن أشعر بمدى تفاهة حبّه، لا بل بسخافته. الخاص له عام وأنا ذاك الخاص. أنا ذاك الوهم الذي حاول القبض عليه بين أصابعه ليس ليمسك به، بل ليخنقه. أعوام مضت وأنا أشعر بالذنب لأنّي لم أستطع أن أكون ذاك الوهم، ذاك الكأس الذي يروي أنانيته وغروره المفرط. أعوام مضت وأنا مكبّلة بما يسمّى غرام.

في بداية علاقتنا، لم أكن أعرف أنّه مسكون بالسراب. والآن وأنا

أفكّر لماذا تزوّجته، أعرف كم أبدو أنا أيضاً سخيفة. تزوّجته لأهرب من وجع أمي الذي كان يقضّ مضجعي ليلة تلو الأخرى. تزوّجته بحثاً عن الأب الذي انفصلت عنه في ضجيج التفاصيل. وتزوّجني هو رغبة في اقتلاعي من ذاتي لأصبح سفينته التي يمزّق أشرعتها إن شاء ذلك ويتركها للعواصف إن شاء أيضاً. زورق يركبه بخياله، يصارع به الموج ثم ينقضّ على الخشب. فهل ينمو الحبّ في مدينة مسكونة بالأنانية؟ هل ينمو الحبّ في حديقة ذاته التي سيّجها بذراعي ولد مدلّل؟

ربّما لم يحبّني هو ولا أنا أحببته. ربما الحبّ هو ذاك الوهم الذي نتمسّك به خوفاً من فقدان هويتنا ولإثبات قدرتنا على التأثير. وربّما هو فيضٌ من كلّ شيء. ضد الضدّ ونقيض النقيض. الإيمان المطلق بالمستحيل، بأنّ هناك ما يتخطى سذاجتنا اليومية وتفاصيلها المملّة ورائحة الموت التي تنضح من شقق الأزواج ورغباتهم المسعورة بأن يكون الآخر شبكة خلاصهم، طوق النجاة الذي يعبرون به إلى الضفة الأخرى. وفجأة، بعد العبور، يرمون الشبكة بحثاً عن صيد جديد، غلّة أوفر، ورغبات مختلفة.

في ضجيج وجودنا العبثي، نستغرق في الملل وننسى ما هو مهم فعلاً. نستغرق في الغرق. في التعرّق لأتفه الأسباب. في إلحاق الأذى بالآخر، بعيون تتهجّى فينا الرحمة. يصبح الحبّ في داخلنا شبه حبّ وتتوالى الخيبات ونكتشف أن الآخر، ذاك الذي كوّناه من رغباتنا، ذاك الذي رسمناه «على مقياسنا» فضفاض أو ضيّق. ربما ازداد وزننا، اكتسب بضع كيلوغرامات إضافية، وربما خسر أحيانا.

هي دوماً تلك الرغبة بأن أفقد نفسي في الآخر هي التي أوقعتني في خيارات غير واقعية. والآن وأنا أفكّر بسامي، أدرك أن الرجال مدينة من الأطفال وأنّنا نحن دمى المدينة. والطفل لا يفتش عن دمية. أحيانا يضعها على الرفّ فينساها وقد يصيبها الملل. وأحيانا أخرى يتأبطها كلّ الوقت فلا ينام إلّا قربها.

كنت إذ استعيد وجهه، تنهمر في داخلي الوجوه كما لو أنّه لم يكن يوماً فرداً، بل مجموعة. أخته العانس، التي ازدادت كراهيتها لي بعدما ارتدت الحجاب. كانت تتأمّل خصلات شعري وترغب في الانقضاض عليها وهي تكلّمني بفوقية. والدته التي تتملّقه ووالده الدائم الصمت. كانت عائلة زوجي أشبه بأكوام الحجارة التي تتكدّس بعضها فوق بعض، الأصفاد التي يتلعثم سامي أمامها ويصبح أكثر توكيداً لسلطته علي، فيهينني عمداً على مسمع من والدته لترتسم على شفتيها ابتسامة نصر.

الملل كان العنوان الوحيد لاجتماعاتهم المسائيّة. كانوا يشاهدون المسلسلات المصرية والسوريّة ويستغرقون في ردود الفعل المبالغ بها اذا مّس السوء أحد أبطالهم. هكذا كان سامي بالنسبة لهم، بطل مسلسل تلفزيوني تزوّج من امرأة أدنى منه نجوميّة. تحوّلت معهم إلى شاشة تتحرك بواسطة «الريموت كونترول». لم تعد تصبّرني على جلساتهم المملّة سوى المشاهد الكوميدية التي أحفظها عنهم في ذاكرتي لأصفها لهالة حين أراها. استغرقنا، صديقتي وأنا، في الضحك على مآثرهم الغريبة، واستدرجنا أحياناً من مخيلتنا صوراً مبالغة عنهم.

كنا نتسلى ونحن نزعم أن شقيقته العانس تمسك صورتي بين يديها وتقارن بيني وبينها. نفبرك سيناريوهات بأنّها تذهب لجلسات استحضار الجن، لكي تتخلّص مني، أو تكتشف السرّ الذي جعلني أتزوج فيما لم تفعل هي. كانت هالة تقول لي بأنّها لن تتعجب إن اكتشفت يوماً أنّ والدته ليست إنسانا كاملاً، بل مخلوق تلبّسته الشياطين التي تهوى زهق الأرواح. حتى أنّها كانت تسخر من سامي وتقول لي إنّ والدته ما زالت تعطيه الحلوى فيأكل من يديها السكر، وتزداد طاقته لكي يفجّر غلّه فيك ويضربك.

– Why do you put up with their shit? Break free honey as long as you can

كانت تتعمّد قول هذه العبارة بلكنة أجنبية، وهي ترجع شعرها إلى الخلف بأصابعها، كما لو أنّها ترى نفسها نجمة سينما كلّما تكلّمت بالإنجليزية. كانت تضحك وتقول لي «من بين جميع عشاقي، لم أجد أحداً على شاكلة هذه العائلة». سألتها ألا تنوين أن تتعقلي وتكتفي برجل واحد.

«ليس قبل أن يأتي الرجل الذي يهزّ كياني. صدقيني إن كان ثمّة شخص كهذا ستسقط جميع محاولاتي الفاشلة في إقناع نفسي بأنّي باحثة عن لذة عابرة بين غبار الأجساد»، جاوبت بثقة.

كانت هالة في حاجة دائمة إلى عشيق، كما كنت أنا بحاجة إلى رجل في استيهاماتي. حاولت من خلال العلاقات العابرة أن تتحوّل إلى اللامبالاة، أن تقتل حساسيتها المفرطة والحبّ الذي أودى بها إلى الهلاك. التقتهم مصادفة. وفي كلّ مرة، أقنعتهم وأرغمت ذاتها أن

تعتقد أنّها ليست بحاجة إلى وجودهم. وكانت تتركهم على هواهم، لتكتشف من قد يمتلك موهبة الإيقاع المثالي، ذاك الذي يستطيع أن يفهم ما لا تقول، ما هو أبعد من حدود ذاتها.

كان الرجل الأول الذي عرفته بعد زوجها عبثياً ومغامراً. وحدّثها دوماً عن التخلّي المطلق الذي يعبر المرء خلاله إلى عالم لا يمكن توجيه اللوم فيه إلى الربّ أو غيابه. وقرّرت خوض تجربة المتعة، تلك التي تتضاءل فيها حتّى التلاشي. كانت قد آمنت بالتجربة حتى تحوّل الرجل الذي عرفته إلى الهوس واشتد التصاقه بها ليدنو كلما ابتعدت، ضارباً عرض الحائط جميع نظرياته عن التخلّي ومستغرقاً في عشقها. كان من الممكن أن تغرم به هي الأخرى ولكنها شعرت بذاتها تدور في متاهة شاءها أن تتلاءم مع متغيّرات الزمان. اقتربت هالة فابتعد، وابتعدت فاقترب، وأغرقها في نظريات فلسفية سرعان ما دفعتها إلى الفرار.

أدركت أنّه مجرد رجل غريب الأطوار، لا يملك القدرة على اتخاذ القرارات في حياته، فأغرقها في المستحيل غير الواقعي. تروي هالة أنّ شعوراً لا مثيل له بالسأم داهمها، وما لبث أن تطوّر إلى درجة الاحتقار ففرّت هاربة، كامرأة تتسلّل ليلاً تحت ملاءتها آملة أن تختفي عن الأنظار. لاحقها مطوّلاً هو المؤمن بنظرية التخلّي، ولكنّها طوت صفحته بشيء من المرارة والأسى، كون سلوكه أثبت عكس أقواله.

انتهت بعد فترة مع رجل ملتزم دينياً، في محاولة منها للغوص في الروح مجدداً. وكان العشيق الجديد على قدر من اللطف، الذي تبين مع الوقت أنّه نوع من الشفقة، الشفقة التي تترك الإنسان في

موقع المتفرج والعاجز عن إنصاف المشفق عليه. أثارت هالة في جوفه شعور المنتصر والمحظوظ، كما لو أن الله والدين رزقاه بعائلة على عكسها، لأنّه المختار. وكان إذ ينتهي من مضاجعتها، يغوص في حديث مؤرّق عن الحلال والحرام، ويعظها لاستهتارها بنفسها. سألته مرة «ألا تفعل المثل؟».

- ولكنّك لا تمانعين.

- لأنّني أريد أن أكون أقرب منك.

- وأنا أيضاً.

- لماذا تقارن بيننا إذاً؟

- لا لا. الأمر مختلف.

- وكيف يختلف الامر؟

- لماذا تكثرين الأسئلة؟

- لأني أريد أن أعرف. هل كنت لتحبني أكثر لو لم أقم بفعل الحبّ معك؟

- لا أظن ذلك.

- ألا ترغب بي؟

- بلى كثيراً.

- أتريدني أن أرغب بك؟

- نعم كثيراً.

- لماذا تتكلم كأنّك تريد أن تحدّ من رغبتي اذاً؟

- لا أعرف إن كان هذا ما أريد.

- لأنّ الرغبة حرام؟

صمت العشيق طويلاً، وحاول أن يطوّق هالة بذراعيه، ففرّت هاربة منه وقالت: أنا صاخبة إلى حدّ كبير ولا أفهم لماذا تحاول قتل عشقي للحياة. تتفنّنون في عشقي في العتمة وتقتلونني كلّما اقتربت من الضوء. أليس هذا محرّماً؟

صمت العشيق مجدّداً، ذاك الصمت الذي تتحوّل فيه المسافة إلى لحظات من التعرّي ولا يبقى من حاجة إلى الصوت لأنّ كلّ ما قد يقال لن يحدث فرقاً.

The damage is already done

على حدّ قولها.

حاول أن يقترح عليها الخروج معه لتناول العشاء، فرفضت، وهجرته مسرعة وهي تشتم الوحدة التي رمت بها بين أحضان المفترسين الذين يرمون ازدواجيتهم على شخصها، حقداً على تحرّرها الّذي لن يبلغوا عمقه.

توالى العشّاق الأشبه بشخصيات مسرحية مفضوحة، وكائنات خائفة تحاول دفع هالة إلى مستنقع حزين يكسرها ويطالبها بأن تكون ضعيفة وواهنة كثمن لرغبتها بأن تكون عفوية إلى أقصى الحدود. لا أحد يريد أن يسمع الحقيقة، أو يوسّع آفاقه الذهنيّة لحساب اندفاعات مطلقة، كي يدرك عمقاً جديداً، وكي لا يتحوّل كلّ شيء إلى هباء، وكي يكون الضعف مباحاً أحياناً، على عكس ما ندّعي. وكي لا تكون الحاجة إلى الآخر غاية بحدّ ذاتها، إنّما انسياب طبيعي للحياة، رقيق وعميق. كانت هالة من أولئك الأشخاص الّذين يندفعون وراء الشهوة، ويحلو لهم العيش عند الهاوية، برغم المصاعب والوحدة والألم.

بالنسبة لها، جميع تلك التجارب صقلت شخصها وزوّدتها بقوّة غريبة وقدرة على التقاط تفاصيل الأشياء. هي لا قدرة لها على تحمّل الموت مثلي، لا تقتنع بأنّ الحبّ عذاب وضرب وإهانة. تصوّرتها دوماً ذاك النقيض، وكلّ ما تجمع الأضداد من قسوة ولين. ولكنّها كانت تسعى بجهد نحو ذاك التوازن، الذي لم تعرف غايته الفعلية. حبّها للحياة كان يسبق نطقها، رغبتها في التجدّد والبقاء منفتحة على جميع الاحتمالات. لم يكن من مستحيل لهالة. لا شيء مستحيل. حتّى ابنها الذي يعترض حياته المرض زرعت في بذور رأسه أنّ الله إن سلبه شيئاً، فهو أعطاه أطناناً منه نعماً أخرى. بالنسبة لها، لا نستطيع أن نملك كل شيء. الله يوزع نعمه بدقة ولو بدت الحياة مجحفة وقاسية. هو ذاك المطلق الذي إن آمنّا به، لن يعود همّنا الوحيد إن كان يراقبنا ونحن نمارس الجنس. سنقتنع من تلقاء أنفسنا إن كان الحجاب حقيقة أو بدعة، سنكتشف حقيقة وجوده إن سلكنا دربه وسعينا وراء أحلامنا.

الله لهالة كان الحبّ، كلّ الحبّ، الضوء الذي تسلّل إلى غرفتها عندما كانت طفلة لوى ذراعها اليتم وخيبات الأب. كان تقول أن الله موجود حتى في الخيوط التي نسجت بها ملابسنا، موجود في مسام جلدنا. وكانت هالة فخورة بأخطائها، وبندمها وتوبتها وكلّ ما يحتمل فكرة أنّها حيّة. بالنسبة لها، إن لم نكن خطائين، لما فهمنا نعمة المستقبل.

«هذا لا يعني أنّني لا أدرك كم تخلّيت عن إيماني في اللحظات الحرجة، ولكن إيماني يا سحر لم يتخلّ عنّي. إنّه ابني، صغيري الذي

يفتح في نفسي بذور العطاء في أشد جفاف أيامي،» كانت تقول.

كنت أقول لها أنت غريبة فعلاً يا هالة، وعندما أفكّر بغرابة صديقتي وأنا نائمة، أحاول أن أؤمن بأنّ السعادة قد تكمن في شطيرة «هوت دوغ» تتناولها بفرح عارم، وأعود لأدرك بأنّي لن أكون فرحة، لأني لا أستطيع أن أكون أنا.

كنت أسترجع كل ما روته لي عن طفولتها المؤلمة، وأراها تعانق دبّاً محشوّاً طوال الليل لأنّها وحيدة وأمّها بعيدة عنها. أراها طفلة مثقلة بالفقر والحرمان والمسؤولية المبكرة. ويتراءى لي أحياناً أن الوجع يمشي خلفها كظلّها. وكنت أراقبها وهي تلعب مع صغيرها وتمسك بيديه وتقبّلهما. أراقبها وهي تكلّم معجبيها الكثر عبر سماعة الهاتف في سخرية واستهتار، وأفكّر ألهذه الدرجة فقدت الأمل من البشر، من أن يأخذ أحدهم بيدها. هل جميع البشر متشابهون بحسب ما تزعم صديقتي، وإن كنّا فعلاً نريد أن نكون واقعيين، يجب ألّا نتوقع من أحد أن يكون مخلّصنا؟ هل نهرب إلى الآخر لكي لا نواجه متاعبنا أو أن القسوة في هذا الوجود جعلت محاولات التواصل بيننا تبدو مستحيلة؟

سعادة هالة أو جزء كبير ممّا تحاول أن تدعوه فرحاً نابع من حرّيتها. يخرج أملها من يأسها كأزرار ياسمين تتفتح بيضاء بين براثن اللون الأخضر. تافهة أنا لأني أسلك الطريق الأكثر جدّية في الحياة، فالطاولة يجب أن تكون دوماً في الجهة اليسرى من غرفة الجلوس. لون الحائط عاجي والفواتير كلها مسدّدة. لا مكان للتغيير. في منزلي، نتناول وجبات منتظمة، الثياب مطوية ولا مكان

لبقعة زيت على ملابس الأطفال. كلّ شيء كما يجب أن يكون، حتى زوجي يضاجعني حسب أصوله وأعرافه. كلّ شيء مرتّب حتّى الملل، ولا يخترق حياتي سوى نوبات غضبه التي لا مجال للسيطرة عليها.

لم أكسر كلّ تلك الوجبات المتوقّعة والحياة المتوقعة إلّا لما خنت سامي، عندما اخترقني كلّ ما ليس متوقعاً. لم أعرف مدى الانحدار الذي آلت إليه حياتي إلّا لمّا أطلقت ذراعيّ لاختبار الحياة. خرجت من عالم سامي وسمحت لسحر أن تكون هي. ولكن المشكلة أنّي كنت «أنا» في لحظات أقضيها مع عشيقي، ثم أعود لأكون «هم» طوال الوقت، فألبس هوية الصنم التي رسموها للنساء منذ بدء التكوين.

وحين أصبحت وحيدة في مواجهة ذاتي، ركعت أرضاً، أطبقت أسناني على حافة السرير الخشبي، تفرّجت على سحر الكسيحة كالمعدن المهترئ. حاولت أن أمدّ لها يدي واذ بها تبلّل الأرض بأدمعها. كنت أرتجف، ليس من البرد، إنّما من الخوف وانعدام الشعور بالأمان، وسرت الزرقة في كامل جسدي. عادت الصور لتلاحقني. شعرت أنّي عاهرة كما كان سامي يقول لي دوماً. أنا عاهرة وكاذبة ومنافقة، ويجب أن أرجم. أنا لم أحفظ ذاكرة أجساد نساء قريتي العفيفة ولوّثتها بالخيانة. بالخيانة لوّثتهنّ أنا، وهن لوّثنني بتعليمي خيانة ذاتي قبل أن أعرفها. هن لوّثنني إذ علمنني أنّه مباح لرجل أن يضرب امرأة ويهينها.

لم أكن أعرف أنا المرأة المستغرقة في خيانتها أنّ الموت سيخطف عمتي سامية، المرأة الوحيدة التي حفظت ذاكرتي ملامح تفاصيلها. لم أكن أعرف أنّ للموت مخالب تنغرس في جوارحنا. والآن وأنا أحدّق في المرآة، أدركت أن الشيب داهمني قبل الأوان، وأن التجاعيد بدأت تظهر تحت عيني وأن الأسى الذي أخفيته بالكثير من الماكياج اخترق ملامحي. ولكن أن تموت عمتي. لا، فقد نسيت أن الموت موجود وأن للحياة نهاية.

جلست في الغرفة المزدحمة بالمعزّين أتأمل تفاصيل منزلها، تلك التي غفلت عنها في ضجيج انفعالاتي واستغراقي بالبحث عن أجوبة للأسئلة التي رافقتني منذ طفولتي. كانت هناك بجسدها الهشّ وذراعيها المنسكبتين من جسدها كلوحة لفنان أعمى رسم من إطفاءة عينيه أكثر ما في الكون من إبداع. كانت هناك عجوزاً، وبقيت في عيني جنيناً لم يبصر النور. ركضت إلى جثتها أنا التي اختبرت الموت كلّ لحظة ألثم جبينها ويديها وقدميها. ورحت أفكّر كم صرت قاسية وجافة ومنتهكة، كيف نسيت أن أزورها في ضجيج الوجود، هي التي لم تبخل علي يوماً بحبّها ومشورتها. مرّرت يدي على وجه عمّتي وإذ بي أتحسّس الموت. استعدت حياتها وأنا أنظر إلى غرفتها المزينة بأزرار الياسمين وأغطية الطاولة المطرّزة التي كانت تحيكها في صبر وتأنٍ.

ضجّت الغرفة بالنساء اللواتي أدرك الآن كم كرهتهنّ. المتطفّلات اللواتي تسابقن على غسل الجثث لكي يسجّلن نقاطاً

إضافية من الثواب. صرخت بهن «دعوها وشأنها». صرخت وبكيت بطريقة هستيرية. شاقني كم كانت وحيدة. امرأة تأكل وحدها وتشرب وحدها. تطرز أغطية الطاولة وحدها وتسقي حديقتها بماء نقي كصفاء روحها. كانت الأصدق بينهنّ.

عندما كبرت، قالت لي عمتي «أنام قرب كبريائي يا سحر. ولكن كبريائي ليس رجلاً». أحبّت عمتي في صباها رجلاً يدعى نبيل، ولكنه كان فقيراً ولا يلائم حاله عائلتها المأخوذة بالأمجاد والحسب والنسب. أجبروها أن تغضّ النظر عن الارتباط به، وأرادوها أن تتزوج من رجل ميسور الحال، يُعَدّ من أشراف القرية وأعيانها. بكبريائها الذي أقسم أنّي لم أشهد له مثيلا، رفضت عمتي العريس الذي حاولوا إلصاقه بها. تمسّكت بنبيل كما تتمسّك سمكة بذيلها. وفي عهد لم يكن للمرأة فيه حقّ بأن تقول لا، صرخت عمتي وقالت «يا بتزوج نبيل يا عمرها ما تكون الجازة». حبسها جدّي في المنزل لسنتين. انقطعت فيهما عن الوجود. لم يسمح لقريباتها حتى بزيارتها. بقيت كما هي.

«لن أتزوج من رجل لا أحبّه»، كانت تقول لوالدها بشجاعة فينهال عليها ضرباً ولطماً. بقيت حبيسة منزلها إلى أن فقد جدّي الأمل بأن تستعيد صوابها. كان همّه الأكبر ألّا يظن المحيطون به أن نبيل أفقدها عذريتها. لكنّ عمّتي لم تعد تريد الزواج من نبيل أو سواه. شعرت بغصّة وبالغدر عندما نقلوا لها خبر زواجه من أخرى، بعدما أيقن أنّ علاقتهما مستحيلة. لم يكن زواجه ما يؤلمها، بل خيانته لعهد قطعه لها يوماً. كانت تمرّر أصابعها على بطنها وتقول إن رحمها

لم يحمل ولداً أبداً. كانت مقتنعة بأنّ نبيل سيحارب من أجلها حتى آخر رمق ولكنّه لم يفعل. «الرجال متل الدجاجة يا عمتي»، كانت تقول وتقهقه. «بقول عنا نحنا النسوان جبانات. أكبر رجال ما عندو قدرة يحمل يلي بتحملو مرا وحدة».

رفضت عمتي الزواج من رجل غير الذي أحبته، ولكنّها أدركت مع مرور الأيام مرارة الوحدة. أدركت كم من الصعب أن تصحو صباحاً من دون أن يكون معها جسد يشاركها الفطور، أو طيف رجل يزورها ليلاً كي يشعرها بالدفء.

«أنا كان بدي ولد يا عمتي. ولد بيشبه نبيل، بيمشي متلو. بيحكي متلو. ما كان بدّي أكتر»، كانت تقول لي بعدما كبرت وعرفت بحكايتها نساء القرية. كنّ يتكلّمن عن عمتي كما لو أنّها مغفلة وعانس أمضت حياتها في حديقة منزلها تسقي الورود بالماء أحياناً، وبالدمع أحياناً أخرى.

كانت بالنسبة لأولئك النسوة في القرية أمثولة تتعلّم منها باقي الفتيات أنّ «الحبّ ما بطعمي خبز»، وأنّ العنوسة ثمن مكلف لكلّ من تظن أن بإمكانها أن تقرّر مسار حياتها بنفسها. والآن وهي جثة، لا أملك سوى أن أفكّر هل عرف نبيل كم عشقته عمتي، وكم احتفظت بالورود التي أهداها إياها في منديلها العاجي. كم بكت وكم من الضرب تحمّلت لكي لا تكون لرجل سواه. كم من جنين أجهضت من دون أن تحبل ولو مرة واحدة.

مكلف ثمن الكرامة. مكلف ثمن أن نتشبّث بما نريد فعلاً في مجتمع ينكر علينا حقّنا بالعيش. يكسونا من نفاقه ويقنعنا بأن نرضى

بالقليل. ينكر حقنا بالسعادة. وإذ بنا ونحن نهرول في سبيل لقمة عيشنا، نصطدم بأن هذه اللقمة تكاد لا تكفي حتى للعيش. صادروا الهواء من رئتي عمتي لأنّ الرجل الذي أحبّته أدنى مستوى. لا يحقّ للفقير أن يحلم بالتغيير. لا يحقّ له وهو يمسح العرق الذي يتصبّب من جبينه أن يتمنّى. حتّى الأماني يصادرونها من المقهورين ليزيدوا بؤسهم. تحوّلت عمّتي إلى جثّة أرثيها. أرثي عينيها التي أغمضتهما اعتزازاً بنفسها الّتي أبت غير التمسّك بالحبّ، فأرى عيني معشوقها الذي تزوج امرأة من مستواه وبقي كما هو، عامل مأجور أورث أولاده الانسحاق والرضوخ للأعراف: لا يحقّ للفقراء أن يحلموا.

لا يحقّ لهالة، وهي تحاول مرّات عدّة أن تشعل موقد النار لتدفئ به منزلها المتواضع، أن تصبو لأن يكون لها جهاز تدفئة مركزي، فهي ولدت فقيرة ويجب أن يكون العوز مقبرتها. لا يحقّ لها أن تحلم في تأسيس عائلة بعدما لم يبق من جثة زوجها سوى الرماد وطفل صغيرأحسبها تحمله بين أحشائها حتّى الآن.

صرخت عمّتي ودفعت ثمن تلك الـ«لا». دفعت ثمنها ليالٍ من الوحدة والمزيد من العزلة كي لا تكون كنساء قريتنا المركبات اللواتي يحبسن الحب بين فروجهّن ويبحثن عن «ضل الحيطة»، ذاك الذي أقنعونا به بحجّة أنّ الفيء ولو كان شحيحاً، يبقى أفضل من الشمس. لم يعد كل هذا مهمّاً الآن فقد كانت ميّتة وكلّ ما أمكنني هو التحديق بجثّتها والتفكير كم أشبهها. أنا التي لا أشعر أنّني أنثى تحيا سوى في ظل ربيع، ذاك العشيق الذي يبقى ظلّه الشمس التي تعرّيني.

ولكن، ألا يشبه نبيل ربيع يا عمتي؟ ألسنا كلانا مرايا لأولئك

الرجال؟ ألا يخونون هم أيضا ذاك الحبّ الكبير الذي نمنحه نحن النساء من دون مقابل ولكن طمعاً، ليس بالكثير، إنّما ببعض منهم؟

كشفت لي وفاة عمتي كم تغيّرت وكم صرت مختلفة. لم أعد تلك الفتاة التي تنتظر أن يربّت الجميع على كتفها تعبيراً عن رضاهم عنها. كنت أنظر باحتقار إلى كلّ ما حولي، ببرود كما لو أن عيني في تلك الهوة المتّسعة بيني وبين محيطي. أنا التي لم أكن يوماً متصلة بالواقع إلّا عبر قدرتي على التسلّل إليه من معبر رفضي لذاتي والالتصاق بهويّات مسبقة بت الآن منفصلة عنها. لسع ضربات زوجي المنتفض على جلدي أيقظ في داخلي نقيضين، الأوّل تجلّى في النور وكان خاضعاً له، والثاني محكوم بالعتمة وهو يصفعه من غير أن يعرف.

كل ما أحاط بي كان مزيفاً، النساء اللواتي يندبن عمتي وهن لم يزرنها ولو مرة في وحدتها. المرأة التي غسلت جسدها بقلب من قصدير، وتعاملت مع الجثة بحرفية عالية كأنها لا تكترث لكونها لم تعد موجودة، وكأن الجثث تتحوّل بعد الموت إلى شيء، مجرد شيء بلا روح. لا يعود الجسد تلك الكتلة المتجانسة من الأعضاء ويفقد دقته. تخرج الروح منه وتتركه وحيداً ليعبث به الّذين يعملون في غسل وتكفين الموتى. الغريب أنّ المرأة التي كانت تغسل جسد عمتي كانت تعمل تطوّعاً في غسل الموتى رغبة في الأجر وليس للحاجة المادية، فبالنسبة لها وظيفة غسل الموتى وظيفة وقورة ومن يعمل في مكان مثل هذا توجد في كل أركانه الرهبة.

الروح هي التي تعطي الجسد قيمته والجسد هو الذي يعطيها

مسكّناً تختبر من خلاله العيش والحياة. الجسد هو ما يتسنّى لنا من خلاله مشاركة الآخرين كل شيء: النطق والحديث، النظر، اللمس، الحنان. هو ما نتبلور فيه ولنا أن نكسبه كل ما نزرع فيه. ولكننا في مجتمعاتنا التي يكاد الخوف ينطق من خلال كل مسامها، نتعلّم أن نقمع الجسد، ليس لسبب آخر سوى لقمع أرواحنا وفصل المرئي عن اللامرئي. نحن مزدوجون لأنّ أجسادنا لا تمشي قرب أرواحنا في دروب الحياة، لأنّه يجب أن تكون لدينا دوماً عين ترى، وأخرى تغض النظر كي لا تتكدّس الخسائر.

انفصلت عن الواقع ذاك الذي لم أعد استغرق فيه، ولم يعد يعنيني أن أكحّل وجهي كي يراني جميلة. دخلت إلى الحمام، وانتابتني رغبة جارفة بممارسة العادة السرية. تمدّدت على أرضية الحمّام. التصقت معدتي بالرخام الأملس والبارد. استحضرت ربيع في ذهني ورسمت جسدينا متلاصقين ورأيت نفسي كما أحبّ: ممدّدة على ظهري فيما هو مستغرق بتقبيل باطن يدي ليفلتها على عجل ويلقي رأسه بين نهدي. كانت أصابعه ترسم دوائر على خاصرتي، وأنا في حالة استرخاء كاملة، مستسلمة أتلقى حباً ورغبة. استحضرت جسد ربيع وروحه وغرسته في داخلي. لم أشعر بالفراغ بل أكاد أقسم بأن طيفه كان معي. توقفت واتجهت إلى غرفة عمتي سامية. استلقيت على فراشها وحملت لها عشيقي معي. شعرت بأنّها الوحيدة التي ستتفهم حاجتي إلى الحبّ. كيف لا وهي من صنعت من الهوى كينونتها ورفضت أن تقحم في فراشها رجلاً تكون معاشرته فرضاً عليها.

كانت تهتمّ بحديقتها في شكل حسّي ورائع. ترتّب الأزهار بطريقة متناسقة، فيها من الفن ما يدهش العين. كنت أستمتع بمراقبتها وهي تشكّل الألوان المختلفة وتضع بين الأزهار الكثير من الأوراق الخضراء قائلة «لما تختنق الزهور يا عمتي، بدك تنتبهي كيف تتركيها تتنفس».

اعتقدت عمتي بأنّنا نستطيع أن نرى الصورة بشكل أفضل من البعيد. عندها، يبدو لها رونق مختلف، ويصبح لتفاصيلها معنى إن لامسناه. تلك كانت خصوصيتها وسلامها الذي ينبع من مصالحتها مع ذاتها وحبّها للجمال، لكلّ ما تدب فيه الحياة وتنساب خلاله برقّة. اختلفت عن والدتي المتوتّرة والمستغرقة في آلامها والتي أورثتني، من دون أن تعرف، الجزء الأكبر منها.

اتّصل بي سامي لأنّه كان يعرف أني سأنام في القرية ريثما ينتهي العزاء. حاول أن تبدو لهجته لطيفة ورقيقة ولكنّي كنت أدرك أنّه منزعج لغيابي وأنّه سينتقم مني لتلك الليلة التي نمت فيها في غير سريره في لحظة لا أتوقّع ذلك فيها. ربّما عندما يجف حزني العميق. استلقيت في السرير وفكّرت بزوجي. فكّرت به من البعيد كما كانت تقول عمتي. أزعج سامي كلّ ما قد يثير في نفسي الفرح. كانت به حاجة ملحة لتذكيري دوماً بأنه هو مصدر البهجة الوحيدة في حياتي. كلما استرجعت ذكرياتي، كلما زالت تلك الغشاوة التي تغذي شعوري بالذنب والمهانة، وبأنّي لا أستحق أيّ شيء جيّد. والآن وقد فقدت الغباء الذي لازمني لسنوات، أعرف أنّ ذاك الرجل لم يحبني يوماً.

«اقتربي يا سحر. لا تخافي. اقتربي.»

اقتربت بحذر وسرى خدر في قدمي. كان شعري منسدلاً على وجهي. جسدي ثقيل تحت قميص النوم الشفاف الذي ارتديته. مشيت حافية القدمين وبخطوات متلبدة. فطلب مني أن أسرع. وقفت أمامه. لم أنظر إليه. نظرت إلى الارض. أزال خصلات الشعر عن وجهي. رفعه إلى الأعلى. سألني ألا تحبينني؟ صمتت.

«زعلانة لأني ضربتك؟»

أومأت برأسي إيجاباً. ازداد حنقاً واشتد نفوري. أمسك ذراعي وقال «تطلعي فيني».

حدّق في عينيّ وسألني «ما بتحبي لسامي. سامي بحبك كتير».

استجمعت شجاعتي وجاوبت: «يلي بحب بيضرب؟»

أغمض عينيه وأطبق أسنانه بغضب كمنشار يجزّ به قطعة حديد من دون جدوى.

«إنت بتخليني اضربك. إنت بتعصبيني. بتجننيني».

«شو عملت أنا؟»

«انت مش عم تفهمي. عم تخليني عصب اكتر».

«ليش. شو عملت أنا؟»

ضرب بكفه حافة السرير متعمداً إثارة الذعر في نفسي. سألني مجدداً «ما بتحبي سامي؟».

استغرقت في البكاء فازداد عصبيّة. أرجع شعره إلى الخلف بيده. قام عن السرير وأخذ يروح ويجيء في الغرفة. «لك انت ما بتحبيني. انت ما عم تفهمي. عم تخليني عصّب».

استمرّيت بالبكاء ورحت افتش عن الأخطاء الّتي ارتكبتها. لماذا أدفعه إلى الغضب؟ هل أنا حمقاء لهذه الدرجة؟ جلست على السرير. دفنت رأسي في الوسادة. أدركت أنّه غاضب وبه رغبة جامحة بمضاجعتي. أصبح أكثر توتراً. انتهكني شعور بالذنب. جلس قربي. رفع رأسي إلى الأعلى وقبّلني.

«ما بتحبي سامي؟»

أومأت رأسي إيجاباً. استغرق في ولوجي. عجزت عن مبادلته الرغبة ولكني كنت أنصاع لما يريد كي لا أجعله يفقد أعصابه. عندما انتهى من ممارسة الجنس، نظر إليّ كما لو أنّه يعطيني إشارة بأنه سامحني لأني كنت أثير أعصابه. لم أكن أفهم شيئاً مما يحدث في ذاك الوقت. كنت فقط أتفرّج عليّ وعليه. لم أعرف لماذا لم يعاملني برقة كي يستدرجني إلى الفراش. لماذا توجّب أن يكون عنيفاً على هذا النحو؟

لماذا أمضيت سنوات عدّة وأنا موضع غضبه، ذاك الذي لا أدرك عنه شيئاً. إذا تشاجر مع رفاقه في العمل، ضربني. إذا تذكّر سطوة والدته على والده، ضربني أيضاً. إن شاء أن يثبت أنّه كما كانت أمّه تردّد دائما الرجل الأكثر وسامة على وجه الأرض، ضربني أكثر. إذا شاء أن يثبت أنّه مختلف عن والده المنصاع لسلطة الام، عنّفني أيضاً.

طريقتي في ترتيب السرير لا تعجبه. الطعام الّذي أعدّه غير لذيذ ولكنّه يلتهمه بنهم. الملابس التي أرتديها فاضحة كثيراً. التدخين لا يليق بأنوثتي. أنا لا أتقن الاعتناء بأولادي وكونهم متفوّقين في دراستهم ليس لأني اجيد الاعتناء بهم، بل لأنهم ورثوا ذكاءه بالفطرة.

لم يكن خوفاً ذاك الذي جعلني أستغرق في الاستسلام لإهاناته. كان تجنّباً للمشاكل. كامرأة مندهشة لكلّ ما يحصل حولها من دون أن تفهمه كنت أنا. خائفة لا. ذاك الشعور تجاوزته. كنت مذهولة، مستغرقة في البحث في ذاته عن جواب لكلّ ما يحصل بيننا. كنت أهرب من مشاكل ذاتي في محاولة لاقتحام ذاته. اكتشفت بعدما خنته أنّي استغرقت فيه وقتاً طويلاً ونسيت نفسي. نسيت أنّي جميلة وشابة كأنّي اتخذت قراراً مسبقاً بمقاطعة حياتي ورميها في سلة المهملات للقبول بأن أكون أم سامي ودميته وعاهرته الصغيرة التي أحبَّ أن يتأملها عارية ومنكسرة.

صحيح أنّ الحبّ لا يحتاج إلى تفسير. نحن نحبّ وحسب. ولكن توصيف الحبّ يحتاج إلى دافع. فهو أيضاً نسبيّ. ربما كان يحبّني كالأهوس. كنت له مخدراً أو فسقاً لم يعد الاستغناء عنه ممكناً. مسلكه الغيور عكس معاناته من إحساس متطرّف بالملكية. وكان شكّه الطاغي النابع من عدم قدرته أن يشعر بأنّه يمسك بي. ولبلوغ هذا الهدف، كان عليه أن يخلق في داخلي شعوراً دائما بالحاجة إليه. أنا لا أجيد قيادة السيارة وحدي لأنّي أسهو ولا أستطيع إنشاء صداقات لأنّ لا أحد سواه يحبّني. لذلك، كان من الجهة الأخرى يعزّز عبوديته تجاهي ويجعل من نفسه، بعد أن تمرّ نوبات جنونه، ذاك الخاتم الذي قد يلبّي جميع رغباتي.

بعد أن يضربني، كان يبكي ويطلب أن أعفو عنه. وحتّى في أعذاره المنمّقة، لم أرَ سوى دموع طفل خائف من أن يخسر قطعة الحلوى. هذا ما كسر خوفي تجاهه وجعلني أدرك أنّه قابل للسيطرة

إن اتقنت وبوعي كامل أن أخنق شعوره بأنّي أحتاجه. ولكي أحاربه، كان عليّ استعادة ذاتي المسلوبة. لذلك أصرّيت أن أعمل، وإن لم يكن مجال التأمين هو ما قد يحقق كينونتي، ويبدو بعيداً جداً عن طموحاتي المدفونة. ولكن كان عليّ أن أكسر ذاك الاستحواذ الذي يحسب أنه يقيّدني به.

-26-

أدركت وأنا أسرّح شعري قبالة المرآة كم تغيّرت، كما لو أنّ الزمن يعبر على الملامح ويطبعها بدقة. وأدركت كيف يجعلنا الموت أكثر سكوناً. صرت خافتة منذ وفاة عمتي كما لو أنّ جميع الأحداث صمتت. أدركت أيضاً أنّ الأمور تحدث بسرعة دوماً في داخلي، بسرعة رهيبة من دون أن أتوقف للتفكير بها. ورغم أني كنت أشعر بالعدم، باللّاشيء، أصبحت قليلة الصبر كأنّ في داخلي إرادة في التحرّر تكاد تخنقها مواضعات الحياة وتقاليدها. أصبحت أكثر حاجة إلى ممارسة الحبّ أو حتى العادة السرية التي ألوذ إليها في خيالي لكي أتصل عبرها بذاك الآخر، ولو في داخلي.

لم أكن أبحث عن نشوة أو رعشة بقدر ما كنت أتوق إلى أن أشعر بالانتماء، الانتماء إلى ذاتي أوّلاً، ولو كان وهماً أختلقه في ذهني. أصبحت مسكونة بالأرق وصار سامي يخبرني بأنّي لا أطاق. وكامرأة تعيش مع رجل غريب عنها، توقّفت فجأة عن رؤيته أو حتى اعتباره موجوداً. لم أعد أستمع إليه عندما يحدّثني. كنت غائبة عنه كلياً، في شرود تام. كانت ذاتي تنفصل عنّي لأجد جسدي في ذاك

العدم المحيط بي، بينما أنا في مكان آخر. لم أعد أكترث لكلّ ما قد يجري حولي، كما لو أنّ هذا الوجود لم يعد يعنيني. تبلور رفضي للزيف الّذي انتشر حولي كوباء من خلال صمت مريب.

وعندما صار سامي يقترب لمضاجعتي، كنت أهبه جسدي من دون أيّة مقاومة. كنت أتلقاه فقط. لم يكن هناك أيّ شعور، كما لو أنّي مستغرقة في اللاشيء، في انتظار الحياة أن تمر. كان يلجني ويبلّل نهديّ بفمه وأنا فاقدة الشعور كلياً. لم أكن أريد حتّى أن أقاومه، ليس لأني استسلمت له، بل لأنّي لم أعد أرغب بشيء، ولا حتى خوض معارك سقيمة لا نتيجة لها.

وعلى قدر ما كان ذاك الشعور باللّاشيء مريحاً لجهة أنّه يمحو كل إيجابية أو سلبية قد تنتج عن وضع معيّن، على قدر ما ملأني بالموت. كنت آكل في حركة آلية وأتكلّم بأدنى درجات الانفعال. وحين كنت أختلي بنفسي، كنت أشعر أنّي لم أعد قادرة على التقاطها. تمدّدت لساعات طويلة على السرير وتفرّجت على النور الخفيف يجيء من الباحة عبر زجاج النافذة التي كانت ستائرها مربوطة إلى الخلف.

كان الغطاء الأبيض يعلو الفراش الدقيق وبدت أعمدة السرير متكئة بعضها على بعض. لم يكن حزناً عادياً ذاك الذي بدأ يسكنني، بل إحساسي بالمرارة يظلّل كلّ ما قد يغريني بالحياة. تذكّرت تجربة ربيع مع موت ذويه وكيف كان يخبرني دوماً بأنّه يشعر كما لو أنه يمشي في الحياة من دون عمود فقري وبأنّ كل ما يفعله لا يشبعه، وأنّه اذ كان يضاجع العاهرات، كان يحاول إقناع نفسه بأنه يبحث

عن لذة عابرة تشعره بأنّه موجود. ولكنّه كان كالهارب بحثاً عن حنان والدته، ذاك الذي لم تستطع زوجته لسذاجتها الطاغية أن تمنحه إياه، ولم تكن العاهرات لتزوّدنه به، لأنهنّ بالنسبة إليه شيء يدفع مالاً مقابل الحصول عليه، وبالتالي يفقد جوهره المتصل بالشق الروحي، ويسبّب له في النهاية نفوراً أكثر من أن يشعره بالأمان. كنت أنا امرأة ما بين الإثنتين، قادرة عبر شهوتي الجنسية دائمة الاتّقاد أن أشبع ذاك الجزء الحسي فيه وقادرة من خلال حبّي أن أزرع حوله هالة من الحنان.

كان ربيع يملك الكثير من الأحلام ليقدّمها إليّ وكان يعرف جيداً كيف أنساق أنا الحالمة وراء الخيال وألاحقه كما لو أنّه حقيقة. وعندما كان يغريني بمدى جمالية الأشياء لو كنا معاً، ويخلق من التفاصيل معبراً لأتجسّس معه على حياة لم نخطّط يوماً لبنائها، كنت أصل من فرط حساسيتي حدّ البكاء، كما لو أنّي كنت على بعد ميل من حياة مثالية سقطت سهواً في الواقع.

والآن وأنا مسكونة بانعدام الرغبة، أكاد أبدو غير قادرة على الحركة كأنّي مشلولة. حتى لذّة الخيانة زالت ليظهر مكانها آثار ورواسب كثرة الأوهام والغرق في الإغداق على الأمور بصورة مثالية للاصطدام بالفراغ من جديد. كان الغضب والحنق الداخلي يتآكلنني كما لو أنّ مفاعيل تراكمات سنوات من الأسى بدأت تظهر الآن.

استعدت قصة صديقة عمتي سامية الوحيدة فدوى، زوجة الضابط عسّاف الذي اعتقلته قوّات المخابرات السوريّة في منتصف الثمانينيات وبقي محتجزاً عندهم قرابة السنة. بعدما أُطلق سراحه،

عاد عسّاف إلى قريتنا وأكوام من الزهر والأرز تنهال عليه من النسوة. الـورد الجـوري وزهـر اللّيمـون الذي أحاطه مـن كلّ صوب كعريس يكلّل من جديد. عاد البطل، كان الجميع يهلّل قائلاً. ولكنّ عسّاف، على حدّ ما وصفته زوجته، كان ينظر إلى الفراغ، ويفتش عن عينيها بين الجموع، وهي تشعر بأنّ به رغبة في البكاء. كانت الوحيدة التي تلتقط نظراته كما لو أنّها تغرق في حدقتيه وتطلّ منهما.

«قعدنا وحدنا بالأوضة يا سـامية. قربت عليه بدي بوسّـو. برم وجـو. ولا مـرة كان يبـرم وجـو عليـي من قبل. صرت هـزّو وما يرد عليـي. مـا يطلّـع فينـي. بعدين صار يبكي. حط وجو بين ايديه وصار يشـهق متـل الولـد الصغير. أنـا كمان صرت أبكي وامسـحلو دموعو بدموعـي. ضـل يبـرم وجـو يا سـامية. ما بعرف شـو عملـو في ولاد الكلب. ما كان يقلي. اسألو وهزو وما يقلي كأنو لسانو مربط، عالق بحلقو».

كانـت تـروي لعمتـي كيف أصبـح زوجها يسـتيقظ في منتصف الليـل وهـو يصـرخ «تركونـي. تركوني يـا ولاد الكلب». فتركض هي لتمسـح جبينـه بمنديـل مبلّل بالماء وتهدّئ مـن روعه. بقي على هذا الحال قرابة الشـهرين وآثرت هي أن تتكتّم على حاله كي لا تكسـر مـن هيبتـه أمـام أهـل القرية. وفي إحدى اللّيالـي، كان الهواء يعصف بشـدة في الخارج، وكان عسّـاف يجلس قرب النافذة يشـرب الشـاي مع النعناع.

«ليلتا، كان رايق. مبين غير شكل كأنو عندو موعد مع الملائكة. قعدنـي حـدو وحكالـي شـو عملو فـي. ضربو كتير يا سـامية. بهدلوا

وذلّوا. لك يمكن اغتصبوا. لهلق ما بعرف وحموت وأنا ما بعرف».

تروي فدوى أن زوجها أحاطها بذراعيه، وشدّ على جسدها، وقال لها أنّه لا يشعر بأنّه بطل كما يقال عنه، بل يشعر بالإهانة والانتهاك والمرارة، كما لو أنّه اختبر الشرّ الأكبر في الدنيا، ولم يعد له طاقة على احتمال روحه. بقي حبيس منزله طوال شهرين رافضاً أن يقابل أيّ شخص.

انطلقت الرصاصة من مسدسه العسكري في تلك الليلة المشؤومة وخرقت دماغه لتغسل دماؤه الدار. حملت فدوى رأسه المبلل بالدم، ووضعته في حضنها، وراحت تلثم مكان الرصاصة وتقبّل وجهه، بينما تحلّقت الجموع حولها وارتدت أصواتهم «ما بجوز، بوس الميت حرام».

«ويلي عملو بعساف مش حرام»، كانت تقول لعمّتي، وهي تسترجع صدى العبارة التي راحت تصرخ بها علّها توقظ زوجها من موته.

أصبحت جامدة ومسكونة بالخيبة هي الأخرى. حاولت أن تعيش في طريقة طبيعية، ولكنّها عجزت عن ذلك. زارت ضريح عساف يومياً وأمضت ساعات طويلة هناك. كلّما حاول أحدهم إقناعها بأن تتوقّف عن زيارة ذاك المكان، اكتسى وجهها احمراراً غير مسبوق، وجحظت عيناها وتمتمت كلمات غير مفهومة، ولكن قد تفسّرها جيداً نظرات الاحتقار للاقتراح التي تشتعل من حدقتيها. حتّى أنّها في إحدى اللّيالي غفت مسندة رأسها فوق رخام القبر وهي جاثية قربه.

تشاركت فدوى وعمتي المرارة والإحساس الدائم بأنّ ناراً تتقد في الصدر، ولهيباً غير مرئي يتصاعد كالبخار من لوعتهما، الأولى لأنّ حق زوجها ذهب هدراً ودمه تساقط بين ذراعيها مبللاً جسدها من دون أن تستطيع أن تمنع ذاك السيلان، والثانية لأنّ حقّها بأن تحب منع عنها لأسباب واهية، ولأنّها لم تحارب من أجل حبّها. لم تقبل أن تذهب مع نبيل «خطيفة» كما طلب منها مرة. ولكنها بقيت وفية له، كأنّها تنسجه يومياً بمنوال الخيال وتعيش مع طيفه.

ماتت سامية ومات عساف وفدوى رحلت أيضاً من شدّة الحزن. وأنا أشعر مثلهم الآن، كم أنّ الموت نجدة أمام الغرق في بركة من الإهانة. أشعر بالمرارة بسبب خنوعي لسنوات من الضرب والصمت، ذاك الصمت الذي نخاله سينقذنا أو يجعل الندوب تستتر في البعيد، وإذا به ينطق في أحشائنا، به رغبة جامحة بالانعتاق، تماماً كأنّه خيل جامح يصهل بين أضلعنا. لا هرب منه فهو في الباطن. تألّمت كما لو أنّ كلّ تلك المرارة تدلّت من أعضائي الجسدية، وكما لو أنّ جنيناً حاولت إجهاضه بقي عالقاً في فوهة رحمي، وكبر هناك واتّسع جسده ونما وصار يركل. كبر الحزن، وما عاد من سبيل للسيطرة عليه عبر منحه فسحة من الحريّة عبر الخيانة. أرته الخيانة العالم الخارجي، الحبّ وملّذات الجسد، ذاك الذي حبسته في شرنقة. صار أقوى مني كما لو أنّ الحياة تتواطأ مع سريرتي وتناديها، وكلما ارتطمت بالموت، تحوّلت إلى سراب. تراكمت فوق نفسي، ولم أجدها وبقيت أنظر إلى الستائر التي تروح وتجيء بحسب اتجاه الريح. واسيت ذاتي ورغبت أن أعتقد أن هذا العدم أيضاً سيزول، كما تزول كلّ الأشياء

في الحياة.

-27-

كانت المرأة الأخرى تقف على قمّةٍ عالية. لم تكن وحدها. رافقها رجال كثر. كان بينهم والدي وزوجي وعشيقي. حاولت أن أنظر إليها بنصف التفاتة لأرى ماذا تفعل، ولأشير لها أنّي هنا، في مكان ما. لم تكن تراني. بقيت أتفرّج عليها مشدودة الجذع تمشي بين الرجال لتختار واحداً منهم. أردت أن أعرف من ستختار، واذ بها تتأبّط ذراع رجل مجهول الهوية وتسير معه بهدوء. انزلقت إلى الهاوية واختفت معه. بقيت أنا في مواجهة كلّ أولئك الرجال. حاولت العبور بينهم. لم أستطع. ناديتها. لم أكن أعرف اسمها. كانت بي رغبة عميقة بأن أضمّها إلى صدري وأقول أشيائي وما أريده، وبأن أرى ذاتي واحدة، لا يهمّ أين، في أيّ مكان، أو شارع أو طبيعة. كان عندي رغبة بأن أضحك معها، أو حتّى أن أغرق معها في صمت طويل، وأرى البريق في عينيها.

تذكّرت يوم جلست مع هالة وكانت شاردة في البعيد. سألتها بماذا تفكرين؟

صمتت هالة قليلاً ثم روت لي «عندما كنت صغيرة، كان لي دمية وحيدة وأنت تعرفين أنّنا كنّا فقراء جداً. كنت أسمّيها فرح. وعندما كنت أحلم بالزواج من أحمد، أردت أن أنجب فتاة تدعى فرح، لأتمكّن من منحها كل ما حرمت منه. والآن أشعر أنّ جميع أحلامي تبدّدت كثمار لأشجار وهمية لن تنبت يوماً».

- على الأقل ما زلت تحلمين يا هالة، أنا لا أعرف إن كنت حيّة.

- وما نفعها الأحلام إن لم تصبح حقيقة؟

- هي تخدّر الواقع وتتحوّل إلى شرط لقبوله لأنها قد تنبئ بأيام أحلى.

- ولكن فرح سراب.

- من قال إنك لا تستطيعين الإنجاب؟

- ذلك... لا، أبداً. أخاف.

- ولكنّك تقولين أنّ شيئاً لا يخيفك!

- أعتقد أنّي أكذب كثيراً.

- جميعنا نفعل.

- جميعنا ثمار الوهم.

- لماذا لا تحاولين البحث عنها؟ في مكان ما في داخلك؟

- من؟

- فرح!

- أخشى أنّها لن تأتي أبداً.

- هل أفسحت الدرب لقدومها؟

- لا، ليس فعلاً. أنا مثلك يا صديقتي فقدت الإيمان بالحياة.

- ليس فعلاً. ذاك ما أراده منك الآخر يا هالة، أن تتحوّلي إلى امرأة لعوب لأنّك فقدت عذريتك وزواجك. يحاولون أن يبتروا إيماننا في البدايات الجديدة. ألم تكوني مصمّمة على تحويل صالة منزلك إلى معهد لتعليم الإنجليزية؟

- بلى.

- لماذا لم تفعلي اذا؟

- أنا أحاول. الأمر يتطلّب الكثير من الجهد.

- حاولي. لن تخسري شيئاً. ربما بعدها تأتي فرح.

- وإن لم تأت؟

- ستأتي يا صديقتي وسيكون لها مؤخرة كبيرة مثلك.

- لا أريدها أن تفعل.

صمتت هالة، ثم عاودت القول «سحر... ماذا لو لم تأت فرح؟»

- ستأتي. لا تستبقي قدومها. لا تبدأي من النهاية.

- وإن لم تفعل؟

- لا بد أن تأتي يا صديقتي.

سكتت هالة لدقيقة حسبت فيها أنّ حياتها كاملة كانت تعبر في ملامحها، كلّ ذلك الحزن الذي أنكرته، كلّ تلك الخيبات التي سقطت حولها. كل ذاك الصخب الذي حملته داخلها. لم تكن تريد منه سوى فرح، الفتاة التي لم تستطع أن تكون يوماً. الفتاة التي ترعاها أمّها وتحبّها وتسعدها، وتعطيها الأمان والأمل والحافز الذي سيدفعها باتجاه أحلامها. كانت فرح الجزء الذي تنكره هالة وتتوق إليه، الدفء والعائلة والحبّ. ذلك أنّ أحداً من عشاق صديقتي لم يرحمها أو يحاول العبور لرؤيتها. كانوا دوماً يرسمونها بحسب حاجاتهم. وهي متظاهرة بالقوة، كانت في أشرس أنواع الوهن، ذاك الضعف المقنّع الذي لا يفهم نفسه حتّى. كان عشاقها فرحين لأنّ امرأة جميلة تنام معهم من دون أيّ جهد، فلم العناء لاكتشاف سريرتها. ولو تمكنوا

من نهش كل جزء منها، لما رفضوا. وماذا فعلت هالة سوى إحراق ذاتها لتصرخ أنّ من حقّها أن تتمتّع بالحياة.

لم أكتشف مدى هشاشة هالة إلّا لمّا رأيتها تجلس في زاوية الغرفة عندما اشتدّ المرض بابنها مرّة، وكانت قاصرة عن تأمين ثمن دوائه. عرّتها مصيبتها من استقلاليتها، لتدرك أنها أرادت من الآخر أكثر من عبور جسدي خاطف وباهت فوق روحها. كانت تريد أن يشعرها بأنّه شريكها، وربّما لم تعد تريد ذلك أيضاً. كانت صديقتي من أولئك اللّواتي تركن أنفسهن للحياة، فظنّ الآخر أنّها مباحة، وأشعرها بذلك فرضيت بقدرها انتقاماً منه.

كانت مسندة ظهرها إلى الحائط، فيما الجزء الأعلى من جسدها يتحرك إلى الأمام والوراء في اندفاعات خفيفة. راحت تبكي وتبصق، وتصرخ. تلطم وجهها ثم تلكم الحائط. حاولت الاقتراب لاحتضانها فصرخت بوحشية «ما حدا يقرب مني. لك حلوا عن طيزي».

كانت تغرس أظافرها في جسدها وهي تصرخ من الوجع، وتطلق أنيناً، ثم تشتم الله وتشتم كلّ شيء. فجأةً، كان جسدها بالكامل ينتفض ويرتعش، كما لو أنّها تلفظ نفسها خارجاً بعدما صارت في أقصى درجات الألم. كنت أتفرّج على ذروة الوجع الإنساني تتجسد أمامي، ليتّخذ شكل امرأة منبوذة من الدنيا، ممنوعة من الارتقاء. استمرّت في غرس أظافرها في جسدها حتّى سالت دماؤها، ثم أخذت تخرمش وجنتيها لتحدث جروحاً في وجهها وتردد «هيك منيح، مش هيك منيح».

استنفذت قوتها شيئا فشيئاً، وتوقفت عن أذية نفسها لأنّها لم تعد تملك الطاقة لذلك. صارت خافتة تدريجياً وتمددت أرضاً وهي ترتجف. استلقت على الجانب الأيسر من جسدها وطوت ركبتيها إلى الأمام، ثم راحت تمرّر يدها اليمنى على ذراعها وتربّت على جسدها، كأنّها تعتذر عن كلّ ذاك الضرب، لأنّها تدرك في سريرتها، أكثر من أي شخص آخر، كم أنّها مدعاة للشفقة، وكم عبث بها ذاك «الآخر» وامتصّ كلّ ما فيها. كان ألم هالة يتجسّد أمامي، ويصبح محسوساً، فيما أحزاني تتشظّى في الصمت، وترفض أن تخرج من داخلي لأشعر بالعدم مرّة أخرى. كانت الجزء المرئي مني، ذاك الّذي أفرّ منه وأقابله بصلافة وصلابة مفتعلة.

كنت أشاهدها وأفكر في عذاباتها، تلك التي قاومتها في استهتارها بكلّ شيء، وبداية ذاتها. هل يمكن لامرأة تسلّم نفسها طوعاً إلى مجموعة من الرجال أن تشعر بالانتهاك؟ وكم أشبهت ربيع في تلك التصرفات العشوائية، حين ألقى بنفسه بين أحضان بائعات الهوى ليشتري ويبيع بهن وبنفسه.

كانت تقول أنّها أمضت نصف عمرها وهي تنظف حثالة الآخرين، وأنّها لا تنوي إضاعة ما تبقّى من الحياة في فعل ذلك. وهو أيضاً كان يعتبر نفسه محطّ استغلال من الكلّ، وكان يؤرّقه ذاك الشعور المظلم. كلاهما اختار العبثيّة، ولم يجدا راحة فيها. كانت تمنحهما شعوراً بالاطمئنان لدقائق معدودة، ثم تتسلل على غفلة لتريهما الخراب الذي حلّ بروحهما. المعادلة الأبدية: الضحيّة تتحوّل إلى جلاد، والجلّاد ينكسر مع سماع كلّ ضربة سوط تنهمر على جسد الآخر لترتدّ إليه

وتذكره بالسوط الذي جلده. تدور الحياة في حلقة مفرغة، فتبدو النهاية بداية والبداية نهاية. تراه عرف الحياة أو ما نتحوّل إليه من دون أن ندرك؟

كانت هالة أهم من ذلك، لكنّ أحداً لم يرد تصديقها. كانت أهم من مضاجعة سريعة ترحل بعدها. كانت أهمّ من أن يتهمها عشّاقها بالفجور، أو من أن يظنّوا أنّها لا تستحقّ أن تكون والدة فرح، لأنّها وهبتهم جسدها. لم يعرفوا أنّ فرح بالنسبة إلى هالة كانت أسمى من ذلك كلّه، ممّا لن يتمكنوا من زرعه في رحمها. إيمان هالة بفرح دفعها كلّ مرة للرحيل، لأنّ أحداً لم يكن يريد أن تأتي فرح برغم رجائهم أن تفعل. كانت تكتشفهم عبر مضاجعتهم، وعندما تدرك كم هامشية هي أجسادهم، كانت تسارع للرحيل، خوفاً من أن يكون لفرح أب سيّء كوالدها.

-28-

تغيّرت هالة مع الوقت وأصبحت أكثر صلابة. وكنت أراها ساعية لتأكيد الذات تعويضاً عن فقدان الأهل والأحبّة، وحتى الشعور بعدم الانتماء إلى الوطن. حتّى أنّها راحت تحدثني عن مشروعها الحلم بأن تحوّل منزلها إلى معهد صغير لتعليم الإنجليزية. كانت هالة تتحدّث بشبق غير معهود ولكن ليس عن الجنس، إنّما عن طريقة مغايرة لإثبات كينونتها. كان جسدها الصغير يعلو ويهبط ويتخلّى عن ايحاءات متعمّدة لإثارة الشهوة.

أخبرتني هالة أنّها سعت للبحث عن شقيقها ابراهيم منذ قرابة

السنة، وأنّ أحد الدعاة قال لها أنّه مات في العراق. سألتها لماذا أخفت الأمر عنّي طوال كلّ تلك المدّة. فأجابت أنّها كانت رافضة أن تصدّق الأمر، وما زالت تأمل أن يعود شقيقها يوماً. كنت أعرف أنّ هالة لا تكذب، مع أنّها تحيط الكثير من الأشياء بالظلال، وتخفي أخرى لحين من الوقت، ثم تبوح بها لاحقاً. ولكن، لماذا أستغرب روايتها؟ ألم يوقظني موت عمّتي من استغراقي في العدم والخيانة والهرولة وراء سراب لا أستطيع حتى تحديد ماهيته؟ اكتشفت هالة أنّها في صراعها الدائم مع الحياة، كانت تصارع كائناً واحداً لا غير، كائناً يدعى ذاتها. أنا أيضاً كنت أفعل المثل، عبر الصمت والخوف من أن أجهر بكياني. كان في عينيها اللّتين بلون العسل القاتم شيء من القلق والخوف بأن تنتهي وحيدة، ممزّقة وغير متوازنة.

استمرّت هالة في الحديث في اندفاع وحماسة، وأخرجت من حقيبتها شرائط ملوّنة وأوراقاً مقصوصة بأحجام وأشكال مختلفة.

- سأسمّيه «فرح»، سأسمي المعهد فرح وسأبدأ بغرفة صغيرة في المنزل، وتحديداً في تلك الغرفة الّتي كنت أضع فيها فراشاً كلّ ليلة لكي أنام، وسيصبح البيت أجمل. لقد ادّخرت القليل من النقود. سأزيّنه وأعطي دروساً لأبناء الحيّ بعد أن أنتهي من العمل في الشركة وسيكون ابني معي. أترين؟ لدي خطة شبه جاهزة.

بدت لي هالة في تلك اللحظات أشبه بفرح، الابنة التي لا تعرف إن كانت ستلدها يوماً، ولكنها تحاول صنعها. في تلك اللحظات، لم تكن تريد أن تكون واسعة الثراء وغنية. لم تكن تريد أن تكون تلك المرأة الباردة والقاسية الّتي لا تعرف الحب. حاولت ذلك مرّات

عـدّة، ونجحـت فـي فتـرات متقطعة وغير حقيقيّة، كشـجرة ممتلئة لا تحمل إلّا ثمار الوهم، مخلّفة نتفاً من روحها وجسـدها على أجسـاد عشاق أشبه بأغصان لا تحمل سوى الخريف. كانت تمرّ أمامي وأنا أتذكّرها في أسوأ أزماتها وأشدّ مراحل حياتها قنوطاً، حين حسبت أنّ الضوء الذي يشع في عينيها لن يعرف الشمس يوماً. كلّ ذاك الجري في اتجاهات متعاكسة، والخوف، والحرمان بدت ضئيلة أمام محاولة جدية لمواجهة الحياة، لإيجاد القليل من الفرح.

أنا أيضاً أردت أن أكون فرح، وكنت أتحيّن الفرصة لأفهم متى سأتمكّن من المقاومة في عناد، ولكن من غير عداوة لنفسي، وكنت أراقـب نـداء عينـي المبهم في المرآة لأغريها كي تتوحّد بي، وأشـبك يـداي فـي محاولـة للتأهب لمعانقة الحياة، ولو في عمر متأخّر. ولما كنت أسـتلقي قرب زوجي، كنت أشـعر أن جسـدي صار يتّخذ تلقائياً وضعيـة المقاومـة، كأنّي إنسـان لا يود أن يسـتعد للنـوم، بل للرحيل فقـط، للبعيـد، للسـفليّ، للعلويّ، لا فرق، لمكان آخر فحسـب. وإن كانـت هالـة قـد قبضـت على أول خيط من حلمهـا بعد تجارب مُرّة، كنـت أخشـى أنـا ألّا أكـون أكثـر مـن مجرد ثقب أسـود فـي الحياة. وفكّرت مراراً في صديقتي الّتي وضعت بعد عناء طويل قدميها على قارعة الطريق، مع احتمالين متوازيين في الفشل والنجاح.

وكنـت ألتقـط أوراق حياتـي كامـرأة تعـدو عاريـة علـى أطراف أصابعها، خلسة، لتنحني وتلملم ما بقي منها من دون أن يسلبها أحد لـذة تحضيـر نفسـها لمواجهة ما هربت منه منـذ ولدت، وكنت أرغم نفسي على الجلوس هناك، مطوية ومدعوكة لتخبرني عنها، بعيداً عن

الآخـر، بعيـداً عـن ربيع، وأعذار لا تنتهي ولا تسـقط لتبرير همجيّتي وخنوعي وخيانتي، وكل ما أرمز إليه من خطأ وصواب.

حين أصابني الهوس، كنت أشبه بثمرة لا تريد أن تقع عن الشجرة خوفاً من ألّا يلتقطها أحد وينتهي بها الأمر وحيدة. فقدت بصورة آلية الرغبـة كلّمـا ابتعـدت عن ربيع وبتّ محكومة بالخوف. أصابني الهلع كلما دنوت من نفسـي واختليت بها لفترة قصيرة. وكنت أسـأل نفسـي من يملك كلّ الأجوبة ويتحكّم في زمام حياتي؟ لماذا انتقلت من حالة الفرح إلى الحزن العميق فجأة؟ وكيف السبيل إلى الخلاص.

كنت كلاعب شطرنج تلحق به الهزائم المتكررة، فيوهم ذاته أنّ الحركة القادمة سـتعوّضه عن الماضي. ومرّات عدة، فكّرت في قتل ذاتي لشـعوري أنّه مسـتحيل عليّ مقاربة واقع شـديد البعد عن ذاك الذي عشـت فيه. وكنت أفكّر طويلاً في هالة، وأحسـدها في سـرّي على قدرتها أن تجتاز المرارة، أو تقنع نفسها بأنّها تستطيع ذلك. كنت أتخيّلها في صغرها، وسـط أجواء الضجيج والوسـاخة في ذاك الحيّ الذي سكنته، بشققه الشوهاء وأهرامات القمامة المتراكمة على ضفة نهر أبو علي منذ زمن لا يعرفه أحد، وسـط العوز، وعدم الاسـتقرار وانعدام الأمان اليومي والخوف.

ومرات عدة، كنت أسأل نفسي ماذا أستطيع أن أفعل لمساعدتها أو تخفيف ذاك الأذى المبهم الذي لم تعطني يوماً تصوّراً كاملا بشأنه. المشكلة في هالة أنّ أحداً لم يكن يستطيع مساعدتها، لأنّه لن يعرف يومـاً مـا حـلّ بها خلال أعوام متكدسـة من الظـلام، فهي لم تخبرني يومـاً جميـع التفاصيـل. وبدا لي أنّها إن حكت، سـتخرج من جعبتها

حكاية مروّعة تلو الأخرى عن مدى قسوة النفس البشرية وخمولها.

وكنت أعرف في سريرتي أنّها أخفت من الآلام أكثر بكثير ممّا قد جاهرت به، فأحسبها ذاقت طعم الموت المرّ عندما كانت تقول «لا أحد يفهم كم هي مكلفة الدماء». قامت دوماً من تحت الأنقاض، وحفرت بالجلد قبل الأظافر، لأنّها كانت مصممة أن ترقص على مذبحها، كما يرقص الأحرار في سجونهم، متغلّبين على كلّ وسائل التعذيب.

لم أعرف يوماً ثمن النصر الذي أقسمت لذاتها أنها ستحقّقه وكنت أسأل نفسي ما القوّة التي تدفعها إلى الأمل، وما الذي يدفعها أن تعبق بأريج لطيف، يزداد حدة حين تضحك، فيكشف جلدها عن أوردة دقيقة زرقاء.

جسّدت الشباب الحيّ الذي يتنفّس، من دون كوابح ولا حسابات، وجرعات كبيرة من السذاجة، ومشيئة العيش يوماً بيوم، خارجاً عن كلّ ما هو متعارف عليه. وبرغم صراعاتها الداخلية، كنت أشهد شيئاً فشيئاً كيف تمكّنت من التغلب عليها كونها سريعة التحوّل، لا تعلق في فكرة سوداوية واحدة تشلّ وجودها.

وقد أذهلتني كلّما تحدثت عن المثالية الغائمة، الّتي دفعت ثمنها غالياً. ربما حفظها لكرامتها ومشيئتها الحرّة كان ما دفع بها إلى تقبّل الحياة، فيما تخبّطت أنا بين الندم والخوف. وبقيت توّاقة إلى ذاك السكون الّذي لم أبلغه إلّا مرّات قليلة في توحّدي مع ذاتي.

لكنّ سنوات الضرب حوّلتني إلى مجرد شيئ مكبّل إلى صاحبه، جارية ربّما أو كلب. ولأني تقبلت أن أعامل على هذا النحو، كنت شبه متأكدة من أنّي قد أنتهي مجنونة أو ميّتة. فهل كان دافعاً مازوشياً

ما دفعني إلى العذاب، لمعرفتي سلفاً بأني إن تصرّفت على نحو غير عقلاني، سأعاني كثيراً، وأنّني ولو مهانة، على ضفة من الأمان.

فيما اندفعت هالة إلى حلمها وبذلت كلّ ما في وسعها لتحقيقه، كنت أتناول الأدوية المهدئة التي لم تزدني إلّا عدماً، لأغرق في الصمت ليس أكثر. وفي سكوتي، كنت أشبه مدينتي الغارقة في الحضيض، في انتظار ما قد ينتشلها منه. كلّ معالم الحرمان في أحيائها الشريدة وانتهاكها المتراكم الّذي أغرقها في سبات عميق جعلها عرضة لتلقي كلّ ما قد يصيبها من بؤس وحزن، وعاجزة مثلي عن أن تقوم من تحت الكمّ الهائل من التلوّث، للعثور على فسحة أمل أو ضوء ينبض في الأفق.

واذا اشتدّ سكوني، ازداد غضب زوجي، فكانت تصيبه نوبات من الصراخ، كرجل يجلدني بحبال مدوية. فقدت إحساسي بجسدي وأحلامي، وكلّ ما فكرت به إن كان قول لا متأخرة جداً أفضل من عدم قولها أبداً. ولكنّي، في إحدى الليالي، تلك التي لا يسري فيها سوى الظلمة، طرقت روحي رغبة بهدر ذاك الجسد الذي لم يحتوِ جمالها، وابتلعت اقراص المهدئ بأكملها، بحثاً عن السكينة.

الموت، ذاك الكائن الّذي صبوت إليه، لم يقطفني أيضاً. تركني معلقة بين آلات في المشفى، حيث غسلوا معدتي المضطربة كي لا أحتضر. ولمّا شارفت على وضع حدّ لحياتي، شديدة الوهن، خاضعة لأزمان من العلل التي لا داء لها سوى كسر تلك الذاكرة، كسر تلك الأنا التي صنعوها واحدا تلو الآخر من مآسيهم، ثم تحلّقوا حولي في غرفة ضيقة، وجوهاً وأجساداً.

كانت أمي تبكي، للمرّة الأولى. وراح أبي يعبر ردهة المشفى ذهاباً وإياباً في شكل هستيريّ. وكنت أسمع ضجيج سامي وذويه وشجاراً في الخارج. كانت هالة تصرخ بهم معنفة، موجّهة اللوم لكل كائن حولها.

وكانت صورهم تعبر الواحدة تلو الأخرى في ذهني: عشيقي الذي لم يجهر بوجودي في العلن. صوت هالة وهي تقول إنّي أهجرهم قبل أن يهجروني. موت عمّتي سامية التي همست لي نحن البشر نخون أنفسنا. سامي الذي كان يخون حاجته إلى العطف بالتصلّب، خيانة ربيع لصورته، وهنادي لماضيها. دنيا التي سألتني ماذا يعني خيانة يا ماما. ابن هالة الذي كان يدّعي أنّه غير مريض ليخون قدره المقيت.

ولما دخلوا ليطمئنوا عليّ، انتابتني نوبة مريرة من الذعر وأردت أن أصرخ، إنّه يدعى ارنستو تشيجيفارا يا أمّي، ولقد انهار الاتّحاد السوفياتي يا أبي. ونحن لسنا عائلة سعيدة، ولا مثالية. نحن بؤساء. وأنا أريد أن أحيا. لا أريد أن أحيا بأقل ما يمكن، بل بأكثر من كلّ ذلك بكثير. أريد مشاعر حيّة. سئمت جدرانكم الباردة. ألا تدركون كم نحن تعساء؟ متى سمعتم الموسيقى؟ أريد أن أشعر بالفرح؟ هل ما أطلب كثير؟ أريد بعضاً من الطمأنينة والسكينة. أريدكم أن تخرجوا مني جميعكم. أريد أن أكون أنا. أريد أن أكون امرأة مطلّقة. لا أريد أن يضربني رجل. أريد أن أفتح روحي لغد متجدّد بالأمل والإشراق.

اصطحبوني إلى غرفة الطوارئ وتركوني هناك أسبوعاً بأكمله، ومنعوا عنّي الزيارات. وكان الطبيب يأتي ليحدّثني، فأتمتم له في

كلمات غير مفهومة أنّ أخ هالة أصولي، ومن علّمه الجهاد هم أولئك الّذين زرعوا ثقافة الخوف في مدينتي، وكنت أخبره أنّ زوجي ألحق بـي الأذى علنـاً، وأنـا بادلته الفعل في السـرّ. وحدّثته مطوّلاً عن ثراء ربيع السريع وغير المشروع، وهوسه من الفقر.

كانوا يحقنونني بإبر كثيرة تحدث وخزاً في جسـدي وأخبروني أنّي سأسـافر كي أسـتعيد عافيتي. وفي تلك الخلوة التي بقيت فيها، كنت أطلب الانفصال عن سامي يومياً، وأخبرهم أنّي لست سحر التي يعرفونهـا، وأنّ امـرأة أخـرى تؤرّقني في داخلـي، وإذ بدوت مصمّمة على ذلك، كان أهل سـامي يعيّرونه بزوجته المجنونة التي لا تصلح لشيء ويحثّونه على التخلّص منّي.

وبـدا لـي والـديّ في عطفهما، كشـخصين يكفّـران عن ذنوبهما الحزينـة والمشـتّتة، حتـى أنّ أبـي الملحد صار يسـأل الله أن أسـترد عافيتـي، مـدركاً للمـرّة الأولى، أن ابنتـه التي ابتعدت عنه، كما فارقته الرغبـة فـي إحـلال العدالة، بأمس الحاجة إليـه. وكانت أمّي تحتضن طـارق ودنيـا كمـا لـم تغمرني يومـاً، في كثير من الحنـان، مطالبة أن تأخذ الأحفاد بعيداً عن زوجي حتّى أتعافى.

وفي فجر لاحت فيه الشمس ساطعة، كنت أحمل حقيبتي سفر في مطار بيروت الدولي. اقترب مسـؤول الأمن ليختم جواز سـفري، فنظرت إليه في رجاء وقلت له، أرجوك لا تفعل. ولما سـألني «هل أنت متأكدة يا سـيدة سـحر؟»، نظرت إليه راغبة في التحرّر من ثقل الحقائب التي أنهكتني مطولا، وقلت له «لقد حصل التباس يا سيدي. أدعى هالة ولا أريد السفر، لدي ابنة تدعى فرح في انتظاري».

أنا، هي والأخريات

رواية

جنى فواز الحسن

• روائية من لبنان

تغيّرتُ مع مـرور الزمن. ثم تغيّرت مرات عدّة. وأكاد لا أذكـر الآن ملامـح أشخاص مـرّوا في حياتـي، إلّا إذا قـررت الغوص في عمـق اللّعبة واستحضرتهـم فـرداً فـرداً، لكـي أستعيد تواصـلاً، لا أعـرف إن كان فعـلاً ضرورياً، أو نابعـاً مـن محاولـة لمعرفـة نفسـي. ولكـن، هل سأصـدّق الذاكـرة؟ كيـف أفعـل وقـد ارتجلت وجودي دائماً من أماكن غير متوقعة، كفيلة بأن تبقينـي في حالـة تيقّـظ؟ هـل يمكـن أن تبـدو الصـورة المنتظرة بفارغ الصبر صحيحةً الآن؟ وحتـى إن كانـت كذلـك، لا يهـم كثـيراً. الأمـر الوحيـد الذي قد يحدث فرقاً جذرياً في الصـورة هو ما لا نقول. ومع ذلك، سأواصل الحكي لأمرٍ واحـد لا غـير، متعة القـول، وربما أيضـاً متعة البوح أو متعة الكذب.





الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com





ISBN 978-614-01-0453-2
9 786140 104532

تصميم الغلاف: سامح خلف